جيته

الأنساب المختارة

ترجمة

الدكتور عبد الرحمن بدوي

دار الأندلس

جيته

الأنساب المختارة

ترجمة

الدكتور عبد الرحمن بدوي

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

العنوان الأصلى : **Die Wahlverwandtschaften**

ظهر لأول مرة : حرر جيته القسم الأول من القصة إبان صيف سنة ١٨٠٨
والقسم الثانى خلال شهر أغسطس سنة ١٨٠٩
ونشرت القصة كلها فى أكتوبر سنة ١٨٠٩

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٩٨٠م

تصدير عام

« النــاس سيبصرون فى هذه القصة آثار جُرْح عميق يخاف أن يندمل ، وسيستشرفون منها إلى قلب يهاب الشفاء » .

هذا الجرح الدامى الذى أصاب قلب جيته الجزوعَ فى سن الكهولة كان من أثر سهم أصابه به كيوبيدُ من قوس مِنّا هِرْ تسْليب ، هذه الفتاة المتوثبة الحالمة فى مُؤْتَنَف الشبيبة التى عرفها عند آل فروّمان الذين تكفّلوا بتلك اليتيمة العزيزة ذات العينين النجلاوين السوداوين النافذتين ، والوجه الرقيق المستدير ، والقسمات اللطيفة الدقيقة ، والشّعر الكَسْتَنائى الجفال ، والنهود البيضاوية الناعمة .

لقد أحبها الشيخ الذى ذرّف على الخمسين وهى لا تزال طفلة فى العاشرة ، ونما هذا الحب حتى بلغ أوجه حينما أشرفت على الثامنة عشرة . أما هو فقد كان فى الثامنة والخمسين ، بيد أن هذا القلب العظيم « الذى يهاب الشفاء » على الرغم مما قام به من تجارب غرام لم تتوفر مثلها لغيره من العباقرة ، لا يزال يسمو إلى أن يصاب بسهم حب جديد ، لأنه قلب حىٌّ أبداً ، شابٌ أبداً ؛ ومثل هذه القلوب لا تخشى الشيخوخة ولا ترجو للسنّ المتقدّمة وقاراً .
وهكذا فلتكن القلوب النبيلة العظيمة حقاً .

وكان الناشر فروّمان — شأنه شأن كبار الناشرين فى أوربا وفى العالم العربى فى عصره الزاهر — رجلا واسع الاطلاع متعدّد النواحى الفكرية ؛ وكان بيته نديّاً أدبياً من الطراز الأول فى مدينة يينا — تلك المدينة ذات الشهرة الثقافية الكبرى بفضل جامعتها الزاهرة التى قام بالتدريس فيها أمثال

هيجل وشلنج وهِكل حتى كانت معبد الفلسفة المثالية والفلسفة الحيوية طَوال القرن التاسع عشر — ؛ وكان جيته يتردد على هذا الندىّ باستمرار ومثابرة غريبة إبان إقامته فى هذه المدينة ، ويلوح أن إعجابه بالندىّ قد كان يحمله على الإطالة فى الإقامة الأشهرَ فضلا عن الأسابيع . ولم يكن هـذا الإعجاب مصدره ذلك الجوّ الروحى الذى كان يسود الندىّ بقدر ما كان ذلك الجمال الحالم الذى يشع من تلك الفتاة الرقيقة المُدَلّلة .

ولم يكن فى الفتاة ما يدعو إلى الإعجاب الفكرى حتى تُنعت عاطفة جيته بنعت آخر غير الحب المشبوب . فقد كانت كما وصفها أخوها فى الوصاية : « على الرغم من أنها كانت منذ شبابها سليمة موفورة الصحة ، فإن نموّها الروحى كان بطيئاً ، حتى إنه لم يكن فى الوسع أن يطلب إليها أن تقوم بأداء أى عمل عقلى يحتاج إلى شىء من الجهد والبذل . ولقد ظلت طوال حياتها على حال من الحلم الساجى ، مع أنه لم يكن يعوزها الذوق السليم والإحساس الطبيعى ؛ كما بقيت دائماً ذات نفس مُحْسنة متواضعة رقيقة حريصة على الاحتفال برغبات الآخرين ، بل وبأمانيهم الخفية المستورة » . ولعل هذا عينَه هو الذى جذب جيته فيها : فالعباقرة ورجال الفكر يبغضون دائماً المتحذلقات والمتظاهرات من النساء ، وبخاصة ذوات الثقافة الزائفة البراقة منهن ؛ بينما يميلون إلى الطبائع الحالمة الساجية والنفوس البسيطة الساذجة التى تتمثل فيها البراءة الأولى والطهارة والفطرة إلى أبعد حد مستطاع . ولقد أصاب رينان حينما قال : « كلما كان الرجل أنمى بفكره كان أكثر حُلْماً بالقطب المضاد ، أعنى باللامعقول ، وبالمرأة التى ليست إلا امرأة ، وبالكائن الغريزى الفطرى الذى لا يسلك فى الحياة إلا وفق ما يمليه عليه دافع الشعور الغامض » .

ومِنّا كانت من ذلك النوع ، فكان طبيعياً أن تستثير حب جيته ، على الرغم من أنها كانت صغيرة ، وكان هو فى ذلك الحين هدف نظرات النساء الفاتنات المُعجَبات به ، حتى كان يضطّر — وهو زير النساء — أن يفرّ منهن . ولم تكن هذه الصفات وحدها هى التى جذبته فيها ، بل كانت فى مسلكها العام فى الحياة تلائم اتجاه جيته فى ذلك الحين . فقد كانت مستسلمة تميل إلى شىء من الزهد والعزوف عن الحياة ، وتلك كانت العاطفةَ التى تسود فكر جيته ونفسه فى ذلك الحين ، حتى كانت فكرة الزهد والعزوف هى المحور الذى يدور من حوله إنتاجه الفنى فى ذلك الحين .

واقد بدأت الصلة بينهما تأخذ وجهها الِجدّى فى نوفمبر سنة ١٨٠٧ بعد أن كانت من قبل نوعاً من الحب الأبوى الرفيق من جانب شيخٍ نحو طفلة لم تكد تشارف النهود ؛ وإذا كان مع هذا قد أحسّ بما تنتهى إليه هذه العاطفة ، فقد حاول علاجها منذ البداية عن طريق دوائه المعهود ، وهو الابتعاد والفرار . فقلّل من زياراته لمدينة يينا حتى يستمع إلى صوت الحكمة وهو يدعوه إلى تركها والعزوف عن حبها . بيد أنه اضطر فى ذلك الشهر أن يذهب إلى يينا للقيام بدراساته الخاصة بنظرية الألوان التى كان فى شُغُل بها إبان ذلك الحين ، كما كان يريد أن يفرُغ فى هذه المدينة الهادئة لكتابة مسرحيته « پندورا » التى كان يريد فيها أن يعبّر عن موقفه من الأحداث الضخام التى كانت ترهق كاهل أوربا ناپليون فى تلك السنين ، وعن رغبته الحارة فى أن يرى الإنسانية تسلك بهذه الأعمال الجبارة التى تقوم بها « نحو الخير الأبدى والجمال الخالد » . فكان لا مناص له من التردد على ندىّ آل فرومّان . وهنا أحس بالخطر الذى يستهدف له من جديد ، وبصورة أعنف فى هذه المرة خصوصاً الآن وقد أصبحت الفتاة فى أوج فتنتها ، وصارت تتقن

الغناء بحساسية مرهفة والرسم والتصوير بالألوان المائية . ومع هـذا فقد آثر العزوف مرة أخرى لولا أن جاءه منافس قد أثار غيرته وكانت بينهما معارك شعرية خاضها كلاهما من أجل الفتاة . فلقد وفد على بيتنا فى ذلك الحين شاعر شاب كان يعدُّ أبرع شاعر بين « أبناء الوادى » ؛ ونعنى به زَخرْياس فِرنَر ، فتعرف إلى جيته ، وحاول جيته أن يدرس فيه شعر الجيل الجديد . وبما عُهِدَ فى الشباب من حماسة واندفاع اشتعل قلب زخرياس غراماً بالفتاة وراح يقول السونيتّات الشعرية الواحدة تلو الأخرى فى تدفق غريب ، فكان بينه وبين جيته تنافس مزدوج : فنى وعاطفى معاً . وإذا بجيته هو الآخر يتدفق بالسونتات على الرغم من أنه كان يكره من قبل هذا النوعَ من النظم ، حتى كان على حد تعبيره فى « حمى سونتات » متخذاً ها هنا مثله الأعلى عند زعيم السونتات وهو بترركه ، فراح يصف تجربته الجديدة فيقول : « تدثرت برداء طويل غطانى حتى وجهى ، وهبطت إلى السهول التى أشاع فيها الشتاء ظلمة وكآبةً متخذاً شِعباً صخرياً ، رمادىّ اللون وَعْراً ، وفى نفسى اضطراب وبى نزوع إلى الفرار . وفجأة بدا لى أن فجراً جديداً قد لاح فى الأفق أضواؤه ، لاح فى رؤية فتاة ناهد ، أجل ! لقد تبدى أمامى فى كمالٍ يعدل كمال العاشقات الرفيعات اللائى تغنّى بهن الشعراء . هنالك تطامنت رغبتى المشبوبة . ثم انصرفت عنها وتجنبتها وتركتها تمر ، وشددت معطفى أكثر وأكثر وغصت فى أعماق ثناياه ، وكأنى ـ متحديا ـ أردت اللّواذ بحرارة نفسى . ومع هذا فقد تابعتها ، تابعت هذه الفتاة التى توقفت أمامى . آه ! لقـد قضى الأمر ! لم يَعُد فى وسعى بعدُ أن أظل منطوياً فى داخل معطفى ، فألقيت به بعيداً عنى ، وارتمت الفتاة بين ذراعىَّ » . وهكذا قدر للشيخ أن يخلع معطف وقاره وأن يشتعل فؤاده غراماً بهذه

الفتاة الرائعة ، واندفعت العاطفة تملى عليه سبع عشرة سونتة من خير قصائده الغنائية ، ومضى يخترع الأقاصيص والتهاويل معبّراً فيها عن آلام غرامه وأحزان وجدانه وشكاة مأساته ، وإن لم يكن هنا فى سخاء العاطفة وبساطة الإحساس واندفاع الوجدان العَرِم بقدر ما كان إبان دور فرتر ومغامرة زيزنْهَيم . ثم تبلورت هذه الأحاسيس كلها التى ولّدتها تلك التجربة الغرامية فى « پنْدورا » ثم على وجه التخصيص فى « الأنساب المختارة » .

« فالأنساب المختارة » قرينة « آلام الفتى فرتر » فى أن كاتبها قصد به التعبير الفنى عن تجربة غرامية عنيفة لم تستطع أن تجد منفذاً للإرضاء والإشباع إلا فى الخيال الأدبى ، فجاءت كلٌّ منهما تنفيساً شعرياً لقلب مُشْخَن بجراح الحب . بيد أن ثمت بينهما من الفارق الضرورى ما كان لا بد أن يقع بين جيته الشاب المتوثب العَرِم الوجدان المنطلق فى حركة « العاصفة والإندفاع » ، وبين جيته الكهل الذى خبر الدنيا وعرف أحوالها فامتلأت نفسه من حكمة الحياة وطامن من حرارة روحه ومال إلى شىء من الزهد والعزوف ، وصار يَقْدُر العواطف بقدرها المتزن ؛ جيته الذى صار يعنى بالمسائل العلمية قدر عنايته بالاتجاهات الفنية فلم يَعُد شاعراً خالصاً كما كان فى عهد فرتر ، بل صار إلى جانب هذا عالماً يبحث فى النبات والمعادن ونظرية الألوان ، فكان لا بد له أن يتأثر كذلك بهذه الناحية العلمية فى إنتاجه الفنّى ؛ ولذا جاءت قصة تجربة غرامه الجديدة جامعة بين هذا كله : بين الوجدان المتوثب المشبوب ، والحكمة الناصعة المتزنة والنزعة العلمية الإنسانية معاً .

أجل ، لقد أراد جيته فى هذه القصة أن يطبّق صيغة كيميائية مشهورة

على الأحوال الإنسانية . فقد عرف من دراساته الكيميائية ، كما قال في حديثه لكاتبه ركر ، عن طريق مؤلَّف لكيميائي سويدى هو توربرن برجمن Torbern Bergman بعنوان « الأنساب المختارة » *De attractionibus electivis* تَرجم إلى الألمانية سنة ١٨٨٥ بنفس العنوان *Die Wahlverwandtschaften* ، وفيه عرض نظرية التجاذب بين العناصر الكيميائية وما يؤدى إليه هذا من تركيبات جديدة وفقاً للعوامل التي تدخلت في هذا التجاذب . بيد أن المؤلِّف السويدى لم يستخدم في شرحه لتلك المسألة الحروفَ ، إنما الذى استعان بها هو الفزيائى الألمانى ی . س جيلر Gehler في « معجمه الفزيائى » الذى ظهر بين سنة ١٧٨٧ — ١٧٩١ . وخلاصة هذه النظرية الكيميائية أن بين المواد الكيميائية أنواعاً من النَّسَب أو التجاذب الطبيعى أولاً فيما بين نفسها ، كما يشاهد في قطرات الماء التي تميل إلى الاتحاد بعضها ببعض لتكوين السيول والأنهار ؛ وثانياً فيما بين أنواعها المختلفة بعضها وبعض ، وهذا إما أن يتم بسهولة كما في اتحاد الخمر مع الماء ، أو بمساعدة قلوى كما في حالة امتزاج الزيت والماء ؛ وقد يكون من شأن هذا الامتزاج ، إن كان قوياً بدرجة كافية ، أن يولّد مادة جديدة كل الجدة ، كما يحدث حينما يصب حمض الكبريت فوق الجير مُنْتِجاً مادتين جديدتين هما حمض الكربون والجبس . كما أن ثمت نوعاً ثالثاً من النَّسَب يمكن أن يسمى المتقاطع أو المزدوج : فقد يكون لدينا زوجان من العناصر ، ا و ب ، حـ و ى ، وكل عضو في كلا الزوجين مرتبط أوثق ارتباط بأخيه ؛ لكن إذا وجدت الأعضاء الأربعة في حضرة واحدة ، فقد يحدث أن يفضل ا الانفصال عن ب والاتحاد مع ى بينما يميل ب إلى الانفصال عن رفيقه مفضلا الاتحاد مع حـ ؛ وعلى هذا النحو يحدث تقاطع في النَّسَب .

عرف جيته هذه الظاهرة التى تجرى بين العناصر فى عالم المـادة من دراساته الـكيميائية التى تعود إلى سنة ١٧٩٨ تقريباً ، فأراد أن يجد نظيراً لها فى عالم الأحياء ؛ فاستبدل بالعناصر المادية أشخاصاً من الإنسـانية وعرضهم أمامنا وهم : إدورد وشرلوت والـكابتن وأوتيلى ؛ وقصّ علينا بلسان الـكابتن ، وقد سألته شرلوت عن تلك الظاهرة ، نبأ هذه التجربة الـكيميائية وما عسى أن تنطبق عليه فى عالم الإنسان . وهكذا وضعنا المؤلف بإزاء موضوع القصة منذ الفصل الرابع : فسيحدث للـكائنات الإنسانية ما يحدث تماماً لتلك العناصر الـكيمائية ؛ إذ على الرغم من القـانون الذى يربط بين هذه الشخوص فإن الاتّحاد ستنفصم عروته وفقاً لمـا تقتضيه الأنساب الطبيعية المختارة تخلياً السبيل لارتباطات جديدة . فالقانون الوضعى قد ربط بين إدورد ، هذا البارون الثرى المجتمع الأَشُدّ ، وبين شرلوت الأرمل العاقلة ، بعد أن فصل بينهمـا زواج غير موفّـق من كلا الجانبين على الرغم مما كان بينهما من غرام متبادل قبل هـذا الزواج ؛ بيد أنه لم يكلل بالزواج إذ آثر إدورد أن يرضخ لمشيئة أهله الذين رغبوا له فى الاقتران بفتاة موسرة ، وشرلوت من جانبها تزوجت وأنسلت فتاة ذكية لعوباً كلها فُراهات شيطانية تدعى لوسيانه . ثم بعد حين يصبح كلاهما حرًّا فيعودان إلى عاطفتهما القـديمة ، وينتهى الأمر بهما إلى الزواج . وها هما يسلـكان سبيل الحياة الهادئة فى ضيعتهما حيث يفكران فى إقامة مُنْشئات جديدة وغرس مآبر فى البستان . وكان لإدورد صديق منذ الطفولة يذكر دائماً بوصفه العسكرى وهو الـكابتن ، وقد كان فى ذلك الحين متعطلا من كل عمل ؛ فرأى إدورد أن واجب الصـداقة يدعوه إلى إيجاد عمل لتلك المواهب الوافرة المتعطلة ، ورأى من ناحية أخرى أنه فى حاجة إلى معونته

فيا استقر عليه من الإشراف على استغلال ضيعته على خير وجه . فاقترح على زوجه أن يدعو الكابتن معهما ، كيما يعاونهما ويجد مجالا لنشاط ملكاته . بيد أن شرلوت توجست خيفة من دخول شخص ثالث بين كليهما وأبدت هذه المخاوف لقرينها . وأخيراً ترافقا على أن يتخذا حلاً في تنفيذه رضا الجميع ، وذلك بأن يدعى كل من الكابتن وأوتيلي ، تلك الفتاة اليتيمة التي كفلتها شرلوت بعد أن ماتت أختها وخلفت أوتيلي . ومنذ هذه اللحظة يبدأ التفاعل الروحي الذي يكوّن نسج هذه القصة .

والبطلة الحقيقية لهذه الرواية هي أوتيلي . كانت فتاة ساذجة متخلفة في المدرسة الداخلية التي أرسلت إليها مبكراً مع ابنة خالتها لوسيانه ؛ وكانت خجولا لا تحب الظهور ولا تشارك في الحفلات ولا المجتمعات العامة ولا تضطرب فيما يضطرب فيه لِداتها من الفتيات مما كان يشيع لديهن الرغبة في التظاهر والإقبال على الحياة العالية في المجتمع الراقي . وكانت حالة ساهمة ساجية تعلو نفسها كآبة رقيقة ويشيع في قلبها استسلام راضٍ وإذعان رزين ، مما كان يُضفي على مظهرِها شيئاً من الحكمة والتعقل سنرى أثره واضحاً في « يومياتها » التي تفيض بحكمة الحياة ولهذا كله كانت أوتيلي المثلَ الأعلى للكائن الغريزي الفطري ؛ للأنوثة الخالدة البريئة الساذجة كما كان يتصوره جيته ، وكما رسم صوره من قبل في أشخاص جرتشن ومنيون وشرلوت . لكنها تفضُل هؤلاء البطلات بمراحل عدة ، على الأقل من بعض النواحي : فهي تَفْرَع جرتشن بما فيها من حكمة ورزانة على الرغم مما يبدو عليها من بساطة وسذاجة تكاد تصل حد الغفلة والبله والحمق ، وهي تبُزّ منيون بالبراءة الطفولية ، وإن كانت منيون تفوقها من ناحية سَعة خيالها والتهاب وجدانها وانطلاق عاطفتها الغنائية ؛ وهي تفضُل

شرلوت « ڤرتر » بعمق عواطفها ونفوذ إحساسها – وإذا كان النقاد يأخذون على أوتيلى أنها « عاقلة أكثر مما يجب » ، ويعزون هذا إلى سن جيته المتقدمة فى ذلك الحين ، وكانت تميل إلى الحكمة والتعقل أكثر من البساطة والوجدان الساذج ، فإن رأيهم هذا إنما بنوه على أساس « يوميات أوتيلى » ، وهى فعلا محشوة بالحكمة الرزينة التى لا يُتصوَّر صدورها عن فتاة ساذجة ، بيد أن الصورة الحقيقية لهذه الفتاة لا يجب أن تؤخذ من « اليوميات » ، بل من مجرى القصة نفسها ومن مسلك أوتيلى ووصفها خلالها . إذ من الواضح أن جيته إنما أراد أن يضع خلاصة تجاربه وعُصارة حكمته فى الحياة فى داخل هذه « اليوميات » ، لأنه لم يجد مجالا آخر غيرها ؛ ثم أحس بما فى هذا من تحميل لأوتيلى ما هو فوق طاقتها فاعتذر عن هذا النوع من عدم التناسب بأن عزا كثيراً من الأقوال الحكيمة المسجلة فى « اليوميات » إلى قراءات الفتاة ، وكل ما فعلته أن نقلت هذه الأقوال التى قرأتها وسجلتها فى « اليوميات » ؛ ومعنى هذا بصريح العبارة أن جيته لم يطلب إلى الناس أن يتخذوا صورة أوتيلى الحقيقية من هذه « اليوميات » ، وإنما من مجرى القصة كلها إذاً نظن أن أولئك النقاد الذين لاموا جيته من هذه الناحية قد غالوا فى الحكم واشتطوا فى التقدير .

إنما تُستمد صورة أوتيلى الصافيةُ من مسلكها البسيط الرائع إبان القصة كلها . هنالك سنراها فتاة مرهفة الحساسية ، فى غير تظاهر ولا انفجار سطحى ؛ مستسلمة للمصير فى حب يدعو إلى الرثاء والحنان عليها ؛ صادقة الحكم بوجدانها الفطرى وعيانها الغريزى وتوسُّمها الرقيق النفاذ ، دون ما تعقل وتفكير متحذلق ، تنزع نزعة صوفية تحملها على اتصال مستمر بالطبيعة وما تنطوى عليه من أسرار تستشعرها هى فى أعماق

وجدانها ودخيلة لا شعورها ، فتصدر عن قاع هـذا الباطن الخفى الرهيب دون أن يستطيع العقل النظرى والفكر المنطقى تبرير أحكامها ونظراتها وهواجسها ، مما يضفى على روحها نصاعة الفطرة وسذاجة الغريزة وصدق الطبيعة الصافية . لهذا كله لا يستطيع المرء بإزائها إلا أن نقف طويلاً مُفْكِراً متأمِّلا فى صمت رهيب وخشوع ذاهل ، وكأنه أمام قوة خفية مستسِرة تنطق عن وحى علوى مجهول المصدر . والحق أن فى طبيعتها من طبائع القديسات — خصوصاً فى الدور الأخير من حياتها ، إبان عزوفها وزهدها المطلق — ما يحملنا على أن نسلُكها فى عداد المتألّهات القديسات . وإن هذه الصورة لتكمل فى المنظر الأخير حينما يحدث لخادمتها نانتّ من التصورات والإيهامات والتهاويل ما يلق بنا فى عالم القداسة والخوارق والكرامات . ولم يكن عبثاً أن أضاف جيته هذا الجانب الذى لم يقصد به إلى تصوير نانت بقدر ما قصد به إلى تصوير أوتيلى وقد ارتفعت فى موتها بين هالة من القداسة الزاهية إلى عالم نورانى من الخيال الصوفى والوجد النشوان ، حتى بدت لنا فى كل جلالها كأنها العذراء وقد تجلّت فى عِلّيين بين ملائكة النور فى عرشها البلُّورى ؛ ولقد كان تابوت أوتيلى بواجهته الزجاجية البراقة هو ذلك العرش البلُّورى الذى حملت عليه فى سماوات النعيم وطُوبى القديسين .

لكن هذه القداسة الطاهرة قد أرغمها مصيرها القاسى على الدخول فى محنة بالغة حينما وجدت فى حضرة إدورد ، زوج خالتها التى أحسنت إليها وشملتها بكل حنانها وجميلها ، فاضطرتها الأنساب الطبيعية بما لها من قانون صارم على الخروج عن سبيلها المقدس بأن أمالت قلبها إلى إدورد وأمالت قلب هذا إليها ، مما ولد تنازعاً رهيباً احتملت الفتاة مجراه فى

استسلامٍ كظيم . لقد كانت من البساطة بحيث اندفعت وراء غريزتها وميولها الفطرية فأحبَّت الرجل الذى يحرم عليها القانون الأخلاق أن تحمل له عاطفة من مثل هذا النوع . أما القانون الطبيعى فقد كان يدعوها إلى هذا الحب : لأن الزواج بين إدورد وبين شرلوت لم يقم هذه المرةَ على الحب ، بل كان من قبيل المصادفة ، وكان نتيجة وهم من كلا الجانبين ما عتَّبدا أن اكتشفاه حينما أظهرهما عليه القانونُ الطبيعى ، قانون الأنساب المختارة . ومن هنا وقعت أوتيلى فى مأزِق بين ما يقضى به الواجب الأخلاق والعُرْف الجارى وبين ما يدعو إليه الميل الطبيعى والنَّسب المختار. ولم يكن كفاحها متكافئاً فى أول الأمر مع الطرفين المتنافرين : الواجب والعاطفة ، لأنها كانت تفكر بغريزتها وقلبها ، إذ كان الظفر للعاطفة فى أول الأمر . غير أن القَدَر الصارم قد شاء أن ينبهها — فى اللحظة التى انحرفت فيها عن الواجب وأسلمت نفسها للعاطفة — إلى ضلالها وانحرافها ، بأن جعلها السبب فى موت ابن شرلوت وإدورد ، بينما كانت تتريض به فى الزورق : إذ سقط من بين يديها فى الماء فاقد الحياة .

ولقد كان لموت هذا الطفل معنيان متضاربان : فيمكن أن يفسَّر على أنه كان من أجل إخلاء السبيل أمام القانون الطبيعى للأنساب المختارة ، إذ كان الطفل هو العقبة القائمة فى سبيل الانفصال بين شرلوت وإدورد ؛ فكان فى زوالها ما يسمح بالطلاق ، وبالتالى بالاتحاد فيما بين إدورد وأوتيلى . كما يمكن أن يفسَّر كذلك على النحو الآخر الذى أتينا على ذكره وهو أنه كان تحذيراً من القدر كيما يتم نفاذ القانون الطبيعى ويحترم القانون الأخلاق الوضعى . وفى هذا الاشتراك فى المعنى لمدلول ذلك الحادث قام التعارض الشائق الذى كوّن عقدة القصة ، تلك العقدة التى حُلت فى النهاية لصالح التفسير الثانى فذهبت أوتيلى ضحية للمصير الذى لا يرحم .

وهنا تبرز المشكلة الحقيقية فى القصة : أهى تنحو منحى أخلاقياً وتريد أن تؤكد ظفر القانون الأخلاق على القانون الطبيعى ، أم هى بمعزل عن كل هذه الاعتبارات الأخلاقية ؟

لقد حار النقاد والقراء منذ ظهور هذه القصة حتى اليوم فى حل هذه المشكلة . فبعضهم نظر إليها بالنظرة الأولى وجعل منها تمجيداً للرباط المقدس ، رباط الزوجية ؛ متخذاً هذا التفسير من مخرج القصة ومَسْرِدِ أحداثها وخاتمتها ، دون أن يحفل بالآراء التى بثها جيته عن الزواج على لسان الكونت الذى كان يرى فى الزواج أنه عَقد كعقد الإيجار مدته خمس سنوات قابلة للتجديد إن رضى الطرفان ولإعادة التعاقد مدة أخرى بعد انقضاء فترة كافيه إن لذ للطرفين العودُ إلى ذلك التعاقد مرة أخرى !

وفريق آخر آثر أن يعزو إلى جيته آراء الكونت هذه ، ونعت القصة بأنها مُفْسِدة للأخلاق مخالفة لما يقضى به الواجب فى المجتمع المستنير . ولعل هذا كان رأى الغالبية من معاصرى جيته الذين حملوا على الكتاب حملة شعواء من هذه الناحية .

أما نحن فلن نأخذ هذا الجانب ولا ذاك من حل تلك المشكلة . وجوابنا عنها أن القصة ، وإن تناثرت فيها الحِكَم الأخلاقية واتسمت بنزعة تعليمية فى بعض مواضعها ، فإنها يجب أن تُعَدّ بمعزل عن كل اعتبار أخلاق . وإنما الصياغة الفنية والاعتبارات الأدبية هى وحدها التى أملت على جيته طريقته فى تصوير الأشخاص وسرد الأحداث والإفضاء بها إلى خاتمتها النهائية . فالفن القصصى قد قضى عليه أن يعرض الاعتبارات والأفكار من كلا الجانبين المتعارضين : جانب الأخلاق والقانون الوضعى الذى يمثله متلر وتهفو إليه شرلوت ، وجانب العاطفة والنزعات الطبيعية الذى يحمل لواءه الكونت وتهفو إليه إدورد ؛ فعل

جيته هذا دون أن يرجّح طرفاً على طرفٍ شأنه شأن كل فنان خالص ممتاز : يظل دائماً بمنأى ومعزل عن كل تقويم أخلاق ، لأن الفن يقوم بطبعه بمعزل عن الأخلاق وعن كل تقويم أخلاق . إنما الذى أوهم النقاد السطحيين فى هـذا الباب وحملهم على إدخال ، بل إقحام الاعتبارات الأخلاقية على قصة جيته هو الظروف التى أحاطت بمؤلفها أثناء كتابة القصة أولاً ، وثانياً ما رأوه فيها من سيادة الروح الفكرية وتناثر الحكمة فى كل أجزائها وما لها من تركيب عقلى بنائى محكم الفكرة . أما الظروف فهى أن حُمَّى الطلاق كانت قد انتشرت فى ألمانيا فى الوسط المحيط بجيته فى ذلك الحين إلى درجة مريعة : فطلقت الكونتيسة إجلوفشتين وفراو بوجفش وفراو ليفتسوف وكارولين ڤولتسوجن وكارولين اشليجل وغيرهن كثيرات من علية القوم فى ڤيمار ؛ ولم يكن جيته ، حين يسأل عن رأيه فى الطلاق ، ينصح بالعدول ، بل كان على العكس من هذا يحبّذه ويوافق عليه . وهذا هو السر فى سيادة التفسير الثانى للقصة عند معاصريه : فقد حكموا عليها وَفْق ما عرفوه من رأى جيته الحقيقى عن الزواج . والاعتبار الآخر هو الإحكام العقلى فى صياغة القصة ودورانها على فكرة علمية مما حمل النقاد على افتراض ضرورة قيامها على أُطروحة أو قضية يريد جيته تأييدها أو تفنيدها ؛ ومن هنا عَدُّوا القصة من ذلك النوع من القصص الذى يسميه الفرنسيون القصة ذات الأُطروحة أو القضية roman à thèse . والحق أن نسج القصة لم يكن ليسمح للناقد المتفطّن بهذا التفسير ؛ وإنما هى عناية جيته بالمسائل العلمية فى تلك الفترة هى التى جعلته يتخذ فكرة الأنساب المختارة فى الكيمياء لتطبيقها على الأمور الإنسانية ، دون أن يقصد من وراء هذا إلى الدعوة إلى قضية وأطروحة معينة .

والرأى عندنا إذاً أن الاعتبارات الفنية هى وحدهـا التى تدخلت فى

تركيب القصة والسير بمجراها والانتهاء إلى نهايتها . وآية ذلك أن الحرمان الذى قُضِى به على أوتيلى لم يقصد به إلى تعذيبها كـكفَّارة عن خطيئة حبها ، إنما كان تكملة لصورتها الحقيقية التى عرفنا قسماتها وملامحها منذ اللحظة الأولى ، صورة القديسة الشهيدة التى قَنَعت بالتسليم للقدر وجعلت من حب المصير مبدأها فى السلوك والتفكير . ولهذا فإن القوة المحركة فى القصة كلها هى قوة المصير بالمعنى اليونانى لهذا اللفظ (εἱμαρμένη) . والواقع أن القصة قد صيغت على نموذج يونانى خالص مع ما تقتضيه روح العصر الحديث ؛ ولا عجب فقد كان جيته مشغولاً فى ذلك الحين بالروح اليونانية التى أجاد التعبير عنها فى توأم قصتنا هذه ، ونعنى بها مسرحية « پَنـدورا » التى كتبت معها فى وقت واحد .

وإن هذا المصير الرهيب لذو نيات عجيبة ؛ وعبثاً يُحاول العقل والفضيلة والواجب وكل ما هو مقـدَّس أن يعترض سبيله ؛ فإن إرادته لابد نافذة وقضاءه لا مُـعَقِّـب له ولا رادّ ،ولا منـاص من أن يحدث شىء لعله أن يبدو لنا ضارّاً لـكنه فى نظر القدر أو المصير عادل ، شىء يستولى علينا ويمسك بخَـنَقنا مهما حاولنا التخلص منه ، كما قالت شرلوت . بيد أن فى حُبِّ هذا المصير نعمة المرء وواجبه الأسمى . فعلينا إذاً أن نعزف عن أغلى أمانينا ونزهد فى أنبل عواطفنا ، ما دام المصير قد قَـدَّر هذا علينا ؛ ولنكن له ولأحكامه إذاً شهداء مخلصين ، ففى هـذا ما يهب القداسة للنفوس البريئة التى اسْتُشْهِـدَت فى سبيل حُـبِّ المصير .

ولا ضير علينا من اتخاذ هذا الدرس فى الحيـاة : فإن المصير يضعنا أحياناً فى مآزق وجودية لا سبيل إلى الخلاص منها إلا بالزهد والعزوف والاستشهاد !

سبتمبر سنة ١٩٤٥ عبد الرحمن بدوى

جيتة

الأنساب المختارة

القسم الأول

الفصل الأول

أمضى إدْوَرْد — وهو بارون ثَرى فى حُميَّا الرجولة — أجمل ساعات الأصيل فى يوم من أيام أبريل ، وهو يأبُر جذوعاً غضة بمآبر تلقاها منذ حين . وها هو ذا قد فرغ من عمله بالمغرس ، فوضع أدواته فى كِنْفها ، وتأمل ما فعل فى شىء من الرضا ؛ وإذا بالبستانى يقدَم إليه ، فيُسرّ برؤية سيده وهو يشارك فى هذه الأعمال بحماسة وإقبال .

« ألم تر زوجتى ؟ » هكذا سأله إدْوَرد ، بينا هو يتأهب للرحيل .

— بلى ، رأيتها فى الناحية الأخرى وسط المنشئات الجديدة ، بهذا أجاب البستانى . إن الكوخ الطحلبى الذى أمرتْ بإنشائه على جدار الصخرة فى مواجهة القصر سينتهى اليوم ، وكل شىء قد صار جميلا حتى إنه ليسر سعادتك . فالمنظر رائع : هناك القرية ؛ وعن يمين تقوم الكنيسة ، ومن أعلى برجها يمتد النظر إلى أبعد الآفاق ؛ وفى المواجهة يتبدى القصر والحدائق .

فأردف إدوَرْد قائلا : « بخٍ بخٍ ! لقد كان فى وسعى أن أرى العمال ، على قيد خطوات من هنا ، وهم على عملهم عاكفون ! » .

وتابع البستانى حديثه : « وعن يمين ينفرج الوادى ، ويتبدى من فوق الخمائل الغنية منظر ساجٍ طروب ؛ والشِّعب الصاعد إلى الصخر قد شُقّ فى روعة وجمال . حقا إن عصمة البارونة على حظ من الفهم فى هذه المسائل حتى ليلذ للمرء أن يعمل تحت إمرتها » .

— إذهب والتمس منها أن تنتظرنى ، وأخبِرها أنى أود أن أرى هذه المُنشأة الجديدة وأن أُعجب بها أنا الآخر .

فمضى البستانى مسرعا ؛ وبعد قليل لحق به إدْوَرْد .

هبط إدورد الدَّرَج وتفقد فى طريقه مرابى النبات ومراقده ، إلى أن بلغ الجدول ، ثم مضى فى طريقه إلى حيث يفترق الطريق المُفضى إلى المنشئات الجديدة إلى شعبتين . بَيْد أنه تَرك الشعبة التى تؤدى إلى الصخور مباشرة مارَّة بالمقبرة ، واتخذ تلك الأخرى التى تدور عن شمال صاعدة إلى بعيد شيئا ، فى انحدار رفيق خلال خميلة مونقة . وعند ملتقى الشعبتين جلس برهةً على مقعد وثير ، ثم بدأ صعوده الجِدّى ؛ وبعد سلسلة من السلالم والمدارج رأى نفسه بإزاء طريق لِزْب ، وَعْر حينا ، أقل وعورة حينا آخر ؛ وأخيراً بلغ الكوخ الطحلبى .

وهنا عند الباب استقبلت شَرْلوت زوجها ، وجعلته يجلس على نحو يهيء له أن يرى بنظرة واحدة ، من خلال الباب والنافورة ، تلك المناظر العديدة التى تبدت كأنها صور ذوات أُطُر . فتأمل فيها بقلب طروب ، آملا أن يأتى الربيع عما قليل فيشيع فيها كلها حياة جديدة . وقال : « ليست لدىّ غير ملاحظة واحدة ، ألا وهى أن الكوخ يبدو لى ضيقا شيئا » .

فأجابت شرلوت : « وهو مع ذلك أوسع مما نحتاج إليه نحن الاثنين » .

فقال إدورد : « أجل ! بل فيه مُتّسع لثالث » .

— ولِمَ لا ؟ بل ولرابع أيضا . فإن زاد عددنا استطعنا أن نهيء أماكن أخرى .

فأردف إدورد : « ما دمنا الآن وحدنا هادئين ، يعلونا طائف الهدوء والسُّجُو ، فإنى أعترف لكِ بأنى أحمل فى قلبى منذ زمن شيئا أود أن أفضِى إليك به ، بل أراه واجباً علىّ ، دون أن يكون فى وسعى أن أجد الظرف الملائم » .

فقالت شرلوت : « وأنا قد لاحظت عليك شيئا من هذا القبيل » .

— ولولا أن بريد صباح الغد يدفعني إلى هذا دفعا ، ولولا أن الضرورة تحملنا على البت فى هذا الأمر اليوم ، فإنى أصرح لك بأننى كنت سأعتصم بالصمت إلى حين أطول .

— ما الأمر إذن ؟ هكذا تساءلت شرلوت ببشاشة رقيقة .

— الأمر أمر صديقنا القائد . فأنت تعلمين إلى أى حد بلغت به سوء الحال ، هو وكثيرون غيره ، دون ذنب أتاه . وكم يحز فى نفس رجل مثله ، عنده ما عنده من معارف ومواهب وتجربة ، أن يرى نفسه متعطلا. ولست أريد أن أكتمك بعدُ ما أنا راغب فى عمله بالنسبة إليه : فإنى أود أن أضمه إلينا مدى حين .

فأجابت شرلوت : « هذه مسألة تستحق التفكير ، ويجب أن نتأملها من أكثر من ناحية » .

فرد عليها إدورد قائلا : « إننى على استعداد للافضاء إليك بما أراه . فنى رسالته الأخيرة تشيع روح يأس عميق ؛ وليس هذا لأنه غير قادر على القيام بحاجاته لأنه ممن يرضون بميسور العيش ، وأنا بدورى قد كفيته الضرورى من حاجته . وهو أيضا لا يجد كبير غضاضة فى أن يتلقى معونتى : لأننا تبادلنا فى حياتنا من الخدمات ما لا نقدر على عده وتقديره . إنما عذابه الحقيقى هو أنه فارغ من الأعمال . وإن غاية آماله وأحر وجدانه هو أن يستغل مواهبه العديدة التى نمّاها فى نفسه من أجل الآخرين . أما الآن وقد أقوت ترائبه من مواهبه ، أو صار يعنى بدراسات جديدة وتقوية ملكات عدة ، دون أن يكون فى وسعه الانتفاع بما لديه بالفعل منها — فهذا كله ، يا طفلتى العزيزة ، موقف أليم غليظ ، تزيد الوُحدة فى ترويعه » .

فقالت شرلوت : « لقد قام فى نفسى أنه عرضت عليه عروض من مختلف الجهات . وأنا نفسي قد كتبت رسائل توصية به إلى نفر من أصدقائى وصديقاتى ممن تُرَجَّى عندهم الشفاعة ؛ وإذا لم تكذبنى الظنون ، فإنه يخيَّل إلىَّ أن هذه المسعاة لم تذهب سُدى .

— حقاً ! لكن هذه المساعى والعروض نفسها تزيد فى شقائه وتعذيبه . فليس فيما عرض عليه ما يتلاءم ونفسه . فالناس لا يطلبون إليه أن يعمل ، بل أن يضحّى بنفسه : بعواطفه وآرائه وأوقاته وطبيعة وجوده . وهذ أمر يستحيل عليه . وكلما أمعنت النظر فى هذا كله ، ازددت تأثرا بحاله ، ورغبة فى رؤيته إلى جوارنا .

فأجابت شرلوت : « جميل منك أن تحتفل بمركز صديقك كل هذا الاحتفال ؛ لكن اسمح أيضاً أن أحملك على التفكير فى حالك وحالنا جميعا » .

— لقد أفكرت فيه . وما لنا أن ننتظر من حضوره بيننا غير اللذة والفائدة . وأنا لا أعنى النفقات ، التى لن تكون بالنسبة إلىّ إلا تافهة ، خصوصا إذا قدرتُ أن حضوره لن يحدث لنا أية متاعب . فمن الممكن أن يسكن الجناح الأيمن من القصر ، وما عدا هذا فمن اليسير تنظيمه . ويا لها من خدمة جليلة تلك التى نسديها إليه عن هذا الطريق ! وكم من لذائذ وفوائد سنظفر بها من وجوده بين ظهرانَيْنا ! ذلك أنى أريد منذ زمن طويل أن أرفع مستوى ضيعتى وما حواليها ؛ وسأكل إليه أمر هذا العمل وتنظيمه . وفى عزمى أن أستثمر ارضى بنفسى ، حالما تنتهى عقود المستأجرين . وهذا أمر ما أشد عُسْره ! وكم من اتجاهات سيعطيها إيانا ! إنى لأشعر شعورا قويا مُلِحًّا بحاجتى إلى رجل على شاكلته . أجل إن الريفيين لهم أفكار صائبة ، ولكنهم يفضون بها مضطربة ، غامضة وبنية غير سليمة

ولا خالصة . والزراعيون من أبناء المدن والأكاديميات يتصفون بالوضوح والتنظيم فى الأفكار ، لكن تعوزهم الخبرة . وأنا آمُل أن أجد فى صديق هذين الجانبين النافعين ، مما سيتولد عنه الكثير من النتائج التى يلذ لى تخيلها ؛ بل والتى تعنيك أنت أيضاً ؛ وأتوقع من ورائها الخير العميم . وإنى لأشكر لك حسن استماعك إلىّ الآن . لكن تكلمى بدورك ، بكل حرية وتفصيل ؛ وأنبئينى بكل ما لديك أن تقوليه ؛ فلست أريد أن أقطع عليك حديثك .

— فقالت شرلوت : سأبدأ حديثى بملاحظة عامة هى أن الرجال يُشغلون خصوصاً بالحالة الجزئية المفردة ، بالحاضر ، ولهم الحق ، لأنهم مطالبون بالعمل والفعل ؛ أما النساء فإنهن على العكس من هذا ، يفكرن أكثر وأكثر فى تسلسل الحياة واستمرارها ، وهذا صواب أيضا ، لأن مصيرهن ، ومصير أُسَرهن ، معقود بهذا التسلسل ، ولأنهن مطالبات بهذا الاستمرار . ألا فلنُلْقِ نظرة إلى حياتنا الحاضرة ، وإلى حياتنا الماضية ؛ هنالك ستعترف بأننا إن دعونا إلينا القائد ، فإن هذا لن يتفق ومشروعاتنا وما قدرناه من أوضاع وترتيبات .

« وإنه ليحلو لى أن أذكر الآن علاقاتنا الأولى . لقد ربط الحب الرقيق بين قلبينا فى غضارة الشباب . ثم فُصِل ما بيننا ، وفُرِّق بين كلينا : أما أنتَ ، فلأن أباك قد أولع بالثراء فقد شاء أن يَزُفّك إلى امرأة غنية ، وإن كانت متقدمة فى السن ؛ أما أنا ، فلأنى — لغير سبب خاص — قد أُرْغمت على أن أهب يدى لرجل مُوسِر كريم ، وإن كنت لا أحبه . ثم أصبحنا حُرَّيْن بعد حين : أنتَ أولا ، وقد خلفت لك أمُّك ثروة ظاهرة ونعمة وافرة ؛ ثم أنا من بعد ، فى نفس الحين الذى عدت

فيه من أسفارك . وتلاقينا وتبادلنا أطيب الذكريات ؛ وما كان أشهى تلك الذكرى ! وكان فى وسعنا أن نعيش سوياً دون عائق . وألححت أنت فى أن نرتبط : غير أنى لم أرافِقْك على هذا أول الأمر ، لتقارب أعمارنا ، وأنا كامرأة قد صرت اليوم أكبر منك سِنّا . وأخيراً لم أشأ أن أرفض لك ما خُيِّل إليك أنه سعادتك الوحيدة . أجل ، لقد رغبتَ فى أن تسكن إلىّ وتتفيأ ظلال الراحة إلى جوارى ، الراحة من عناء ما عانينا فى البلاط وفى الخدمة وإبان أسفارك ؛ ووَدِدْتَ أن تستنشى نسيم الراحة ، وأن تنعم بالحياة ، لكن معى وحدى . فأرسلت بابنتى الوحيدة إلى مدرسة داخلية ، حيث تنمو الآن وتترعرع على نحوٍ فيه من التنوّع ما لم يكن متيسراً فى مقام ريفى . بل لم تكن هى وحدها ، إنما أوتيلى كذلك ، ابنة أختى العزيزة ، بعثت بها إلى المدرسة عينها ، وهى التى ربما كان من الأفضل تربيتها تحت إشرافى من أجل معونتى فى الشئون المنزلية . وكل هذا قد فعلته ، بموافقتك ، لا لسبب إلا أن يكون فى وسعنا أن نعيش لأنفسنا ، وأن ننعم رافهين ، دون ما شىء يعكر صفونا ، بهذه السعادة التى طالما تحرقنا شوقاً إليها منذ نعومة أظفارنا ، ولم نظفر بها إلا متأخرا . وعلى هذا النحو دخلنا مقامنا الريفى . فنهضت أنا بأعباء المنزل ، ووفيت أنت بشئون الخارج وبالمسائل العامة . وأعددت عدتى كيما أحقق كل رغباتك ولا أعيش إلا من أجلك : فلنجرب ، ولو لمدة قليلة ، كيف وإلى أى حد يستطيع كلانا أن يكفى أخاه حاجته .

فأجاب إدورد : « أجل ! إن التسلسل هو ، كما قلت ، جوهر المرأة الحقيق ؛ لهذا ليس لنا أن ندعك تعرضين أفكارك تباعاً ، أو أن نقنع بالموافقة على ما تقولين . وفى الحق لقد كنت إلى اليوم على صواب . إن

ما هيأناه من أمور حتى الآن من أجل حياتنا مفهوم معقول ؛ لكن ، أفلا يخلق بنا أن نقيم شيئاً فوق هذه الآساس ، وأن ننميها فى اتجاه آخر ؟ هل ما قمت به من أعمال فى الحديقة ، وما فعلتيه أنت فى المتنزه ، قد كان من أجل ناسكَيْن ؟ »

— حسناً ! هكذا قالت شرلوت ، حسناً جداً ! لكن حذار أن ندخل فيه ما هو ثقيل أو غريب ! قدِّرْ أن مشروعاتنا ، حتى ما يتصل منها بالتسلية ، قد افترضت أننا لن نكون غير اثنين . لقد شئت أول الأمر أن تروى لى أنباء أسفارك متصلة متتابعة ؛ وأن تنظم فى هذه المناسبة مختلف الأوراق التى تتصل بهذا الأمر ، ثم تنشىء بمعونتى واشتراكى من هذه الأوراق — الثمينة ، ولكنها مختلطة — كتاباً يسرنا ويسر الآخرين . ولقد وعدتك بمساعدتك فى النسخ ؛ وبدا لنا من الميسور العذب الجميل أن نتجول فى الذكرى فى هذا العالم الذى لم نستطع أن نراه سوياً . بل نحن قد بدأنا هذا فعلا . ثم أتى المساء فالتقطت نايك ، وساير بيانِىَّ ؛ ولم تكن تعوزنا الجيران ، ممن نزورهم ويزوروننا . أما عن نفسى ، فقد أمَّلت من هذا كله أول صيف عذب حقاً أمضيته فى حياتى .

— فأردف إدورد قائلا وهو يحك جبينه : على الرغم من كل ما تستطيعين أن تقوليه بلباقة وحسن تعليل ، فإن فكرى يرى دائماً أن حضور القائد لا يفسد شيئاً ؛ بل بالعكس ، سيسهل كل شىء أكثر وأكثر ، وستتخذ حياتنا منه وجهاً جديداً . إنه قد أمضى شطراً من الأسفار معى ؛ وحصل كثيراً من الملاحظات بروح مختلفة عن روحى : فى وسعنا إذن أن نمزج هذا كله وأن نجعل منه مؤلفاً بديعاً .

فأجابت شرلوت : « دعنى أقول لك بصراحة يدافعها القلق وعدمُ

الصبر ، إنى أشعر بنفور نحو هذا المشروع ، وإن استشعاراً مُستَتِراً ليُخَيِّل إلىّ أنه لن يفضى إلى خير » .

— وهكذا يلح عليكن العنادُ معشر النساء فلا يكون فى الوسع مقاومتكن : فى البدء تلجأن إلى العقل والتدليل ، إلى حد ألا يكون فى المقدور مناقضتكن ؛ ثم تكنَّ فاتنات ، فيذعن المرء لَكُنَّ فى يسر وعن طيب خاطر ؛ ثم تصرنَ مرهفات الحس شديدات التأثر ، فلا يود الإنسان أن يحزنكن ؛ أو تلجأن إلى الطِّيَرة والتفاؤل ، فنستشعر نحن الخوف بدورنا .

— لست ممن يؤمنون بالتطاير والتفاؤل ، ولا أعطى أدنى أهمية لهذه الدوافع العمياء ، وإن كانت على هذا النحو ؛ لكنها فى الغالب ذكريات غامضة ، ونتائج ، سعيدة أو ضارة ، رأيناها تنشأ عن أعمالنا ، أو أعمال الآخرين . ولا شيء أعظم خطراً ، فى أى موقف من المواقف ، من تدخل ثالث فيه . فلقد رأيت أصدقاء وإخوة وعشاقا وأزواجاً قد تغيرت علاقاتهم كل التغير واضطربت أحوالهم أشنَعَ اضطراب ، بسبب حضور شخص ثالث ، إن بالصدفة أو بالاختيار .

— قد يحدث هذا عند من يعيشون عُميانا ، دون تبصر ؛ لا عند من تبصرهم التجربة ، ويحسنون الشعور بأنفسهم .

— ليس الشعور سلاحاً كافياً ، ياصديق ؛ بل هو أحياناً خطر على من يستخدمه ؛ ونتيجة هذا كله أنه ليس يخلق بنا على الأقل أن نندفع ونتعجل . فهبنى بعض أيام آخر ، قبل أن تصمم على شيء !

— فقال إدورد : لما كان الأمر على ما هو عليه ، فإن العمل بعد أيام يعد إندفاعاً ايضاً . لقد عرض كل منا الحجج المؤيدة وتلك المعارِضة ؛

وعلينا الآن أن نستقر عند رأى ، والأفضل أن نكل الفصل فى هذا الأمر إلى المقارعة .

— فأجابت شرلوت : إننى أعلم أنك ، فى الأحوال المشكوك فيها ، تحب رِهانا أو ضربة بالنرد ؛ ولكنى أرى أن مثل هذا ، فى مسألة خطيرة كهذه ، يعد تهوراً وغَرَراً .

— إذن ماذا يجب على أن أكتبه إلى القائد ؟ إذ يجب أن أكتب إليه حالا .

— اكتبِ إليه رسالة هادئة عاقلة مواسية .

— هذا وعدم الكتابة إليه سيان !

— ومع هذا فإن من الضرورى ، فى بعض الأحوال ، بل ومن الصداقة أن يكتب الإنسان شيئاً تافهاً ، أفضل من أن لا يكتب شيئاً إطلاقاً .

الفصل الثانى

ظل إدورد وحيداً فى غرفته بعد أن أثارت شرلوت فى قلبه المشبوب عواطف رقيقة بما روته من مختلف أحداث حياتهما وما عرضته من موقف كليهما بإزاء الآخر وما حلما به من أمانٍ ومشروعات . حتى شعر بلذة فى حضرتها جعلته يتهيأ لكتابة رسالة إلى القائد فيها عطف وحنان ، لكنها هادئة ليس بها أدنى إشارة إلى مشروعه . غير أنه ما كاد يجلس إلى مكتبه ويتناول رسالة صديقه كيا يجيل نظره فيها مرة أخرى حتى عزت عليه هذه الحال الأسيفة التى يحيا عليها هذا الرجل الممتاز . فأحس بما شعر به نحوه من قبل ، واستيقظت من جديد كل العواطف التى عذبته منذ أيام ، وبدا له من المستحيل أن يذر صديقه على هذا الوضع الحزين .

لم يتعود إدورد أن يرفض أمراً . فقد كان الابنَ الوحيد المدلل لأبوين ثريين استطاعا أن يقنعاه بالزواج من امرأة تكبره سناً بكثير ، حتى جاء زواجا غريباً وإن كان نافعاً كل النفع . وهـذه المرأة قد زادت فى تدليله بشتى الوسائل ، ساعية إلى مكافأته عن طيب مسلكه وإياها بأن تبذل له عن سَعة عظمى . ثم ما لبثت هذه المرأة أن توفيت ، فصار أرمل حراً ، وجال فى مختلف البقاع ، يحيا حياته الخاصة المستقلة ، يكيّـفها كيفما شاء ، متنقلا من شيء إلى آخر ، غير مبالغ فيما يطمح إليه ، وإن كانت نفسه طماحة إلى الظفر بكثير من الأشياء المتنوّعة . وعلى كل حال فقد كان ذا إخلاص ونزاهة طُعْمة ، يسدى المعروف ويتحلى بالشجاعة ، بل وبالإقدام والمروءة الواسعة حينما يقتضى الأمر . وأى شيء فى الدنيا يقوى على مقاومة رغباته !

كل شيء سار حتى ذلك الحين وفقاً لما يهوى : فقد استطاع أن يظفر بشرلوت بعد أن ظل لها مخلصاً إخلاصاً راسخاً أقرب ما يكون إلى تصوير الخيال . لـكن هاهو ذا الآن وللمرة الأولى يجد مقاومة لآرائه ومعارضة لمشروعاته ، ومتى ؟ فى اللحظة التى أراد فيها أن يدعو صديقه فى الطفوله ؛ فى تلك اللحظة التى شاء فيها أن يهيء حياته كلها من جديد . فانتابه الخوف وشُخِص به وتنازعته البلابل ، واستولى عليه من القلق ما جعله يمسك مراراً بالقلم ثم يرده إلى مكانه ، لأنه لم يستطع الاستقرار عند رأى يفصح به ماذا عليه أن يكتب . فهو لم يشأ أن يعرض عن طاعة رغبات زوجه ، كما لم يستطع أن ينزل على أمرها . فظل قلقا مضطرباً ، وقد كان عليه أن يكتب رسالة هادئة ، حتى بدا له هذا مستحيلا . ولعل أيسر حلّ حينذاك هو التأخير فى البت . فـكتب إلى صديقه بضع كلمات يستميحه فيها عذراً عن تأخره فى الـكتابة إليه ، وعن إيجازه فيما كتب ، ووعده

بإرسال كتاب آخر عاجل أكثر تفصيلا وأدعى إلى طمأنته .

وفى الغد كان وزوجه يتريضان فى نفس المكان ، فاهتبلت شرلوتُ الفرصة لاستئناف المناقشة ، مقتنعة ، فيما يظهر ، بأن خير وسيلة للقضاء على أى مشروع هى أنْ يُتحدّث عنه كثيراً .

سَر إدورد أن يعود إلى هذا الموضوع ؛ فتحدث ، كما هو ديدنه ، على نحو فيه رقة ولطف . فإنه على الرغم من كونه متفتح النفس للتأثرات حتى كان يتحمس بسهولة ، كما كان فى إلحاحه الحادّ شىء من الإرهاق ، وحتى كان عناده يدعو إلى القلق وعدم الصبر — فإن تعبيراته كانت مع ذلك رقيقة تسودها المجاملات الحارة ، إلى حدّ أنه كان يبدو لطيفاً حتى فى أحوال إثقاله .

وعلى هذا النحو بدأ بأن أشاع الجذل والتبسط فى نفس شرلوت ؛ ثم استطاع من بعد ، بفضل حسن توجيهه الحديث ، أن يقتادها إلى درجة صاحت فيها :

« إنك تريد من غير شك أن أسمح للحبيب بما لم أسمح به للزوج ! جدير بك أن تدرك أيها الصديق أن رغباتك وحرارة المسلك الذى اتخذته فى التعبير عنها ، لا تذرنى غير متأثرة ولا مكترثة . فهذا يحملنى على أن أفضى إليك باعتراف : ذلك أنى أجد نفسى فى موقف شبيه بموقفك هذا ؛ ثم أذعنت لنفس القسر والحرمان اللذين أنصح لك بإخضاع نفسك لهما .

— يلذ لى أن أعرف هذا . ولا أرى ضيراً فى أن يقع تنازع أحيانا فى داخل الأسرة ! لأن هذه هى الوسيلة لمعرفة الواحد ببعض أحوال الآخر .

— إذن أقول لك إن الحال بينى وبين أوتيلى هى كالحال بينك وبين القائد . ويؤلمنى أشد الإيلام أن أرى هذه الفتاة العزيزة فى مدرسة داخلية

تجد نفسها فيها فى مركز شديد الإحراج . فبينما ابنتى ، التى خلقت للمشاركة فى الدنيا ، تُنَشّأ لشئون الدنيا وتتقن اللغات والتاريخ وبقية العلوم التى تلقتها ، كما تتقن الموسيقى والألحان ؛ ولها من التوثب الطبيعى والذاكرة القوية ما يجعلها تنسى كل شىء وتذكر كل شىء معاً ؛ وتتميز من بين لداتها بما لها من سراوة فى الأخلاق ورشاقة فى الرقص ، وأناقة يسيرة فى الحديث ، حتى إنها ، وهى المولعة بالسيطرة ، قد صارت ملكة فى هذا العالم الصغير الذى تحيا به ؛ وبينما ناظرة المعهد تنظر إليها كإلـهة صغيرة تنمو بين يديها وستكون مصدر فخار لديها ، موحية بكل ثقتها بها ، وجاذبة إليها نفراً كبيراً من الفتيات ؛ وبينما الصفحات الأولى من رسائلها وتقريراتها الشهرية عنها ليست إلا تمجيدات لمواهبها وفضائلها وإشادة بمناقب هذه الطفلة الممتازة ، أستطيع أنا أن أفهمها وأقدرها حقاً — بينما ابنتى على هذا النحو ، أرى على العكس من ذلك تقرير الناظرة عن أوتيلى فى ختام رسائلها ينحل دائماً إلى اعتذارات وتأسفات لكون هذه الفتاة ، الجميلة مع هذا ، لا تريد أن تنمو ولا أن تبدى بعضا من الاستعداد أو شيئاً من الموهبة . والقليل الذى تضيفه ليس لغزاً بالنسبة إلىّ ، لأنى أتوسم فى هذه الطفلة الرقيقة كل أخلاق أمها وطبعها ، أمها الصديقة والأخت العزيزة التى نشأت معى ، والتى ستصير ابنتها — لا يخالجنى فى هذا شك ، — امرأة كاملة ، لو صار فى وسعى أن احتفظ بها تحت رقابتى وإرشادى . ولكن لما كان هذا غير داخل فى نطاق مشروعنا ، ولما لم يكن فى وسع المرء أن يقلب حياته ويغير مجراها إلى حد كبير بأن يضيف إليها كل يوم جديداً ، فقد فضلت الامتثال لهذه التضحيه ؛ بل إنى لأقاوم الألم الذى أشعر به حينما أرى ابنتى ، التى تعلم حق العلم أن أوتيلى المسكينة تعتمد علينا

كل الاعتماد ، تتبذّخ عليها بمناقبها ، وبهذا تفسد نعمتنا عليها على نحو من الأنحاء . لـكن ، مَن مِن الناس قد بلغ من الحـكمة حدا ينأى به عن أن يتبجح أحيانا بقسوةٍ بامتيازه على الآخرين ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يرتفع إلى مستوى يتحلل فيه من كل تأثر بمثل هذا التبجح بالتفوق والسيادة ؟ إن فضل أوتيلى ليزكو ويزداد من هـذا الامتحان . ومع هذا فمنذ أن اتضحت لى حالها البائسة هذه ، سعيت لنقلها إلى مكان آخر ؛ وهأنذا فى انتظار إجابة هذا المسعى ، وحينئذ لن أتردد . تلك هى المسألة ، يا صديقى العزيز . وها أنت ذا ترى أن كلينا يحمل نفس الهموم فى قلبينا المحسنَيْن المخلصَيْن : ألا فلنحملها شركةً ، ما دامت لاتستطيع أن يخفف بعضُها بعضا .

فقال إدوارد مبتسما : نحن مخلوقان غريبان . إننا نُـتَخيّـل إلى أنفسنا أننا إذا استطعنا أن نُبعد من حضرتنا كلَّ ما يقلقنا ، فإنا نكون قد أدينا كل شىء . وعلى العموم فنحن قادرون على القيام بتضحيات كبرى ؛ أما أن نقوم بتضحيات جزئية فهذا غالبا ما يكون فوق طاقتنا . وهكذا أيضاً كانت أمى . فطالما كنت أحيا إلى جوارها : طفلا ، ثم شابا ، كانت هموم الساعة تشغلها على الدوام . فإذا عدت من رياضة على صهوة جواد متأخراً بعض الوقت ، كانت تتوهم أنه لا بد أن يكون قد وقع لى حادث ؛ وإذا بلّلنى المطر كانت توقن بأنى سأُصاب بالحُـمّى . حتى إذا ما ارتحلت وصرت عنها نائياً بدوت كأنى لا أكاد أمُتُّ إليها بصلة . وتابع البارون حديثه قائلا : إن أمعنا النظر تبين لنا أننا نسلك مسلـكاً غير عادل ولا حكيم حينما ندع هكذا شخصين ذَوَىْ خلق نبيل ولهما فى قلوبنـا إعزاز ومحبة ، ندعهما فريسة للأحزان والآلام ، لا لشىء إلا لـكيما نكون نحن بمأمن من كل خطر . فإن لم يكن هذا هو الأثرة ، فأى شىء آخر يمكن

أن يسمى بهذا الاسم ؟ خـذى أوتيلى ، ودعى لى الـكابتن ، واقَـسِر على بركة الله .

— كان فى وسعنا أن نجازف بهذا ، بهذا أجابت شرلوت فى شىء من الجد ، لو كان الخطر يتعلق بنا وحدنا . لـكن ، أفتظن أن من السداد أن نجمع فى منزلنا بين أوتيلى والـكابتن : بين رجل يناهزك فى السن ، فى هذه السن (ولأصرح فى وجهك بهذا المديح !) التى يصير فيها الإنسان محبوبا حقاً خليقاً بالحب ، وبين فتاة لها هذه الفتنة ؟

فأجاب إدورد : أعترف لكِ بأنى لا أعلم كيف تقدرين على أن ترفعى هكذا من قدر أوتيلى . الظاهر أن الفتاة قد ورثت شيئاً من الود الذى تَحَضْتيه أمها . هى حقا جميـلة ، وإنى لأذكر كيف نبهنى الـكابتن إلى فتنتها ، حينما كنت عائداً منذ سنة فرأيناها معك عند خالتك . هى حقا جميلة ، ما فى ذلك من ريب ؛ ولها خصوصا عينان جميلتان ؛ لـكنى لا أستطيع أن أقول إنها تركت فى نفسى أقل أثر .

فقالت شرلوت : هذا من ممادحك ، لأنى كنت حاضرة ، وعلى الرغم من أنها كانت أنصع منى شبابا بكثير ، فإن وجود الصديقة القديمة كان له من السحر فى عينك ما جعلك تنصرف كل الانصراف عن كل ما شامه جمالُـها من مخايل الرجاء . وهذا دأبك ، ولذا يلذ لى أن أقضى حياتى وإياك .

لـكن شرلوت ، على ما فى لغتها من إخلاص وصدق ، كانت تخفى شيئا . ذلك أنها تعمدت حينذاك أن تظهر أوتيلى أمام أعين إدورد حين عودته من أسفاره ، كيما تهيئ ليتيمتها العزيزة زواجاً ممتازا كهذا ، لأنها لم تـكن تفـكر بعد فى إدورد لنفسها . وكانت أيضاً قد دعت الـكابتن سراً إلى لفت نظر صديقه إلى الفتاة ؛ غير أن إدورد ، وقد ظل على حبه القديم

لشرلوت ، لم يتلفت يمنة ولا يسرة ، سعيدا كل السعادة بالشعور بأنه قد صار فى مقدوره أخيراً أن يظفر بهذه النعمة التى طالما استشرفت نفسه إليها ، لكن سلسلة من الأحداث قد خَيّلَتْ إليه أنها حُرّمت عليه أبدا .

وكان الزوجان بسبيل الانحدار إلى القصر خلال المزارع الجديدة ، حينما صعد نحوهما خادم أعلن بالضحك عن مَقْدَمه وقال :

— هلما سريعا ، سيداى ! فقد وصل السيد مِتْلر على جواده ، وهو الآن فى ساحة القصر ، وجعلنا نُهْرَع جميعا إلى ندائه . فكان لا بد من البحث عنكما ، ودعوتكما إلى الحضور إن كانت المسألة عاجلة . فسألناه فأجاب : إذا كانت المسألة عاجلة ؟ أصغ ! أَسرع ، أَسرع !

فصاح إدورد : يا له من رجل مضحك ! لكن ، ألم يأت فى الفرصة المناسبة ، شرلوت ؟

وقال للخادم : عُد سريعا ! أَجبه أن المسألة عاجلة ، عاجلة جداً . ولينزل عن صهوة جواده ؛ ولتُعْنَ بهذا الأخير ؛ أما مِتْلر فأدخله فى القصر ، ولتعدّوا له الغداء . ونحن قادمان توا . ثم قال لزوجه : لنسلك أقرب طريق ! وسار على الدَّرْب السائر خلال المقبرة ، وهو دَرْبٌ تعود تجنبه .

لكن كم كانت دهشته حينما وجد شرلوت تجمل للعاطفة حظاً حتى فى هذا المكان ! فقد أبقت ما وسعها على القبور القديمة ، واستطاعت أن تنظم كل شىء وتُعِدّه على نحو جعل المقبرة تبدو مقاما بديعا ترتاح لمرآه العيون كما يهواه الخيال .

لقد أبقت على كل شىء حتى أقدم الأحجار ، ورتبتها وفقا لتاريخها ، وأحاطتها بالأُطُر أو على الأقل أسندتها إلى عرض السور ؛ وزينت بها قاعدة الكنيسة العليا فى بعض المواضع . فاستولت الدهشة على إدورد ، حينما

دخل من الباب الصغير ؛ وضغط على يد شرلوت ، وفى عينيه عَبْرة تتألَّق .

غير أن الضيف الغريب سرعان ما انتشلهما من هذا المكان ، إذ لم يستطع البقاء فى القصر ، فأَحْضَر خلال القرية حتى بلغ باب المقبرة الكبير ، ثم توقف وصاح فى أصدقائه :

— أنتما لا تسخران بى ، فيما آمُل ؟ إن كان الأمر عاجلا حقا ، فسأظل هنا حتى الظهر . ألا لا تُبطِّئا بى ! فإنّ لدى الكثير الذى يجب علىّ فعله اليوم .

— ما دمت قد مكنت نفسك مشقة المجىء إلى هنا من بعيد ، بهذا أجابه إدورد ، فاركب إلى هنا : فإنَّا نلتقى هنا فى مكان رهيب ، وتأمل كيف زينت شرلوت هذا المرقد الحزين !

فصاح الراكب : لن أدخل هناك راكبا ولا راجلا ، ولا فى مركبة . إن هؤلاء يرقدون فى سلام ؛ وليس لدى ما اشتوره معهم . وكفى بالمرء داءاً أن يُحْمل إلى هنا يوما وقدماه إلى أمام . ماذا إذن ، الأمر جِد ؟

— نعم ، هكذا قالت شرلوت ؛ جد للغاية . هذه هى المرة الأولى التى يشعر فيها الزوجان الجديدان بأنهما فى مأزِق لا يستطيعان الخروج منه .

فأجاب : لا يبدو هذا على مُحَيا كما ؛ ومع هذا فإنى أود أن أصدقه . فإن دعوتمانى فى المستقبل ، فسأدعكما وشأنكما . أَسرعا باقتفاء أثرى ؛ إن فى هذا التوقف استجماما لجوادى .

وبعد قليل كان ثالوثهم مجتمعا فى البهو . وأُحضر الغداء . فقص مِتْلر حديث أعماله ومشروعاته فى ذلك اليوم . لقد كان هذا الرجل الغريب الأطوار من قبل قسيسا ، وبفضل نشاطه الدائم بَرّز فى مهنته هذه ، من حيث قدرته على حسم أسباب الخلاف فى جميع الخصومات الأُسرية أو بين

الجيران ؛ وكان يقوم بعمله هذا فى البدء بين الخواص ، ثم من بعد بين الأسر الكبيرة وأصحاب الثراء الواسع . وطوال المدة التى كان يمارس فيها مهنته ، لم يحدث أى طلاق ، ولم تُشغل محاكم الإقليم بأى نزاع حاد ، ولا بأية قضية رفعها أحد أبناء أبروشيته . لكنه سرعان ما أدرك ضرورة العلم بالقانون لديه ؛ فقصر نفسه على دراسته وأخلى له ذَرْعه ، وسرعان ما أصبح محاميا ألمعيا . ثم اتسعت دائرة نشاطه إلى حد عجيب ، حتى كان على وشك أن يُدْعى إلى العاصمة كيما يتم من عَلِ ما بداه من أسفل ، حينما ظفر بمكسب ضخم فى اليانصيب ؛ فاشترى قطعة أرض قليلة المساحة ، أجرها وجعل منها مركز نشاطه ، مصمما كل التصميم أو بالحرَى متبعا ديدنه القديم ، وهو ألا يلج بيتا ليست فيه مشكلة تحتاج إلى حل ، أو نزاع يراد حسمه . حتى إن المؤمنين بالخرافات من الناس ممن يحفلون بمعانى أسماء الأعلام ليزعمون أن اسمه ، متلر (أى : الوسيط) هو الذى قدر له أن يتخذ هذا المسلك الغريب وهذه المهمة العجيبة .

فلما أحضرت الفاكهة ، توسل متلر إلى مُضيفيه بكل جِد ألا يدعاه ينتظر طويلا ما يريدان الإفضاء به إليه ، لأنه لا بد مغادرهما بعد تناول القهوة . فاسترسل الزوجان فى اعترافاتهما بإطناب . لكنه لم يكد يتبين موضوع نزاعهما حتى نهض من مقعده مغضباً وأهرع إلى النافذة حيث أمر بإسراج جواده . ثم صاح فيهما :

— إما أنكم لا تعرفوننى ولا تفهمون طبيعتى ، أو أنتم تسلكون سبيلا ماكرة . أهذه مجلبة للنزاع ؟ وهل أنتم فى حاجة إلى أى عون ؟ أتحسبون أنى خلقت لإسداء النُّصْح ؟ لَهذه أحمق مهنة يتخذها الإنسان ، ألا فلينصح كل امرىء نفسه ، وليفعل ما ليس منه بد . فإن سارت الأمور

على ما يهوى ، فليمتدح حكمته وليُـطْـر جده ؛ وإن أخفق ، فها أنذا على استعداد . من يُرِدْ الخلاص من شر يعرف دائماً ماذا يريد ؛ ومن يرد امتلاك أكثر ممـا وسعه يَسِرْ فى ضلال ... نعم ، نعم ، ابتسما ما وسعكما الابتسام ! . . إن مثله مثل من يلعب لعبة عصب العينين ، فلعله يمسك بشيء ، لـكن ما هو ؟ أعملا ما يبدو لـكما : فهذا سواء . ادعوا صديقيكما للسكنى معكما ، أو دعوهما بعيدين : فهذا سيان . لقد رأيت أحكم العزائم تفضى إلى أسوأ النتائج ، كما رأيت أسوأها تـكلل بالنجاح . فلا تصدعاً رأسيكما : إذا انتهى قراركم ، أيًّا ما كان هذا القرار ، إلى نتائج سيئة ، فلا تحفلا كثيراً : بل إرسلا فى طلبى ، وأنا أخرجكما من المأزق . ولا زلت لـكم خادماً حتى ذلك الحين .

وما قال هذه الـكلمات حتى خرج ووثب على صهوة جواده ، دون انتظار للقهوة .

فقالت شرلوت : « ها أنت ذا ترى كيف أن أى ثالث لا يمكن أن يفيد كثيراً ، إذا كان اثنان وثيقا الارتباط لا يستطيعان أن يتفقا تمام الاتفاق . وها نحن أولاء قد صرنا من أمرنا على غُمّـة تزيد عما كانت من قبل .

لقد كان الزوجان سيظلان على هذا الالتياث لولا أن وصلت رسالة من الـكابتن رداً على رسالة إدورد الأخيرة . وفيها أعلن أنه قرر قبول منصب من المنـاصب التى عرضت عليه ، بالرغم من كونه لا يوافقه : إذ سيضطره إلى المشاركة فى ملال أناس أثرياء نبلاء ، قصدوا منه أن يكون لهم سميراً يسرّى عنهم غشاوة السآمة .

وبنظرة واحدة استنفض إدورد الموقف كله وصوّره فى أحد تصوير . وصاح :

— أَ نَدَعُ صديقنا فى مثل هذا المركز ؟ لستِ قاسية إلى هذا الحد يا شرلوت !

فأجابت : لعل صديقنا الغريب ، متلر ، على حق . فكل هذه المسائل ضربات حظ ، وليس فى استطاعة أحد أن يتنبأ بالنتائج . وهذه الصلات الجديدة يمكن أن تكون غنية بالنعيم أو مليئة بالشقاء ، دون أن يكون فى وسعنا أن نعزو هذا إلى فضل لنا أو إلى خطأ ارتكبناه وإثم اقترفناه . ولم يعد لى من القوة ما يسمح لى بالاستمرار فى معارضتك . فلنحاول إذاً . ورجائى الوحيد إليك هو أن تكون محاولة قصيرة المدى . ولتسمح لى بأن أبذل للكابتن من السعى أكثر مما فعلت حتى الآن ؛ وأن انتفع بما لى من نفوذ وصلات شخصية ، كيما أحصل له على مركز يهيىء له من أمره رَشَداً .

فقضاها إدورد حق الشكر على ما أولته من جميل . وأسرع ، مثلوج الصدر مسرور الفؤاد ، يكتب إلى صديقه عما اعتزمه . وشرلوت بدورها قد أضافت حاشية حَبَّرَتها بكلمات الاستحسان ، ضامَّة رجاءها إلى رجاء زوجها . لقد كتبت بقلم سيال فيه رقة ورشاقة وإحسان ، لكن فى سرعة لم تألفها ، ثم فعلت ما لم تفعله من قبل مطلقاً : أسقطت نقطة من المِداد على الورق ، مما أثار خيفتها ، ولما حاولت إزالتها لم تفعل إلا أن زادتها سعة على سعة . فمازحها إدورد على هذا ، وأضاف حاشية ثانية ، لأن الفراغ كان لا يزال موفوراً ، ذكر فيها أن هذه العلامة لا بد منبئة الصديق عن تلهفهما إلى رؤياه ، وعن وجوب إسراعه فى السفر وفقاً لسرعتهما فى كتابة هذه الرسالة إليه !

مضى الرسول . ولم يجد إدورد شاهداً على شكرانه خيراً من أن يلح فى الإهابة بشرلوت أن تدعو أوتيلى من مدرستها الداخلية كيما تقيم إلى جوارها .

فطلبت شرلوت إليه مهلة واستطاعت فى ذلك المساء أن تحمله على عزف بعض المقطوعات الموسيقية . وهى قد كانت تحسن التوقيع على البيان بدرجة أعلى مما كان إدورد ينفخ بها فى الناى ، لأنه على الرغم مما بذل من جهد فى فترات مختلفة ، فإنه لم يتح له من الصبر والمثابرة الضرورية ما يسمح له بإجادة هذه الملكة . فقام بدوره بطريقة غير مطردة فى الإجادة : فبعض المواضع كان فيه بارعاً ، وإن كان بسرعة أكثر مما يجب ، وفى مواضع أخرى كان يبطىء الميزان ، لأنه لم يكن فى مقدوره أن يعزفها بانطلاق ، وكان من العسير على أى شخص آخر أن يصاحبه فى ثنائى حتى النهاية . لكن شرلوت كانت تستطيع مسايرته : فكانت تبطىء حينا ، ثم تسرع ، وبهذا كانت تؤدى مهمة مزدوجة : مهمة رئيس ممتاز لفرقة موسيقية ، ومهمة زوج فَطِنة ، فاستطاعت الاحتفاظ بالميزان فى المجموع ، وإن لم يُراع دائماً فى كل فِقرة .

الفصل الثالث

وافى الكابتن . وكان قد أرسل قبل مجيئه كتاباً حكيماً أشاع الطمأنينة كلها فى رُوع شرلوت . فقد قدر نفسه فيه بكل وضوح ، وعبر بدقة عن موقفه وموقف صديقيه ، مما أنشأ أفقاً سعيداً باسما .

وجرى الحديث فى الساعات الأولى لوصوله حارًّا يكاد يشيع الدوار ، كما هى الحال عادة بين أصدقاء ظلوا وقتا طويلاً لم يرَ بعضُهم بعضا . وقبيل المساء هيأت شرلوت نزهة إلى المنشئات الجديدة . فوجد الكابتن منْطقة ساحرة ، وتلفّت إلى كل جمال كشفت عنه المخارف الجديدة وبَصّر به .

ولقد كانت له عين نافذة النظرة ومع هذا سهلة الإرضاء ؛ وبالرغم من أنه كان يعرف حقاً ما يمكن تطلبه ، فإنه لم يفعل ما يفعله الكثيرون من إثارة امتعاض هؤلاء الذين ارتاضوا به فى عقارهم ، بتطلب ما لم تكن الظروف تسمح به ، أو بذكر أشياء أكبر كمالاً رآها فى أماكن أخرى .

وما بلغوا كوخ الطحلب حتى وجدوه موشّى ، على أجمل نحو وأبهاه ، بأزهار صناعية حقاً ، ونباتات خضر ، تعانقها باقات جميلة من القمح ومن أزهار الحقول والبقول ، مما ولّد منظراً ينم عن سمو ذوق مَنْ هيأت هذا التزيين .

« على الرغم من كون زوجى لا يحب الاحتفال بعيد ميلاده أو عيد تسميته ، هكذا قالت شرلوت ، فإنه سيغفر لى إن أنا كرستُ هذه الأكاليل المتواضعة للعيد الثلاثى لهذا اليوم .

— العيد الثلاثى ؟ هكذا تساءل إدورد .

— فأجابت شرلوت : بلا ريب ! فوصول صديقنا عيد بالنسبة إلينا ؛ ثم إنه يظهر أنكما غير متنبهين إلى أن هذا اليوم عيدكما فى التسمية . أوَ لا يسمى كل منكما أوتو ؟ »

فتصافح الصديقان فوق المنضدة الصغيرة .

« إنك لتذكرينى ، هكذا قال إدورد ، بِسِمة من سمات الصداقة فى حداثة عمرى . فقد كان هذا اسم كلينا إبان الطفولة ؛ لكن لما أُدخلنا مدرسة داخلية ، حدث عن هذا كثير من الخلط ، فتخليت لك عن هذا الاسم الموجز الجميل .

— ولم تكن فى هذا كثير السخاء ، بهذا أجاب الكابتن ؛ لأنى أذكر جيداً أن اسم إدورد كان عندك ألذ مسمعاً ؛ فمن الحق أن لهذا الاسم رنيناً بالغ العذوبة ، حينما ينطق به فم جميل .

وكان ثلاثتهم يجلسون حول المائدة الصغيرة نفسها التى من حولها كانت شرلوت من قبل تعارض أشد المعارضة فى مجىء ضيفهما . ولم يشأ إدورد ، وسط هذا السرور السابغ ، أن يعيد ذكر هذه اللحظات إلى زوجه ؛ بيد أنه لم يتمالك أن قال لها : « وثمت مكان أيضا لشخص رابع » .

وفى تلك اللحظة كانت أصوات أبواق العيد تتردد أصداؤها فى القصر ، وكأنها تؤكد هذه العواطف الطيبة والنوايا الجميلة التى يكنها هؤلاء الصّحاب وهم بالفراغ العذب ينعمون . فأقبلوا على هذه الأصوات بأسماعهم دون أن ينطقوا ببنبسة ، وكلٌّ منطوٍ فى نفسه جامع لشتات أفكاره ، شاعر أقوى شعور بسعادة كبرى فى هذا الاجتماع الجميل .

وقطع إدورد هذا الصمت أول من قطع ، بأن نهض وخرج من الكوخ ، قائلا لشرلوت : « لنرافق صديقنا إلى قمة الرابية ، كيلا يقع فى ظنه أن هذا الوادى الضيّق هو كل تراثنا ومقامنا . فهناك فى الأعالى تكون النظرة أوسع مدى ، والتنفس أكثر انطلاقا » .

فقالت شرلوت : « يجب علينا إذاً فى هذه المرة أيضا أن نصعِّد فى الشِّعب العتيق الذى وإن كان شاقاً بعض المشقة فإنى آمل أن تعيننا الدرجات والمصاعد التى عملناها فيه على تسهيل صعودنا إلى القمة » .

عَلَوا الصخور واخترقوا الأشواك والخمائل حتى بلغوا القمة العليا التى لم تكن سهلا منبسطاً ، بل سلسلة من الآكام الخصبة . ومن خلفها غابت القرية وغار القصر . وفى الأعماق البعيدة كانت الغدران الواسعة تتراءى للعيون ؛ وعبرها ترامت الروابى ذات الأيك والغاب تحف بها تلك الغدران ؛ وفى النهاية تتبدى صخور وعرة عاتية كانت حوائلها العمودية إطاراً أخيراً لمرآة الماء ، تعكس على صفحاته صورها الرائعة . وفى الأقاصى وادٍ كان

يرى منه نهر واسع يجرى نحو الغيران ، وتكاد تختفى فيه طاحونة تتبدّى بما حولها كمُستراح فتان . وفى هذه الدائرة التى كان يشملها النظر توالت صفوف من الأودية والروابى ، والغابات والخمائل التى كانت نَضْرتها الناشئة تَبعد بأبهى المناظر . وكانت زُمَر من الأشجار المنعزلة تحول دون النظر فى بعض المواضع . وعند أقدام الناظرين تجلت أدغال من الصَّفصاف والدُّلْب فى وضوح بارز ، على حفافى غدير الوسط . وقد كانت هذه الأشجار فى ريعان نمّوها ، قوية سليمة مُشْرَعَة الرأس ، باسطة الأغصان . فمنى إدورد بلفت نظر صديقه إليها ، قائلا :

— لقد غرستها بنفسى إبان شبابى . وكانت آنذاك فسائل غضة ، استنقذتها من والدى حينما انتزعها فى معمعان الصيف وهو يعمل فى توسيع حديقة القصر . وليس من شك فى أنها ستستمر فى عرفانها الجميل ، حتى هذا العام ، بإرسال غصون جديدة .

وعاد المرتاضون مغمورين بالرضا والحبور . ثم عُيّنت للكابتن حجرة حسنة فسيحة تقوم فى الجناح الأيمن من القصر ، ما لبث أن نقل إليها كتبه وأوراقه وأدواته ، كيما يوالى الحياة النشيطة التى اعتادها . غير أن إدورد لم يدع له فى الأيام الأولى فسحة للراحة : فقد كان يأخذه معه فى كل مكان ، حيناً سائراً وحيناً راكبا جوادا ، وجاس معه خلال ضيعته وهذه المنطقة . ثم إنه أفضى إليه برغبته التى كان يكتمها من زمن طويل فى أن يزداد معرفة بضياعه وأن يستثمرها على خير وجه مستطاع .

فأجابه الكابتن : أول ما ينبغى عمله هو أن أرفع مستوى الضياع بواسطة البوصلة . وهذه عملية ميسورة لذيذة ؛ وإذا لم تكن دقيقة كل الدقة ، فإنها مع هذا مفيدة كافية فى البداية . وفى الوسع القيام بها بغير

كثير عناء ، ومن المؤكد إنجازها . فإن كنت تفكر فى القيام بعملية مساحة أكثر دقة ، ففى مقدورنا أن نفعل هذا أيضا .

وقد كان الكابتن ماهراً كل المهارة فى هذا النوع من رفع مستوى الأرض . وهو قد استحضر الأدوات اللازمة وما لبث أن شرع فى العمل توًّا . فعلَّم إدورد بعضا من القناصين والفلاحين الذين سيقومون بمعاونته . والزمن قد كان مواتيا ؛ فكان الكابتن يرسم فى الصباح والمساء ، وسرعان ما نظِّف الرسم ولُونت أجزاؤه . ورأى إدورد بكل وضوح ضياعه تتبدى على الورق كأنها خلقت من جديد ، حتى خُيل إليه أنه لم يبدأ يعرفها إلا الساعة ، وأنها قد صارت حقا مِلْكا خالصا له .

فدعا هذا الصديقين إلى التحدث عن تلك الضياع ، وعن الأعمال التى يمكن أن تنجز بمعونة هذه النظرة الكلية خيراً من محاولة التأثير فى الطبيعة وفقا لخواطر عابرة ونزوات عارضة .

وهنا قال إدورد : « هذا هو ما ينبغى أن نرشد زوجتى إليه » . فأجابه الكابتن : « لا تحاول ذلك » ، راغبا فى عدم مصادمة أفكار الآخرين ، لأن التجربة علمته أن نظرات الناس من الاختلاف بحيث لا تستطيع أحكم البراهين أن تجمعها على رأى واحد أبداً . وصاح به ثانية : « لا تحاول ! فقد يزعجها هذا كثيرا . إن المهم لديها ، كما هو لدى من يتدخلون فى مثل هذه الأعمال كهواة ، أن يُشْغَلوا بشىء ، لا أن يفعلوا شيئا حقا . إن المرء ليتحسس مع الطبيعة ؛ فيكون له ميل إلى هذا المركز الصغير أو ذاك ؛ أو لا يخاطر بإبعاد هذه أو تلك من العقبات ؛ أو لا يكون لديه من الجرأة ما يكفى للتضحية بشىء ؛ أو لا يكون فى وسعه تصور النتيجة مقدما ، فيحاول مرة بعد مرة ، فتارة ينجح ، وطوراً يُخفِق . . . فيعدل ، ولعله

أن يعدل ما كان يجب أن يحافظ عليه . . . ثم يُبقى على ما كان ينبغى تعديله ، ولا يبقى فى النهاية إلا آثار المَـرمَّـة والإصلاح ، مما يلذ ويسر ؛ وإن كان لا يرضى ويُقْـنع » .

فقال إدورد : « اعترف بهذا صراحة : أنك لست راضيا عن أعمالها هاتيك » .

فأجاب : « لو كان التنفيذ قد جاء وفقا للفكرة ، وهى جيدة ، لم يك فى ذاك ذام . لقد أجهدت نفسها فى شق الصخور ، وإنها لتُـجهد كل من تقوده إليها : إذ لا يستطيع المرء أن يسير إلى جوار أخيه ولا وراءه أو أمامه بحُـرية ، ذلك لأن إيقاع الخطى يُقطع باستمرار . وكم غير هذا من معايب ؟ »

فقال إدورد : « وهل كان من الميسور العمل على نحو آخر ؟ »

— من السهل جـدا : فلم يكن على زوجتك إلا أن تشق زاوية فى الصخر لا تـكاد تبدو ، لأنها ستـكون مركبة من أجزاء صغيرة ؛ فبهذا كانت تستطيع الحصول على منحنى للصعود رشيق ، وفى الآن نفسه تظفر بأحجار وفيرة ، لبناء جدران تـكون كقوائم تستند عليهـا المواضع التى يكون فيها الطريق ضيقا أو رديئا . ولـكن ليكن هذا حديثا بيننا وحدنا ؛ وإلا فسيعروها القلق ويعتورها السخط . وعلينا أن نبقى على ما تم فعله . فإذا شئنا أن نبذل فيه من بعد مالنا وجهودنا ، فلا تزال ثمت — من كوخ الطحلب حتى القمة ، وعلى الرابية — أعمال كثيرة تحتاج إلى الإنجاز ، ومجال واسع للتزويق والتجميل .

وإذا كان الصديقان قد وجـدا فى الحاضر ما يشغلهما ، فقد هيأ لهم الماضى وفْـرَة من الذكريات الحية العذبة تعودت شرلوت أن تشارك فيها . واقترحوا فيما بينهم أن يبدأوا فى تحرير يوميات السفر بمجرد انتهاء الأعمال

العاجلة ، مُحنّين ، عن هذا الطريق ، ذكريات الماضى العتيق .

وفضلا عن هــذا ، فإن دواعى الحديث بين إدورد وشرلوت وحدهما قد قل مقدارها ، خصوصاً منذ أن صار ينزع إلى انتقاد الأعمال العاجلة التى قامت بها فى البستان ، وهو انتقاد كان فى نظره صائباً . وهو قد ظل مدة طويلة صامتاً لا يدلى إليها بملاحظات الـكابتن ، ولـكنه حينما رأى زوجته تأمر ببناء مصاعد صغيرة وشعابا ضيقة للصعود من الـكوخ إلى الأعالى فى شىء من الإرهاق والجهد ، لم يستطع أن يستمر فى صمته ، وبعد شىء من التقديم ، أفضى إليها بأفكاره الجديدة .

ارتعدت شرلوت . إذ سرعان ما تبينت ، وهى الفَـطِنة المتقدة الذكاء ، أنهما على صواب فيما يرتأيان . غير أن ما تم عمله لا يتفق مع التصميمات الجديدة ؛ وفضلا عن هذا فقد قُضى الأمر ووجَـدت ما فعلته حسَـنا ؛ بل إن كل ما كان موضوعا للوم كان فى نظرها مدعاة للرضا من كل نواحيه . فلم تشأ الاقتناع ؛ بل راحت تدافع عن ضيعتها الصغيرة ؛ وأخذت على الرجال أنهم ينزعون دائما إلى ما هو ضخم ، ويريدون أن يصنعوا من المزاح والملهاة عملا جديا ، دون أن يقدروا النفقات التى يقتضيها دائماً كل تصميم واسع . وكان يغالبها التأثر والتهزّع والسخط ؛ فهى لم تـكن تقدر أن تتخلى عن أفـكارها القديمة ، كما لم يكن فى وسعها أن ترفض كل الرفض الآراء الجديدة . ولـكنها ، وهى الماضية العزيمة بطبعها ، وقفت فى الحال أعمالها ، وروّت فى الأمر وانتظرت حتى تتضح أفـكارُها .

وبينما كانت بمعزل عن هذا الشّـغل اللذيذ ، كان الصديقان ، اللذان ازدادا كل يوم ترافؤاً واتفاقا ، يتابعان أعمالهما ويوجهان عناية خاصة إلى حدائق النزهة وإلى بيوت تربية النبات ؛ وبين الحين والحين ينصرفان إلى

هواياتهم المعهودة : من قنص ومقايضة خيول أو شرائها ، وتمرينها على السروج والعربة ؛ مما جعل شرلوت تزداد بوحدتها شعورا . فعكفت على الترسُّل (حتى من أجل فائدة الكابتن) بحماسة متجددة ؛ ومع هذا كانت تشعر بساعات فراغ طِوال جعلت التقريرات التى تتلقاها من المدرسة الداخلية تزداد فى نظرها لذة وتشويقا .

ومن بينها رسالة متصلة بعثت بها الناظرة التى توسمت ، كما هو دأبها ، فى ذكر تقدم لوسيان فى نبرة يمازجها السرور ؛ وكانت الرسالة متلوّة بحاشية صغيرة تتبعها مذكِّرة حررها أحد المعلمين بالمدرسة . وها نحن أولاء نروى كلتيهما :

حاشية الناظرة

أما فيما يتصل بأوتيلى ، أَى سيدتى البارونة ، فليس لدى ما أقوله غير ما ذكرته فى تقريراتى السالفة . فما يسعنى أن أُغلِظ عليها اللائمة ، كما أنى لا قِبَل لى بأن أرضى عنها . فهى كعادتها متواضعة رقيقة الحاشية للآخرين ؛ لكن هذا التحفظ وتلك الشمائل الرسمية التى تتراءى منها لا تبعث الرضا فى نفسى . ومنذ قليل أُرسلتِ إليها ، أى سيدتى ، نقوداً وأنواعا مختلفة من الثياب ؛ لكنها لم تَمْسَس النقود ، والثياب لا تزال كما هى لم تستعملها . وهى حريصة كل الحرص على ترتيب متاعها وتنظيفه ، وعلى هذا النحو وحده يبدو أنها تغير ملابسها . كما لا يسعنى أيضا أن أقرها على إفراط قناعتها : فليس على مائدتنا شىء يزيد عن الحاجة . لكن لا شىء أبعث إلى السرور فى نفسى من رؤية الأولاد يأكلون بشهية أطعمة صحية حلوة المذاق . إذ ينبغى الفراغ من كل ما يقدّم من طعام لأنه إنما

يُقدَّم عن فطنة فى الاختيار وحسن فى الخدمة . ومع هـذا كله فلم أستطع إقناع أوتيلى وإغراءها به . ويسرها دائما أن تفتقد خدمة تؤديها ، وثُغْـرة تسدها (إذا أهمل الخادمات فى شىء) ، لا لشىء إلا لتتخلص من تناول صحفة أو فاكهة . وجدير بى ، يا سيدتى ، أن أضيف ملاحظة أخرى تنبهت إليها حديثا ، هى أنها تشعر أحيانا بألم فى الجـانب الأيسر من رأسها ، ألمٍ وإن يكن عابراً ، فإنه شديد حرى بالعناية .

وهذا كل ما لدى أن أقوله عن هذه الطفلة اللطيفة الجميلة .

مذكرة المعلّم

إن ناظرتنا الممتازة تسمح لى كثيراً بقراءة الرسائل التى توجّه فيها إلى الآباء وأولياء الأمر ملاحظات خاصـة بالتلاميذ . وإنى لأقرأ بمزيد الانتباه وفائق السرور ما يرسـل إليك منها ، أى سيدتى البارونة . ذلك أنه إلى جانب ما لدينا من دواعٍ لتهنئتك على أن تـكون لك بنت تجمع أروع الخصال التى تهيىء للانسان فى الدنيا مركزاً كريما ، فإنى مع هذا لا أقل تقديراً لك بأن يكون من حظك أن تتبنى فتاة خلقت كيما تـكون مبعثا للسرور والرضا فى محيطها ، بالنسبة إلى غيرها ، ثم بالنسبة إلى نفسها كذلك . وإن أوتيلى لهى الوحيدة تقريبا من بين تلميذاتنا التى لا أستطيع أن أشارك ناظرتنا المبجلة رأيها فيها . فأنا أفهم جيد الفهم أن هذه السيدة المليئة بالنشاط ترغب فى أن ترى ثمار عنايتها واضحة أمامها ؛ غير أن ثمت ثماراً تظل مستترة ، وهى الثمار الحقيقية الممتازة ، ثم لا تلبث ، إن عاجلا أو آجلا ، أن تظفر بنماء رائع . وتلك هى من دون شك حال ابنتك اليتيمة . فمنذ العهد الذى وكل إلىّ فيه تعليمها ، وأنا لا أنفك أراها

تطّـرد فى التقدم ، الذى وإن كان بطيئا فإنه لا يتراجع أبداً . وإذا كان من الضرورى أن يبدأ الإنسان مع الطفل منذ البداية ، فما أصـدق هذا بالنسبة إليها ! إنها لا تفهم من الأشياء ما لا تستنتج مباشرة مما سبق ؛ فتظل مضطربة ، حائرة كالغبية ، أمام فـكرة سهلة الإدراك ، إذا كانت هذه الفـكرة غير مرتبطة بشىء ؛ لـكن إذا كشف المرء عن الحلقات المتوسطة ودلّـها عليها ، فإنها تفهم أشد الأشياء صعوبة وعسرا .

وخضوعها لهذا التقدم المعتدل يجعلها تتخلف عن زميلاتها اللائى يسرن بخطى واسعة ويتقدمن باستمرار ، بما لديهن من مواهب مختلفة عن مواهبها : فإنهن يدركن كل شىء ويحفظنه بيُـسْر ، حتى ما هو غير مُحْـكم ، ويحسنَّ الانتفاع به . لهذا لا تفيد مطلقاً ولا تنتفع أبدا من التعليم السريع ، كما هى الحال فى بعض الدروس التى يلقيها أسـاتذة أَكْفاء ، وإن كانوا مع هذا مسرعين متلهفين . ولطالما علت الشكوى من سوء خطها ، ومن عجزها عن فهم قواعد النحو : ففحصت هذه الشـكاوى عن قرب . حقاً ، إن كتابتها بطيئه تعوزها المرونة ؛ لـكنها مع هذا ليست مُشَـبَّجة ولا مُـمَجْـمَجة . وما لقنته إياها شيئا فشيئاً من اللغة الفرنسية — التى لا أُحْـسنها مع ذلك كثيرا — قد وعته بسهولة . ومن الغريب أنها كثيرة المحفوظ جيدة المعلوم ؛ لـكنها حينما تُسأل يُرتَـجُ عليها وتبدو كأنها لا تعرف شيئا .

فإن سمحتِ لى بأن أختم كلامى بملاحظة عامة ، فإنى أجرؤ على القول بأنها تتعلم ، لا كمن يرمى إلى التعليم فحسب ، لـكن كمن يريد تعليم غيره ؛ لا كتلميذة ، بل كمعلمة فى المستقبل . ولعله قد يبدو لكِ غريباً ، سيـدتى البارونة ، أن لا أجد ، وأنا المعلّم ، شيئا أُطـرِى به إنساناً خيراً من أن أساويه بنفسى .

وإن نظراتك الثاقبة ، ومعرفتك العميقة بشئون الحياة والناس ، ستختار ما عسى أن يكون حسناً فى أقوالى المتواضعة المليئة بأطيب النوايا . وستقتنعين بأنه فى الوسع أن يأمُل المرء من هذه البنت خيراً كثيرا . وختاماً أتقدم إليك ، يا سيدتى ، بأخلص آيات الولاء ، سائلاً منك الإذن لى بالكتابة إليك حينما أجد فى مقدورى أن أرسل إليك شيئاً يبعث إلى الرضا والتشويق .

لشدّ ما سَرّت هذه المذكرةُ نفسَ شرلوت ! فقد اتفق مضمونها كل الاتفاق مع رأيها فى أوتيلى . لكنها لم تتمالك نفسها من الابتسام ، إذ رأت عطف المعلّم يبدو أرق من ذلك العطف الذى تثيره عادةً مواهب تلميذة . غير أنها ، بما لها من طريقة فى التفكير خاصة ، رزينة متحررة من الوساوس ، لم تستوحش من هذه الناحية ، ولم يخامرها من هذه العلاقات ظن ولا ريب ، كما هو شأن كثير من العلاقات ؛ بل زادت قدر هذه العناية التى يوجهها هذا الرجل العاقل نحو أوتيلى ، لأنها تعلمت كثيراً من تجارب الحياة ما هنالك من قيمة كبرى لكل عطف صادق فى عالم ساد فيه عدم الاكتراث وفقدان التعاطف .

الفصل الرابع

تم انجاز التصميم الطوبوغرافى للضيعة وما حولها فى وقت قصير . وقد عُمل هذا التصميم على مقياس كبير ، وأضفت عليه الخطوط والألوان شيئاً من البروز والوضوح ، وازداد دقة بواسطة بعض عمليات حسب المثلثات التى أجراها الكابتن . ولقد كان من العسير الظفر بشخص أحرص على

السهر من هذا الرجل المثابر الذى كان يجعل يومه مخصصاً كله لعمل الساعة : ولهذا كانَ يتم جزءٌ من العمل كلَّ مساء .

قال لصديقه : « لننتقل إلى التالى : إلى وصف الأرض التى يجب أن تهيأ لها مواد كافية ؛ وسيفيد هذا الوصف فى أن يكون أساساً لمشروعات الإيجار ولمنافع أخرى . لكن لنتخذ مبدأً ثابتا لا يتغير : افصل الأعمال عن الحياة . فإن الأعمال تحتاج إلى الجد والصرامة ، بينما الحياة تريد الهوى والنُزاء ؛ الأعمال تنشد الاستمرار والانتظام ، أما الحياة فكثيرا ما تتطلب الانقطاع والتناقض ، مما يولّد أيضاً نوعاً من السحر والإغراء . وكلما ازددت دقة فى الأعمال ، استطعت الاستمتاع بالحرية فى الحياة ؛ أما إذا خلطت ، فالحرية تذهب بالدقة وتقضى عليها » .

شعر إدورد بما فى هذه النصائح من لوم رشيق . أجل ، إنه لم يكن غير منظم ، غير أنه لم يكن فى استطاعته تصنيف أوراقه وترتيبها ؛ ولم يكن يميز بين ما يتوقف على الغير وما لا يتوقف إلا على نفسه ؛ كما لم يفرّق تفرقة كافية بين الأعمال والأشغال وبين الملاهى والمسرات . لكن هذا كله قد صار له اليوم ميسوراً ، الآن وقد قام عنه صديق بأداء هذا الواجب ، صديق يعتبر صورة أخرى منه ، قام بعملية الفصل هذه التى لا قِبل للإنسان دائماً القيام بها لو تُرِك وحده .

لهذا وضعا فى جناح القصر حيث يقيم الكابتن مكتبا للأعمال الجارية ، ومحفوظات للأعمال الماضية ؛ واستخرجا من مستودعات مختلفة : من غرف وخزائن ، الوثائق والأوراق والسفاتج من كل الأنواع ، ووضع هذا الخليط كله فى أماكن خاصة بنظام ملائم : فجعلت لكل شىء بطاقة ووضع فى خانة منفصلة . وما كانا يرغبان فيه وجداه أكمل مما كان يظن ، واستعان

الصديقان خيرالعون بكاتب عجوز ظل طوال النهار وشطراً من الليل لايفارق قطره ، بعد أن كان إدورد غير راضٍ عنه حتى ذلك الحين . حتى قال لصديقه : «إنى لم أعُد أتعرفه ؛ وإنى لمعجب بما هو عليه من نشاط وبما يسديه من منفعة لنا» .

فأجاب الكابتن : « ذلك أننا لا نعرض عليه أى عمل جديد قبل أن يكون قد أتم على هواه العملَ الذى يشتغل به . فعلى هذا النحو تراه ينجز الكثير . أما إذا أُرهق بعمل آخر ، فإنه لن يكونْ حينئذ مفيدا » .

وكان الصديقان ، بعد أن يمضيا النهار على هذا النحو ، يختلفان إلى شرلوت كلّ مساء . فإذا لم يكن فى زيارتها أحد من الجيران — وهذا كان يحدث كثيرا — كان الحديث ، أو القراءة ، يدور عادة حول المسائل التى تزيد من رفاهية المجتمع المدنى وسعادته ومنافعه .

وشرلوت بدورها ، وهى التى تعددت الانتفاع بوقتها ، لما رأت زوجها راضيا ، شعرت هى الأخرى بحماسة جديدة تشيع فى نفسها . وكثير من المنشئات المنزلية ، التى كانت تصبو إلى إقامتها منذ زمان طويل دون أن تظفر بتحقيق هذه الرغبة ، قد استطاع نشاط الكابتن أن ينظمها ويهيّئها . فصيدلية المنزل ، التى لم تكن تشتمل حتى ذلك الحين إلا على مقدار من الأدوية قليل ، قد زودت بالكثير ؛ وبعض من الكتب السهلة والمحادثات الهينة هيأت شرلوت لإظهار إحسانها النشيط أكثر مما كانت تفعل وأكبر تأثيراً من قبل .

ولما كان الحديث يعرّج على الحوادث ، المعتادة وإن فاجأت مراراً ، فقد أفكروا فيما يجب عمله فى هذه الأحوال ، ولذا أعدوا كل ما هو ضرورى لإنقاذ الغرقى وإسعافهم ، خصوصاً أن كثرة الغُدْران والمياه والأجهزة

المائية فى هذه المِنْطقة قد جعل الحوادث من هذا النوع متعددة . وشغل هذا الموضوعُ الكابتن طويلا . وأطلق إدورد هذه الملاحظة وهى أن حادثاً مماثلاً قد كان له أكبر الخطر فى حياة صديقه على نحوٍ يستنفد كل غرابة . لكن لما اعتصم بالصمت وكأنه يريد طرد ذكرى حزينة ، التزم إدورد هو الآخر الصمتَ ؛ وشرلوت ، وقد كانت تعرف أيضاً حقيقة هذه المسألة ، حوّلت مجرى الحديث .

وذات مساء قال الكابتن : « كل هذه الاحتياطات جديرة بالإطراء ؛ إنما الذى يعوزنا دائماً هو الرجل الماهر الذى يستطيع الانتفاع بهذا كله . غير أن فى وسعى اقتراح جَرّاح عسكرى من معارفى ، يمكن الحصول عليه بشروط معتدلة ، وهو رجل ممتاز فى فنه ، أسدى إلىّ خدمات جُلّى فى علاج أمراض داخلية عنيفة ، لا يستطيع أن يؤدى مثلها طبيب مشهور ؛ وإن أحوجَ ما يُحتاج إليه فى الريف هو الإسعاف السريع » .

وسرعان ما استُدعى هذا الرجل ، واغتبط الزوجان للظفر بفرصة لاستخدام بعض المال فى مسائل ضرورية ، وقد كان يُنفق لمجرد اللذة .

وعلى هذا النحو استطاعت شرلوت أن تفيد من معارف الكابتن ونشاطها ، إفادة تتفق وذوقها ؛ حتى بدأت تغتبط لوجوده بينهم ، وتشيع فى نفسها الطمأنينة من ناحية نتائج وجوده بين ظهرانيهم . وكان هجّيراها أن تتهيأ لإلقاء مختلف الأسئلة عليه ؛ ولما كانت تحب الحياة ، فقد كانت تحرص على استبعاد كل ما هو ضارٌّ خطر : فطلاء الرصاص الخاص بالأوانى ، والزِّنجار الذى يغطى الأوانى النحاسية ، كثيراً ما أثار مخاوفها ؛ فنشدت تفسيراً فى هذا الصدد ، مما أفضى بطبعه إلى الخوض فى أوليات الفزياء والكيمياء .

وكان إدورد يزج فى هذه الأحاديث بعناصر عارضة ، ولكنها مقبولة دائمة ؛ كما كان يهوى القراءة بصوت مرتفع ، صوت متزن رنان . وكثيراً ما كان يُمتدح من قبل لبراعته فى الإلقاء الحى المتأثر وهو يقرأ كتب الشعر والخطابة . أما اليوم فهو فى شغل بموضوعات أخرى ، فكان يقرأ لأصدقائه كتباً من نوع آخر ، كانت منذ زمن قليل فى الغالب كتباً فى الفزياء والكيمياء والصناعة .

ومن غريب أحواله (ولعل غيره يشاركه فى هذا) أنه لم يكن له قبل رؤية إنسان يلق بنظره فى الكتاب الذى يقرأ فيه . وقبلُ ، حينما كانت قراءاته تدور حول الأشعار والمسرحيات والقصص ، كانت هذه الحالة نتيجة طبيعية للرغبة الحارة التى يشعر بها القارئ ، كما يشعربها الشاعر والمسرحى والقصاص ، فى إثارة الدهشة والتوقف عند بعض المواضع وابتعاث حب الاستطلاع . وإنه لما يعترض هذه الرغبة كل الاعتراض أن يعلم الإنسان أن شخصاً آخر يسابق نظراتنا بينا نحن نطالع . لهذا كان من دأبه فى مثل هذه الأحوال أن يجلس بطريقة لا تجعل أحداً يقوم من ورائه . أما الآن وقد صاروا ثلاثة ، فلم يكن لهذا الاحتياط فائدة ؛ وفضلا عن هذا لم يكن الأمر يستدعى الآن إثارة عاطفة أو إدهاش خيال ، لذا لم يكترث إدورد ولم يفكر فى أن يحتاط ذلك الاحتياط .

لكن حدث ذات مساء حينما كان يجلس فى غير اكتراث أنه تبيَّن فى الحال أن شرلوت كانت تحدق بعينيها فى الكتاب . فبعث هذا قلقه القديم ، فلامها بطريقة لا تخلو من الجفاف ، قائلا :

— ليت شعرى لماذا لايترك الناس نهائيا هذه العادة السيئة ويقلعوا عنها وعن أمثالها مما لايلائم المجتمعات ! فأنا حينما أقرأ شيئا لإنسان ، أفليس

هذا كأنى أستعرض أمامه شيئاً شفاهاً ؟ إن المكتوب والمطبوع يشغلان مكان أفكارى وعواطفى الخاصة ، فهل أحمّل نفسى عبء الحديث ، إذا كانت فى جبهتى أو صدرى نافذة صغيرة ، بحيث يتهيأ للشخص الذى أريد أن أعرض أفكاره أمامى واحدة تلو الأخرى ، وأبث إليه عواطفى عاطفة بعد عاطفة ، أن يعرف مقدماً إلى أين أريد الوصول ؟ حينما ينظر إنسان فى الكتاب الذى أقرأ فيه ، يخيّل إلىّ دائماً أننى قد شُطِرت شطرين .

وشرلوت ، التى امتازت فى المجتمعات صغيرها وكبيرها بمهارتها الفائقة فى استبعاد كل قول غير مرغوب فيه أو جارح أو حادّ ، وفى قطع الحديث الطويل لدرجة الإملال ، وفى إشاعة الحياة فى الحديث المتراخى ، شرلوت وهذه صفاتها لم تخنها هذه المرة موهبتها هاتيك . فقالت لزوجها : « ستغفر لى من غير شك خطأى ، حينما تدعنى أنبئك عما حدث لى فى هذه اللحظة . فالموضوع متصل بالأنساب ، فأفكرت فى الحال فى نسب الدم ؛ أفكرت فى ابنى عم يقلقان بالى الآن . فاتجه انتباهى إلى القراءة ، وإذا بى أسمع أن الحديث يدور حول الأشياء الجمادية ، فألقيت بنظرى فى كتابك ، كيما أستعيد نفسى » .

— إنه تشبيه هذا الذى أفضى بك إلى الخطأ ، هكذا قال إدورد . فالحديث هنا يدور كله حول التربة والمعادن وحدها ، ولكن الإنسان نرجس حقا : فهو يريد أن يرى نفسه منعكسة فى كل ما حوله ، ولا يرى فى الدنيا غير نفسه .

— أجل ! هكذا قال الكابتن . فهو يعامل كل ما يحيط به على هذا النحو ؛ ويعير عقله وجنونه ، إرادته وهواه ، وكل ما يملك إلى الحيوان والنبات والعناصر والآلهة .

— ولـكيلا نبتعد كثيراً عن موضوعنا ، هكذا قالت شرلوت ، أفلا تود أن تخبرنى فى كلمات قلائل عما يقصد من « الأنساب » ؟

بكل ارتياح ، هكذا أجاب الـكابتن ، وقد كانت شرلوت وجهت إليـه الحديث . سأبذل غاية الوسع فى إيضاحه لك كما تعلمته منذ عشر سنوات ، وكما علمتنى الـكتب إياه . أما أن يكون هذا لا يزال رأى العلماء اليوم ، وهل يتفق مع الآراء الجديدة ، فهذا ما لا أستطيع أن أنبئك به .

فصاح إدورد : ما أخلقنا بالرثاء لأننا لا نستطيع التعلم مرة واحدة لمدى الحياة ! لقد كان أجدادنا يقتصرون على المعلومات التى كانوا يتلقونها فى شـبابهم ؛ أما نحن فيلزمنا أن نستأنف الدراسة والتعلم كل خمس سنوات ، إذا أردنا أن نـكون عصريين .

— أما نحن معشر النساء ، هكذا قالت شرلوت ، فلا نطمح إلى مثل هذه الغاية ، وأقول بصراحة إن كل رغبتى تقتصر على معرفة معنى هـذا اللفظ ، لأنه لا شىء أدعى إلى السخرية من استخدام لفظة أجنبية أو مصطلح بمعنى غير مدلوله الصحيح . لهـذا أود أن أعرف فقط بأى معنى يستخدم هذا التعبير فى هذه المناسبة . أما عن السياق العلمى الذى يستخدم فيه ، فهذا ما أدعه للعلمـاء الذين سيجدون دائماً عناء كبيرا فى التفاهم فيما بينهم ، كما تبين لى من ملاحظاتى .

— لـكن ، من أين نبدأ ، كيما نصل إلى المطلوب بسرعة ؟ هكذا قال إدورد للـكابتن بعد لحظة من الصمت . فأجاب الـكابتن بعد شىء من التردد :

— لو سمحتم لى بالبحث عنه بعيداً لوصلنا فى الواقع إلى الغرض بطريقة أسرع .

فقالت شرلوت : اعتمد على كامل انتباهى ! واطرحَتْ شغلها جانبا .

فقال الكابتن : لنلاحظ أولا أن كل الكائنات فى الطبيعة مما يقع تحت الحس لها جاذبيتها فى نفسها . وقد يبدو من الغريب أن يسمع المرء ما هو مفهوم بنفسه ؛ غير أنه لا يمكن الإنسانَ أن يتقدم لمعرفة المجهول إلا إذا اتفق على المعلوم .

فقاطعه إدورد قائلا : يبدو لى أننا نستطيع أن نوضح المسألة لشرلوت ولأنفسنا ، بواسطة الأمثلة . تأمل مثلا الماء أو الزيت أو الزئبق : فستجد فى أجزائها وحدة وتماسكا . وهذه الوحدة لا يمكن أحدَهما أن يتخلى عنها إلا بالقوة أو بأى شيء آخر يرغمها عليه . حتى إذا ما أُبْعد هذا التأثير ، اتحدت عناصرها فى الحال .

— أجل ، هكذا قالت شرلوت مؤمِّنة على كلامه ، إن قطرات المطر تتجمع على هيئة أنهار ؛ والزئبق ، ألم يكن إبان طفولتنا مصدراً للدهشة ، حينما كنا نفصل أجزائه على هيئة كريات ، ثم ندعه بعد هذا يتجمع ؟

فأضاف الكابتن : وهذا يسمح لى بأن ألفت النظر بهذه المناسبة إلى نقطة رئيسية ، هى أن الجاذبية الصافية كل الصفاء ، التى تسمح بها السيولة ؛ تظهر دائما على هيئة كروية . فالقطرة من الماء الساقطة مستديرة ؛ وأنت قد تحدثت عن كريات الزئبق ؛ بل إن الرصاص المنصهر المتساقط يصل إلى السطح على هيئة كرة ؛ إذا تيسر له الوقت الكافى .

فقالت شرلوت : دعنى أقود الحديث ، لعلى أصل إلى النقطة التى تبغى بلوغها . لما كان لكل كائن جاذبية نحو نفسه ، فيجب أن تكون له صلات أيضاً مع غيره .

فاستأنف إدورد بحرارة : ويجب أن تكون هذه الصلات مختلفة وفقاً لاختلاف الكائنات . فحيناً تتلاقى كأصدقاء قدماء ومعارف منذ زمان

طويل ، سرعان ما يتحدون ويختلطون ، دون أن يفسد الواحد طبيعة الآخر (كما يحدث للماء مع الخل) ، وحيناً آخر يُصرّ كل منهما على أن يظل غريباً عن الآخر وإن كان إلى جواره ، ولا يمكن أن يتحدا ، حتى بالاحتكاك وبمزيج آلى (كما هى حال الزيت والماء : فهما إذا مُزجا لايلبثان أن ينفصلا) .

فقالت شرلوت : لا يعوزنا شىء كيما نرى فى هذه الصور البسيطة النـاسَ الذين عرفناهم ؛ ولـكنها تذكرنا خصوصا بالجماعات التى عشنا بها . ومع هذا فلا شىء أشبه بهذه الـكائنات الجمادية من الطبقات الموجودة فى العالم : المراكز الاجتماعية ، المِـهَن ، النبالة والشعب ، الحربى والمدنى .

— ومع هذا — هكذا استأنف إدورد — فـكما أن هـذه الطبقات يمكن أن تتحد بواسطة الأخلاق والقوانين ، فإن فى عالمنا الـكيميائى وسائط أيضا لاتحاد ما ينفصل .

— فمثلا — هكذا قال الـكابتن — يمكن اتحاد الزيت مع المـاء بواسطة الملح القلوى .

فقالت شرلوت : لا تسرع كيما يكون فى مقدورى المتابعة . أفلم نبلغ الأنساب ؟

— فعلا ، يا سيدتى ، وها نحن أولاء بسبيل معرفتها بكل قوتها ودقتها . إن المواد التى إذا تقابلت اتحدت وامتزجت أجزاؤها بعضها ببعض ، يقال عنها إن بينها وبين بعض نسَبا . وهذا النَّسب مثير لـكثير من العجب فى القلويات والأحماض ، التى ، على الرغم من تعارضها المتبادل ، أو بالأحرى بسبب هـذا التعارض نفسه ، يسعى بعضها إلى بعض ويتحد بكل تماسك ، وتتعدل مكونة معاً جسما جديداً . ولنذكر على سبيل المثال

الجير الذى يميل جداً إلى الاتحاد بكل الأحماض ، وإلى الامتزاج التام بها . وحينما يكون لنا معمل كيماوى ، سنطلعك على كثير من التجارب المتنوعة الشائقة كل التشويق ، مما يعطيك عن هذه المسائل فكرة أدق مما تعطيه الألفاظ والمصطلحات .

فأجابت شرلوت : اسمح لى بأن أعترف لك بأنك إذا كنت تسمى نسبا العلاقة القائمة بين موادك هذه الغريبة ، فلست أرى فيها نسبا دمويا ، بل بالأحرى نسبا روحيا . وعلى هذا النحو يمكن أن تقوم بين الناس صداقات جدية حقا ، لأن الصفات المتعارضة تسمح بإيجاد اتحاد أتم . وإنى لمنتظرة ما ستطلعنى عليه من هذه التأثيرات المستسرّة . أما الآن — هكذا قالت موجهة الخطاب إلى إدورد — فلا أريد أن أستمر فى قطع قراءتك ؛ وهأنذا بعد أن علمت ما علمت أكثر إصغاء إليك وانتباها .

فأجاب إدورد : ما دمتِ قد استثرتينا ، فلن ندعك تتخلصين بهذه السهولة ، لأن أعقد المسائل أكثرها تشويقا . إذ بها وحدها يستطيع المرء أن يعلم درجات الأنساب ، وقريب الروابط وبعيدها ، وقويها وضعيفها : والأنساب لا تصير شائقة إلا حينما نقوم بالفَصل .

فصاحت شرلوت : ماذا ! أهذه الكلمة الحزينة التى يسمعها الإنسان ، ويا للأسف ! كثيراً هذه الأيام بين الناس ، أفتوجد أيضا فى التاريخ الطبيعى ؟

فأجاب إدورد : من غير شك : بل لقد كانت كلمة تفاخر محبوبة عند الكيميائيين أن ينعتوا أنفسهم بأنهم الفنانون الفاصلون .

فقالت شرلوت : أما اليوم فلم يعد يطلق عليهم هذا اللقب ، وحسناً فعل الناس . فالربط فن أكبر ، وله فضل أوفر . « فالفنان الرابط » سيكون فى كل مكان مرموق المكانة محبوباً لدى الجميع . لكن ما دمت

قد خُضْتَ فى هذا الشأن ، فلتذكر أمامى بعض الأمثلة والشواهد .

فقال الكابتن : إذن لنعُد إلى ما أسلفنا ذكره . إن حجر الجير أرض كلسية تتفاوت فى النقاء ، متحدة مع حامض لطيف نستطيع استحضاره على هيئة غاز . فإذا غمسنا قطعة من هذا الحجر فى حمض الكبريتيك المصبوب فى الماء ، فإن الحمض يتحد بالجير ويظهر على صورة جبس ، بينما الحمض الآخر ، الحمض اللطيف ، الهوائى ، ينبخر ويتطاير . فهنا حدث انفصال واتحاد جديد ، وللمرء الحق بعد هذا فى استخدام التعبير : نَسب مختار ، لأنه يبدو أن رابطة قد فُضلت على أخرى ، واختيرت دونها .

فقالت شرلوت : معذرة لى ، كما أنى أعذر العالم الطبيعى ؛ ليس فى وسعى مطلقا أن أرى فى هذا اختياراً ، بل أرى فيه بالأحرى ضرورة فزيائية ؛ وهذا ليس واضحا كل الوضوح ، إذ يمكن أن يكون هذا أثراً من آثار الصدفة وحدها والمناسبة . فالصدفة تصنع الروابط ، كما أنها تخلق اللصوص ؛ وإذا كان الأمر متصلا بمركباتك الطبيعية ، فيبدو لى أن الاختيار محصور فى يد الكيميائى ، الذى يجمع بين هذه الأجسام . لكنها إذا ما صارت معا ، فليكن الله فى عونها ! وفى هذا المثل الذى أمامنا ، لا أرثى إلا لحال الحمض الهوائى المسكين ، الذى أراه مضطراً إلى التحليق فى الفراغ .

فأجاب الكابتن : فى مقدوره أن يتحد بالماء ، وأن يفيد ، كينبوع معدنى ، فى تقوية المرضى والمُدنَفين .

فقالت شرلوت : للجبس أن يفعل ما يشاء ؛ فقد تقرر مصيره وصار جسما ، له كيانه ، أما هذا المنفىّ المسكين فيمكن أن يعانى بعدُ كثيرا من العلل والأمراض قبل أن يجد ملاذاً له آمنا .

فتبسم إدورد من قولها ضاحكا وقال : إما أن أكون مخدوعا أو يكون وراء ألفاظك سخرية رشيقة ! فهيا اعترفى بخبثك ! فأنا فى نظرك الجير الذى استولى عليه الكابتن باعتباره حمض الكبريتيك ، وسلبك إياه ، وأحاله إلى جبس نافر .

فأجابت شرلوت : إذا كان ضميرك يلهمك مثل هذه الخواطر ، ففى وسعى أن أعرى عن الخوف . فهذه التشبيهات جميلة مرفهة ، ومن ذا الذى لا يسره التلاعب بالنظائر والأشباه ؟ على أن الإنسان مع هـذا فوق هذه العناصر ؛ وإذا كان قد بدا هنا سخيا فى منح الألفاظ الجميلة مثل : اختيار وأنساب مختارة ، فمن الخير له أن يؤوب إلى رشده ، وأن يجيد وزن هذه الكلمات فى هذه المناسبة . فأنا أعلم ويا للحسرة ! كثيراً من الأحوال التى فيها قُضى على الارتباط الوثيق بين شخصين وثاقة تبدت أنها لا يمكن فصمها ، بواسطة ارتباطها عرضا بشخص ثالث ؛ وفيهـا رؤى أحد الكائنات المرتبطة بهذه الرابطة المحكمة قد استبعد وطُرد إلى نهاية الدنيا .

فقال إدورد : فى هذه الحالة إذن يكون الكيميائيون أكثر مهارة ورشاقة : فهم يدخلون حينئذ عنصراً رابعا ، كيما لا يبقى أحد منعزلا وحيداً .

فقال الكابتن : أجل ، من غير شك ؛ بل إن أشد الأحوال إثارة للدهشة والتشويق هى تلك التى يمكن أن يظهر فيها هذا التجاذب والنسب ، وهذا الترك وذلك الاتحاد ، بحسبانهما متقاطعين ، هى التى فيها أربع مواد كانت متحدة حتى الآن مثنى مثنى ، فلما صارت على اتصال تخلت عن اتحادها الأول ، وكونت اتحاداً جديداً . وفى هذا الترك والأخذ ، فى هذا الفرار والنشدان ، يخيل إلى المرء حقا أن ثمت مصيراً أعلى ؛ فيُعزى إلى هذه الكائنات نوع من الاختيار والإرادة ؛ ويرى المرء أن التعبير العلمى :

نسب مختار ، له ما يبرره كل التبرير .

— أتوسل إليك أن تصف لى حالة من هذا النوع !

فأجاب الكابتن : لا يمكن شرح هـذا بالألفاظ . فكما قلت لـكما ، حينما يكون فى مقدورى أن أجرى التجارب أمام عيونكما سيبدو كل شىء ألذ وأوضح . أما الآن فسأكون مضطراً إلى الإثقال عليكما بالمصطلحات العلمية المخيفة التى لا تعطيكم أية فكرة واضحة . إنمـا يجب على المرء أن يرى فعل هذه المواد وانفعالها أمام عينيه ، هذه المواد التى تبدو جمادية ، لـكنها مع هـذا متأهبة دائماً فى باطنها للعمل والنشاط ؛ ويجب أن نشاهد بتشويق كيف ينشد بعضها بعضا ، وكيف تتجاذب وتتماسك وتتفانى ويمتص أحدها الآخر ، ويقضى بعضها على بعض ، ثم تنتقل من أوثق اتحاد إلى صورة متجددة غير متوقَّعة : وحينئذ فقط تُعْزَى إليها حياة أبدية ، بل وحواسّ وعقل ، إذ نشعر بأن حواسنا لا تكاد تكفى لمشاهدتها بوضوح ، وأن عقلنا لا يكاد يقوى على فهمها .

فقال إدورد : أعترف بأن هذه التسميات الغريبة لابد أن تبدو متعبة ، بل ومضحكة فى نظر من ليس يألفها بواسـطة المحسوسات والأفكار العيانية . وإلى أن يحين هذا ، نستطيع أن نعبر بالحروف عن النسبة التى كنا بصدد الحديث عنها .

فأجاب الـكابتن : إذا كنت لا ترى فى هذا إذاً إفراطاً فى الحذلقة ، ففى وسعى أن ألخص رأيى بلغة العلامات والرموز . فتصور أن ا متحد بكل وثاقة مع ب ، دون أن تستطيع المحاولات العديدة والمجهودات المتكررة أن تفصلهما ؛ وتصور أن حـ متحد على نفس النحو مع ى ؛ فضع الآن الزوجين على اتصال : فإن ا سيذهب للارتباط مع ى ، و حـ مع ب ، دون أن يكون

فى وسع المرء أن يعرف من ذا الذى ترك الآخر أولا ، ومن ذا الذى اتحد أولا مع الآخر .

فقال إدورد بحماسة : إذن ! إلى أن يحين الوقت الذى نرى فيه هذا كله بعيوننا ، سنعتبر هـذه الصيغة مثلا يعطينا درساً لمنفعتنا العاجلة . فأنت ا ، أى شرلوتى ؛ وأنا ب بالنسبة إليك ؛ ذلك لأنه والحق يقال ، أنا متعلق بك وحدك أتبعك ، كما تتبع الباءُ الألفَ . و حـ هى من غير شك الـكابتن ، الذى يسلبنى منك على نحو ما فى هــذه اللحظة . والآن ، فلـكيلا تتطاير فى الهواء ، فمن العدل أن نحضر إليك ء ، ولا شك فى أنهــا هى الآنسة الصغيرة أوتيلى ، التى لا ينبغى لك أن تعارضى فى مجيئها بعدُ طويلا .

— حسناً جداً ، بهذا أجابت شرلوت ، وعلى الرغم من أن المثل لا يبدو لى أنه ينطبق تمام الانطباق على حالتنا ، فإنى أعتبر من السعادة أن نكون قد التقينا اليوم واتفقنا كل الاتفاق ، وأن تعجِّـل هذه الأنساب المختارة الطبيعية فى زيادة التفاهم وعمقه فيما بين كلينا . وهأنذا أعترف لك بأنى قطعت عزمى منذ هــذا اليوم على استحضار أوتيلى إلى جوارنا ، لأن قهرمانتى المخلصة ستفارقنى لأنها ستتزوج . وهذا ما يشوقنى فى هذا الأمر . أما ما يجعلنى أعزم هذا العزم لصالح أوتيلى ، فهذا ما ستقرأه علينا الآن . خذ هذه الرسائل . ولن أتبع قراءتك بعينىّ ؛ لـكنى أعلم مضمونها مقدماً . خذ واقرأ » .

وما قالت هذه الـكلمات حتى قدمت الرسائل إلى إدورد .

الفصل الخامس

رسالة ناظرة المدرسة

اغفرى لى ، سيدتى البارونة ، إن كنت سأقتصر اليوم على بضع كلمات أكتبها إليك . فبعد الانتهاء من الامتحان فيما علمناه تلميذاتنا فى العام الذى انقضى ، يخلق بى أن أبلغ النتائج إلى كل الآباء وأولياء الأمور . وقد تجاسرت على الإيجاز ، لأنى أستطيع أن أقول الكثير فى كلمات قصار . إن الآنسة ابنتك قد تبدت متفوقة فى كل ناحية بالشهادات المرفقة بهذا ، ورسالتها هى إليك ، وهى تتضمن تفاصيل الجوائز التى ظفرت بها ، كما تنطوى على الرضا الذى ألهمها إياه هذا النجاح الموفَّق ، كل هذا سيكون لك موضوع رضا واغتباط . أما الذى يقلل من سرورى ، فهو أننى أتوقع أن لا يكون فى وسعنا أن نحتفظ طويلا بتلميذة مجتهدة كل هذا الاجتهاد . وهأنذا ، سيدتى البارونة ، أستنهضُ إحسانك وأستميحك فى أن أبلغك عما قريب رأيى فى خير ما يجب أن تفعله الآنسة ابنتك . أما عن أوتيلى ، فسيتحدث إليك زميلى الكريم .

رسالة المعلّم

كلفتنى ناظرتنا المبجَّلة أن أكتب إليك عن أوتيلى ، إما لأنها ، وفقاً لوجهة نظرها ، تجد حرجاً فى كتابة التقرير الذى ينبغى أن يقدم إليك ، أو لأنها تفضل أن أقوم أنا بتقديم الاعتذارات وألوان الأسف التى يجب أن تحملها إليك .

وإنى لأعلم جيِّد العلم إلى أى مدى أوتيلى الطيبة قليلة القدرة على إظهار ما تعلم والكشف عن قيمة نفسها : ولهذا فإن الامتحان العام قد أثار فى نفسى الكثير من القلق ، خصوصاً أنه من المستحيل على وجه العموم الاستعداد له ؛ وحتى لو أمكن هذا لما شاءت أوتيلى أن تخوض فى هذه المظاهر الكاذبة . ثم أتت النتيجة مبررة لمخاوفى كل التبرير : فلم تحظ بأية جائزة ، بل كانت من بين التلميذات اللائى لم يظفرن بأية شهادة على الرضا والقبول . آه ، ماذا بقى أن أقوله بعد ؟ أما عن الخط ، فإن التلميذات الأخريات ، وإن كان خطهن ليس واضحاً كل هذا الوضوح ،كانت أيديهن أكثر خفة ورشاقة . وفى الحساب كن جميعا أسرع منها ، والمسائل الصعبة التى تحسن هى حلَّها ، لم توضع فى الامتحان . والفرنسية قد كشفت عن طلاقة الكثيرات . وفى التاريخ كانت تستذكر بصعوبة الأسماءَ والتواريخ ، وفى الجغرافيا كان من المؤسف أنها أهملت التقسيم السياسى . ولم يكن ثمت من الزمن ما يسمح بسماعها وهى تعزف مقطوعاتها النادرة البسيطة . أما عن الرسم ، فقد كان فى وسعها قطعا أن تنال الجائزة : فإن تخطيطها كان رائقاً والتبييض مليئا بالفهم والعناية ، غير أنها ويالِلأسف قد حاولت شيئا صعبا ، فلم تستطع إتمامه .

وحينما خرجت الطالبات ، عقد الممتحنون جلسة وسمحوا للمدرسين بإبداء ملاحظات : فرأيت فى التوّ أنه لم يُقَل شيء عن أوتيلى ، أو إذا تحدث عنها متحدث ، فإنما كان ذلك عرضاً أو على الأقل من غير اكتراث . فأملتُ أن أثير عطفهم عليها بإعطائى إياهم صورة صادقة عن طبيعتها وخلقها ، وحاولت هذا بحماسة خاصة ، أولاً لأننى كنت أستطيع أن أتحدث عنها مطمئن الضمير ، وثانياً لأننى كنت فى مثل حالها البائسة هذه أيام شبابى

الأول . فأرعوا أسماعهم إلىّ ؛ لـكنى حينما انتهيت من حديثى ، أجابنى الرئيس بلهجة وإن تـكن عاطفة فهى قاسية :

— الميول مفروضة مقدما . إنما الواجب هو أن تستحيل إلى ملـكات . فهذا هو موضوع كل تربية ؛ وتلك هى نية الأباء الصريحة ؛ والأولاد أنفسهم يسيرون نحو هـذه الغاية ، دون أن يعلموا ، أو لا يعلمون إلا علما ناقصا . وهذا أيضا هو موضوع كل امتحان ، حيث يُحْـكم فيه على الأساتذة والتلاميذ على السواء . وإن ما أخبرتنا به عن هذه الفتاة ليجعلنا نرجّى منها ، وإنك لتستحق المدح على اهتمامك بمراعاة مواهب الطلاب . فاعمل فى العام المقبل على أن تصير هـذه المواهب ملـكات ، ولن نبخل حينئذ بالثناء على الأستاذ ولا على التلميذ الذى يهتم به .

أسلمت أمرى للنتائج ، لـكن حدثت حادثة عنها أشد ألماً ، ولم أكُ أتوقعها . فإن ناظرتنا الطيبة التى لا تريد ، مثَـلها مَثَـل الراعى الصالح ، أن ترى إحدى النعاج تضلّ ، أو ، فى حالتنا هذه ، تظل بدون غذاء ، لم تستطع كتمان سخطها ، بعد ارتحال الممتحنين ، وقالت لأوتيلى ، وكانت متـكئة بهدوء عند النافذة ، بينما كانت صواحبها مغتبطات بالجوائز التى ظفرن بها :

— قولى لى بربك كيف يمكن المرء أن يتبدى غبياً كل هذا الغباء إذا لم يكن فى حقيقته كذلك .

— مغفرة ، أمى العزيزة ! فإن صداع رأسى قد انتابنى اليوم وبكل شدة .

— من يدرى ؟ » هكذا أجابت هذه السيدة التى من دأبها العطف . ثم مضت مُغْـضَبة . ومن الحق أنه لا يستطيع أن يعلم هـذا إنسان ، لأن أوتيلى لا تغـيّر من ملامحها ، ولم ألاحظ مطلقاً أنها حملت مرةً يدها إلى صُدْغها . ولم يكن هـذا كلّ شىء ، سيدتى البارونة . فإن الآنسة ابنتك ،

وهى التى ألِفَت الخفة والصراحة باستمرار ، قد استسلمت بكبرياء وازدهاء لعاطفة انتصارها . فكانت تجرى فى كل الغرف ، ومعها جوائزها وشهادتها ، وتلوّح بها وهى مارة أمام عيون أوتيلى ، صائحة فى وجهها :

— لقد أسأتِ قيادة عربتك اليوم !

فكانت أوتيلى تجيبها بكل هدوء : ليس هذا آخر يوم فى الامتحان .

— وماذا يعنى هذا ؟ ستظلين دائماً الأخيرة » ، بهذا ردت عليها الآنسة ابنتك ، ومضت متوائبة . وتبدت أوتيلى هادئة فى نظر الآخرين ؛ لكنى لم أنخدع بهذا المظهر . فإن انفعالاً باطناً ، حياً أليما ، تحاول إخفاءه ومناهضته ، تَبَدّى فى لون وجهها المتغيِّر بدرجة غير متساوية . فالخد الأيسر يصير أحمر حينا ، بينما الأيمن يشحب . ولاحظت هذا العَرَض ولم أستطع إخفاء تأثرى لحالها . فانتحيت مع ناظرتنا جانباً ، وحدثتها فى المسألة بجد . فاعترفت هذه المرأة الفاضلة بخطأها . وكان لنا حديث طويل ؛ ولن أطيل عليك ، ويكفينى أن أُنهى إليك ، أى سيدتى ، قرارنا ورجاءنا . فهل تتفضلين بدعوة أوتيلى إلى جوارك مدةً من الزمان . وإنك لتفهمين مقاصدنا خيراً من كل إنسان آخر . فإن عزمت على هذا فسأنبئك عن الطريقة التى ينبغى اتخاذها مع هذه الطفلة العزيزة . وحينما تغادرنا الآنسة ابنتك ، كما نتوقع قطعاً ، فسنرحب بعودة أوتيلى إلينا .

وملاحظة أخرى أخشى أن أنساها فيما بعد . لم أرها مطلقاً تطلب شيئاً أو تسترفد حاجة بإلحاح ؛ لكن تعرض أحوال ، نادرة مع هذا ، تحاول فيها رفض مايطلب إليها . وهى تفعل هذا بحركة لا يستطيع من يدركها ويفهم معناها أن يعترض سبيلها . فهى تسند كفاً مفتوحة إلى أخرى مفتوحة كذلك ، وترفعهما نحو السماء ، ثم تردهما من بعد إلى صدرها بانحنائة خفيفة ،

موجّهة إلى السائل الثقيل نظرة فيها من التعبير ما يجعله يعزف بارتياح عن كل ما كان سأله أو رجّاه . فإذا حدث ورأيتها ، سيدتى البارونة ، تؤدى هذه الحركة ، وهو ليس من المحتمل مع طرق سلوكك وإياها ، فاذكرينى وارحمى أوتيلى .

ولما قرأ إدورد هذا الخطاب لم يتمالك نفسه من الابتسام أحياناً وإنغاض رأسه مرارا ؛ كما لم يَنْسَ أن يلقى بخواطره عن الأشخاص المشاركين فى هذه المسألة وعن الأمر كله . وأخيراً صاح :

— كفى ! لقد قر القرار ، وستعود إلينا . وقد أخذنا أُهْبتنا فيما يتصل بك ، أى صديقتى العزيزة ، ولا نجد حرجاً الآن فى أن نفضى إليك بما اقترحناه . فقد صار ضربة لازبٍ أن أقيم فى الجناح الأيمن إلى جوار الكابتن . وإن الصباح والمساء لهما الوقتان الأنسبان للعمل معا . وهذا الاقتراح يسمح لكِ بأن تهيئى الأمر فيما بينك وبين أوتيلى على خير ما ترتضيان .

فوافقته شرلوت على كل شىء ، وأنشأ إدورد يصف حياتهم الجديدة ، وانتهى بأن صاح قائلا :

— فى الحق أنه من اللطيف أن تكون ابنة أختك مصابة ببعض الألم فى الرأس فى الجانب الأيسر ؛ فأنا أتألم أحياناً فى الجانب الأيمن : فإذا تلاقت نوبات ألمنا وكنا نجلس الواحد منا فى مواجهة الآخر ، هى مستندة إلى ذراعها الأيسر وأنا إلى ذراعى الأيمن ، ورءوسنا فى أيدينا ، وكلانا مائل جانباً ، فستتكون عن هذا المنظر صورتان جميلتان تتلاقيان !

فتوسم الكابتن فى هذا خطراً .

فقال إدورد له : فكّر فى أمرك ، يا صديقى العزيز ، وخذ حِذْرَك

من ء ! فماذا سيؤول إليه أمر الباء إذا سلبت منه الجيم ؟

فقالت شرلوت : يبدو لى أن هذا شىء بيّن بنفسه .

فقال إدورد بحرارة : بدون شك ستعود إلى أَلِفها ، التى هى أملها ومأواها !

وما قال هذه الكلمات حتى وثب فوق كرسيه وضم شرلوت بحرارة إلى قلبه .

الفصل السادس

وصلت العربة التى أقلَّت أوتيلى ، فاستقبلتها وحيتها شرلوت . فهُرِعت الطفلة العزيزة نحوها ، وترامت عند قدميها وعانقت ساقيها .

— لماذا تتصاغرين على هذا النحو ؟ هكذا قالت شرلوت فى شىء من الارتباك ، وهى تحاول النهوض بها .

— ليس هذا ذُلا ولا تصاغرا ، بهذا أجابت أوتيلى ، وهى باقية على وضعها : ولكن يلذ لى أن أذكر العهد الذى لم أكن أستطيع إن أرتفع فيه إلى ما فوق ركبتك والذى كنت فيه موقنة من حبك لى .

ثم نهضت وعانقتها شرلوت بحرارة . وقُدمت إلى البارون والكابتن ، وسرعان ما قوبلت بعطف خاص . فالجمال أينما حَلّ فى احتفال . وبدأت أوتيلى تتنبه إلى الحديث دون أن تشارك فيه . وفى الغد ، قال إدورد لشرلوت :

— هذه الفتاة تفيض عذوبة ورقة .

— تفيض عذوبة ورقة ؟ هكذا قالت شرلوت باسمة ، إنها لم تفه بكلمة بعد .

— حقا ؟ أجاب إدورد ، وكأنه يراجع ذكرياته . سيكون هذا غريباً ! .

وكان يكفى شرلوت أن تعطى يتيمتها بعض الإرشادات الخاصة بطريقة إدارة المنزل كيما تدرك فى الحال أو بالأحرى تحدس كل نظامه . وسرعان ما فطنت بيُسر إلى كل ما يجب عليها عمله نحو الكل ونحو كل فرد على حدة . فكانت تؤدى كل شىء بدقة وإحكام . وكانت تستطيع إعطاء الأوامر دون أن تبدو فى لهجة الآمر ، وإذا أهمل أحدٌ شيئاً ، فعلته بنفسها فى الحال .

وبعد أن حسبت مقدار ما بقى لها من الزمان لتقضيه بين ظهرانيهم ، سألت شرلوت السماحَ لها بتوزيع أوقاتها ، ومن ثم استخدمتها بكل دقة . وسرت فى عملها على المنهج الذى عرضه المعلّم لشرلوت . ثم تُركت وشأنها ، اللهم إلا أن البارونة كانت تسعى بين الحين والحين لإرهاف عزمها . فمثلا كانت أحياناً تضع فى يدها أقلاماً طال استعمالها ، كيما تيسر لها أن تكتب مَشْقاً . بَيْدَ أن أوتيلى سرعان ما كانت تشحذها ، كيما تصير أكثر قساوة .

وكان النسوة قد تعاهدن على التحدث بالفرنسية حينما يكنّ وحدهن ، وشرلوت ازداد حرصها على هذه العادة نظراً إلى زيادة قدرة بنت أختها على التحدث بهذه اللغة الأجنبية ، التى أوجبوا عليها التمرن بها ، وكانت حينئذ تقول أكثر مما كانت فى الظاهر تريد . وكان يلذ لشرلوت أن تستمع إليها أحياناً وهى تصف مدرستها الداخلية وصفاً إن يكن صادقاً فهو لا يخلو من الإحسان . ومن ثم صارت أوتيلى بالنسبة إلى شرلوت رفيقة عذبة ، وراق البارونة أن تجد فيها يوماً صديقة لها وفيّة .

وراحت تقرأ التقريرات القديمة التى كانت تكتب لها عن ابنتها ، كيما تستحضر فى ذاكرتها كل تلك الأحكام التى كانت ناظرة المدرسة والمعلّم

بصدرانها على هذه الطفلة العزيزة ، وتقارنها بما تراه من أحوال أوتيلى ؛ لأن شرلوت كانت ترى وجوب معرفة أخلاق الأشخاص الذين يضطر المرء للعيش معهم ، كيما يكون على بصيرة بالذى يمكن أن يصدر عنهم ، وما عسى أن يتيسر إصلاحه فيهم ، وماذا يجب على المرء أن يَعْجِف نفسه عنه منه ويطويه على غَرِّه .

بَيْد أن هذا الامتحان لأحوالها لم يزدها معرفة بها ، اللهم إلا أن كثيراً من الأشياء التى كانت تعلمها عنها تبدّت لها أكثر مثاراً للعجب والدهشة . فمثلاً كانت قناعة أوتيلى المفرطة مثاراً لقلق حقيقى لديها .

وكان أول موضوع عَنَى السيدتين هو الزينة . فاقتضت شرلوت من ابنة أختها أن تزيد فى التأنق فى هندامها . وسرعان ما كانت الفتاة الطيبة النشيطة تفصّل القماش الذى أُعْطِى لها من قبل بنفسها ، ومع قليل من المساعدة كانت تعرف كيف تلفّقها على قدها تماما . وهذه الفساتين التى خيطت وفقاً لأحدث الأزياء كانت تزيد من جمالها : لأن فتنة الشخص تنتشر على ملبسه ، ويخيل إلى المرء دائماً أنه أكثر جدة وحُسناً ، حينما تنتقل مفاتنه إلى ملابس جديدة .

وبهذا ، ولكى نسمى الأشياء بأسمائها الحقيقية ، كانت تزداد كلّ يوم فتنة وسحراً فى نظر البارون والكابتن ؛ لأنه إذا كان يؤثر أيضاً فى هذا الإحساس تأثيراً صحيحاً سليما ، فكذلك الجمال الإنسانى يؤثر بقوة أكبر كثيراً فى الإحساس الباطن والظاهر . ومن يتأمله لا يَمْسَسه ضُر ، ويشعر بأنه فى وفاق مع نفسه ومع الدنيا بأسرها .

فكأن جماعتهم إذن قد أفادت من وصول أوتيلى من أنحاء عدة . والصديقان المثابران أكثر من كلتيهما على حضور المجلس كانا يصلان دائماً

فى الميعاد المحدد ، ولم يكونا يتأخران مطلقاً عن وجبات الطعام أو الشاى أوالنزهة ، كما لم يكونا متعجلَيْن لمغادرة المائدة ، خصوصاً فى المساء . وأدركت شرلوت هذا تمام الإدراك ، ولم تكفّ عن ملاحظتهما كليهما ، محاولة أن تكتشف حدوث أى تغيير من جانب الواحد أكثر من الآخر ؛ لكنها لم تستطع أن تلاحظ أى اختلاف . وكلاهما كان يتبدى غالبا حسن المجاملة رقيق الحاشية . وفى أحاديثهما يتبديان كأنهما يركزان انتباههما من أجل تشويق أوتيلى ، ومسايرة معارفها ومستوى معلوماتها . وإذا قرآ أو قصّا ، كانا ينتظران عودتها لإكمال ما يقصان أو يقرآن . وهكذا صارت أحوالهم أكثر رقة وأيسر تبادلا واتصالا .

أما أوتيلى فقدصارت ، من ناحيتها ، أكثر حرصاً على المجاملة والمبادرة . وكلما ازدادت معرفتها بالقصر والأحياء والأشياء ، ازداد حرصها على العمل ، وفهمها للألفاظ وأنصاف الكلمات والإشارات والنظرات . وبقى انتباهها الهادئ مستوياً دائماً ، كما هو شأن نشاطها الرفيق . فكانت تُرى وهى تجلس أو تنهض أو تغدو أو تروح أو تخرج أو تدخل وتستعيد مكانها ، دون أن تتبدى على وجهها علائم القلق ؛ لقد كانت كتلة من النشاط المستمر والحركة التى لا تهدأ ومع هذا تسرّ ؛ أضف إلى هذا أن صوت وقع أقدامها لم يكن يُسْمع مطلقاً ، لأن سيرها كان خَطَراناً .

وهذا التلطف الجميل قد أشاع الكثير من السرور فى نفس شرلوت ، اللهم إلا أن ثمت شيئاً واحداً بدا لها خارجاً عن الحدود ، ولم تشأ أن تخفيه عن أوتيلى ، فقالت لها ذات يوم :

« من كريم الشمائل أن ينحنى المرء بسرعة لالتقاط ما هوى من يد الآخرين ، لأن هذا إعلان منه بأنه مستعد لخدمته ؛ لكن يجب علينا

فى المجتمع أن نأخذ حذرنا من هذا الذى نبين له عن هـذا التوقير . أما فيما يتصل بالنسوة ، فليست لدى قاعدة أريد أن أفرضها عليك . إنك شابة صغيرة : فنحو هؤلاء اللائى يَفقْنك فى المرتبة أو السنّ ، هذا واجب عليك أداؤه ؛ ونحو قريناتك هذا أدب ومجاملة ؛ ونحو الأصغر منك سناً وفى مرتبته ، هذا إحسان وإجمال وإنسانية ؛ لكن لا يخلق بامرأة أن تقدم لرجل مثل هذه الخدمات والتبجيلات » .

فأجابت أوتيلى : « سأبذل جهدى كيما أتخلص من هذه العادة التى أرجو أن تغفريها لى بما فيها من سوء ، حينما تسمعين منى كيفية اتخاذى لها . لقد علمونا التاريخ ، ولم أحفظ منه كما كان يجب ، لأنى لم أعرف ماذا عساه يفيدنى . لكن بعض حوادثه قد انتعشت بعمق فى ذاكرتى ، ومن بينها هذه :

حينما كان شارل الأول ، ملك انجلترا ، فى حضرة من ادّعوا أنهم قضاته ، سقطت العقافة الذهبية للعصا التى كانت فى يده . ولما كان قد اعتاد ، فى مثل هذه الأحوال ، أن يرى الناس متلهفين لخدمته ، بدا كأنه يلقى نظرة حواليْه ، منتظراً ، هذه المرة أيضاً ، أن يقدم له واحد من الحاضرين هذه الخدمة البسيطة . لكن أحداً لم يتحرك ؛ فانحنى بنفسه لالتقاطها . ولست أدرى هل كان فى هذا مصيبا . لكن هذا قد أثر فى نفسى إلى حد أنى منذ ذلك الحين لا أستطيع أن أرى إنسانا يسقط منه شىء ، دون أن أنحنى لالتقاطه . لكن لما كان هذا غير ملائم فى كل الأحوال ، ولما كنت لا يسعنى أن أقص هـذه القصة فى كل مرة ، هكذا تابعت حديثها باسمةً ، فسأعمل ما وسعنى كيما أملك نفسى فى المستقبل » .

وفى تلك الأثناء كان الصديقان يعملان بجد ومثابرة فى المنشئات الجديدة

التى شعرا بأن عليهما أن يقيماها . وفى كل حين كانا يجدان فرصة جديدة للتفكير فى مشروع أو تنفيذه .

وذات يوم كانا يخترقان القرية سوياً فلاحظا مع الأسف أنها بعيدة كل البعد — من ناحية النظام والنظافة — عن تلك القرى الجميلة الموقع مما يضطر أهليها إلى رعاية أنفسهم من مختلف النواحى .

قال الكابتن : « إنك لتذكر أننا حينما كنا نزور سويسرة ، عبرنا عن الأمل فى تجميل بستان ريفى ، بأن نقيم فى قرية ، مكانها كهذه ، لا العمارة ، لكن النظام والنظافة المتوفرين فى القرى السويسرية التى لها فى الاستقلال مزايا عدة » .

فأجاب إدورد : إن هذا ميسور التحقيق هنا مثلا . فالرابية التى تحمل قصرى تهبّط وتنتهى بزاوية بارزة ؛ والقمرية قد بنيت قبالته ، على هيئة نصف دائرة منتظم بعض الانتظام ؛ وبينهما يجرى النهر ، الذى يُحتمى من أمواهه الكبيرة على أنحاء عدة : فهذا يريد الاحتماء بالحجارة ، والثانى بالخوازيق ، والثالث بجذوع الأشجار ، وجاره بالألواح الخشبية ؛ لكن لا يعين أحدُهما الآخر ؛ بل يُضِرُّ كل منهما بنفسه وبجيرانه . والطريق هو الآخر سيء التعبيد : فحينا يصاعد ، وأخرى ينحدر ؛ وهنا يمر خلال النهر ، وهناك من فوق الصخور . ولو شاء الناس أن يبذلوا شيئاً من الجَهد ، فلن يكلفهم إلا القليل كيما يبنوا هنا سورا نصف دائرى ، وأن يصعدوا ، من هناك ، بالطريق حتى المنازل ، وأن يستفيدوا من المكان ، ويجعلوا النظافة تسود ، وبعنشئة كبيرة يلغون كل هذه الاحتياطات البسيطة غير الكافية .

فقال الكابتن : فلنقم بتجربة ، بأن نقيس بالنظر ونحكم على الحالة .

فأجابه إدورد : لا يسرنى الاشتغال مع رجال الطبقة الوسطى والفلاحين ، إلا إذا كانت لدى أوامر صريحة واضحة ألقيها إليهم .

— لك الحق : فكثير من الأعمال التى من هذا النوع قد أحدثت لى فى حياتى كثيراً من المتاعب الكبيرة . وإنه لمن العسير على الناس أن يحسنوا تقدير ما يجب عليهم التضحية به طمعاً فى الحصول على الفائدة التى يرجونها ! وأن يريدوا الغاية ولا يحتقروا الوسائل المؤدية إلى تحقيقها ! إن كثيرا من الناس ليخلطون حتى بين الغاية والوسيلة : فيتعلقون بالواحد ، دون أن يلتفتوا إلى الآخر . ويود الإنسان دائما أن يكافح الشر أينما ظهر ، لكنه لا يُعْنى مطلقاً بالنقطة التى ابتدأ منها ، وعنها يصدر تأثيره . وتلك هى العلة فى صعوبة التفاهم ، خصوصا مع الجمهور ، الذى يحسن تقدير المسائل اليومية الحاضرة ، لكنه نادرا ما يمتد ببصره إلى ما وراء الغد . وإذا حدث أيضا أن كان الواحد كاسباً والآخر خاسراً فى إقامة المنشئة العامة ، فمن المستحيل تماماً عمل شىء عن طيب خاطر واتفاق . لهذا فإن كل عمل ذى منفعة عامة لابد له من معونة قوة السلطان غير المحدودة .

وبينما كانا يتوقفان ويتناقشان على هذا النحو ، أتاهما رجل يدل مظهره على القحة أكثر مما يدل على الفقر ، وسألهما صدَقة . فغضب إدورد من إقلاقه وقطع الحديث عليه ، فانتهره ، بعد أن حاول رده بلطف مراراً ، لكن عبثاً ؛ غير أنه لما كان هذا الرجل العجيب قد ابتعد بخطوات متثاقلة ، وهو يدمدم ويهمهم ؛ ولما كان قد تبجح بحقوق السائل ، الذى يمكن رده ، لكن لا يجب انتهاره ، لأنه كغيره من الناس فى حمى الله والسلطان — فقد عيل صبر إدورد . فقال له الكابتن ملاطفا :

— لنتخذ من هذه الحادثة نصيحة لنا بأن نمتد بإدارتنا وإشرافنا

الريفى حتى إلى مثل هذه المسائل . فيجب التصدق على المحرومين ، لكن لا يجب أن يقوم بها صاحبها بنفسه ، خصوصاً فى منزله . إنما من الواجب استعمال المدالة والاطراد فى كل شىء حتى فى الإحسان . فإن صدقة زائدة تغرى بزيادة السائلين بدلاً من التخلص منهم . ومن ناحية أخرى ، حينما يكون المرء فى سفر ماراً بسرعة فإنه يلذ له أن يتبدى للفقير فى الطريق على هيئة إلـهة الحظ ، وأن يلـقِىَ إليه بصدقة غير منتظَـرة . وإن موقع القرية والقصر ليجعل مثل هذا الوضع ميسورا : وهذا شىء طالما فكرت فيه من قبل . فعند إحدى نهايات القرية يقوم النُّـزُل ؛ وفى الأخرى تقيم أسرة أبناؤها طيبون : فلنضع فى كل من هذين المـكانين مقداراً صغيراً من المال . وسيعطى لا للداخل ، بل للخارج من القرية ، ولما كان البيتان على حافة الطرق المؤدية إلى القصر فإن جميع من يريدون سلوكها يتجهون إلى هذين المـكانين .

— تعال ، هكذا قال إدورد ، ولننفذ هذا حالا ؛ ومن بعد فلننظر إن شئنا فى التفاصيل .

وذهبا إلى صاحب النُّـزُل ، وعند الأسرة الهرمة ، ونفذا ما أرادا .

فقال إدورد للـكابتن (وهو يصعد معه إلى القصر) : إنى أرى جيداً أن كل شىء فى العـالم يتوقف على فـكرة صائبة وعزيمة راسخة . وهكذا أصبت فى الحكم على الأعمال التى أجرتها زوجتى فى البستان ، وألهمتنى أفكاراً أفضل، سرعان ما أفضيت بها إليها . أقول هذا كى لا أخفى عليك أمراً .

— لقد وقع هذا فى خَلَـدى ، لـكنى لا أرافقُـك على ما فعلت . لقد أوقعت فى نفسها الاضطراب ، فتركت كل شىء معلّـقا ، وفى هذه المسألة أثيرت حفيظتها ضدنا ، لأنهـا تتجنب الحديث عنها ، ولم تعد تقودنا إلى

كوخ الطحلب ، على الرغم من صعودها إليه مع أوتيلى حينما تختليان .

— لكن لا نجعل هذا سبباً لانبتات حبل الرجاء ، هكذا أجاب إدرود . فحينما أقتنع بأن شيئا ما صواب ، وأنه ممكن ، بل يجب ، فعله ، فإنى لا أرتاح حتى أراه قد نُفِّذ وتم . وإنى لأترجَّى أن يكون فى وسعنا الوصول إلى بغيتنا برفق . ولنتخذ على سبيل التسلية فى المساء كموضوع لحديثنا الموائد الإنجليزية ، ووضعها مرفقةً بالصور المحفورة ؛ ثم نتبع هذا بعرض مشروعك الخاص بتنظيم الضيعة ، ولنتناول أولاً الأمر على هيئة مسألة للحل ولمجرد التسلية ، وسرعان ما تصير أمراً جِدّيا » .

وبعد أن أفاضوا قِداح الرأى على هذا النحو ، فتحوا الكتب التى يُرى فيها تخطيط المنطقة ومنظرها الريفى ، فى حالته الطبيعية الفطرية الوحشية ؛ وفى أوراق أخرى التغييرات التى استحدثتها الصناعة لاستثمار الفوائد القائمة بها . ومن هنا كان من السهل عليهما أن يعرجا على ضيعتهما الخاصة والبقاع المجاورة لها وما يمكن إحداثه من تزويق فيها وتجميل .

وكان مشغلة شائقة أن يتخذ مشروع الكابتن أساساً للبحث . لكن لم يكن فى الوسع التخلص نهائيا من الأفكار الأولى التى اتبعتها شرلوت حتى الآن فى أعمالها . غير أنهم استطاعوا إيجاد وسيلة لبلوغ الرابية عن طريق مطلع أيسر ، ورغبوا فى إقامة صُفَّة للترويح فى أعلى على المنحدر ، قُبالة خميلة جميلة ، صُفّة يلزمها أن تكون على اتصال بالقصر ، ويمكن رؤيتها من خلال نوافذ هذا البناء ، ومن الصُّفة يتنزه النظر فى القصر والبساتين .

والكابتن ، بعد أن أفكر فى كل شىء وقدره ، طرح على البحث طريق القرية والسور المصاقب للنهر ، والأتربة المخصصة للردم . . . وتابع حديثه قائلا :

— ببناء طريق معبد يؤدى إلى أعلى ، يمكننا أن نظفر بما نحتاج إليه من الأحجار لبناء السور . وإذا ما مُزج مشروع بآخر نفذ كلاهما بطريقة أسرع وأقل نفقات .

— هاك ما يعنيني ؛ هكذا قالت شرلوت : يجب قطعاً تقديم شيء ثابت وحينما نعرف كم سيتكلف هذا العمل ، سنجزىء المبلغ على أشهر ، إن لم يكن على أسابيع . وسأكون أنا أمينة الصندوق ، فأدفع المطلوبات ، وأنظم الحسابات .

— يبدو أنك لا تثقين فينا كثيراً ، هكذا قال إدورد .

— كلا ، لا أثق فيكم فيما يتصل بالمسائل الخيالية . فنحن أقدر منكم على إحكامها .

وأعدوا الترتيبات اللازمة ؛ وبدأت الأعمال بهمة ، وكان الكابتن يُسهر لها قلبه ويرعاها باستمرار ، واستطاعت شرلوت ، كل يوم تقريباً ، أن تتحقق من صدق نظراته وحكمته . وهو بدوره قد ازداد معرفة بشرلوت ، وصار من الميسور لهما أن يعملا سويا ويصلا إلى غاية فيها فائدة .

إن مَثل الأعمال مَثل الرقص : فالأشخاص الذين يخطون خطوة واحدة يجب أن يعتمد كل منهما على الآخر ؛ ويجب أن ينشأ عن هذا بالضرورة إحسان متبادل ؛ والشاهد الصادق على أن شرلوت منذ أن عرفته حق معرفته أضمرت لضيفها الخير حقاً ، هو أنها تركته ، بكل هدوء وبلا أدنى تململ ، يهدم مستراحاً جميلا عنيت هى باختياره خاصة وزينته فى أعمالها الأولى ، وقد كان لا يتفق مع مشروع الكابتن .

الفصل السابع

ولما كانت شرلوت قد وجدت مع صديق المنزل شاغلا مشتركا ، فقد حدث عن هذا أن ازداد تقرب إدورد من أوتيلي . وهذا قد شعر فعلا منذ حين بميل سرى رقيق . ولقد كانت أوتيلي بارعة المجاملة رقيقة حواشى الطبع لينة المهْتَصر بالنسبة إلى الجميع ، لكن غرور إدورد خَيل إليه أنها أكثر مجاملة له منها للآخرين . والشيء الذى لا شك فيه هو أنها لاحظت بدقة أى ألوان الطعام آثر عنده وكيف يتشهاها ؛ ولم يَفُتها أن تراعى ما يتناوله من السكر للشاى ، ومثل هذه اللوازم ؛ وسهرت بعناية ظاهرة على حمايته من تيارات الهواء ، وقد كان إدورد يتأثر بها بدرجة مفرطة ، مما أفضى أحياناً إلى منازعات مع زوجته ، لأنها لم تكن تجد مطلقاً الغرف مُهوَّاة تهوية كافية . ثم امتدت عناية أوتيلي إلى المَغْرِس والمَبْقَلة ، وسعت لاستباق رغبات البارون واستبقاء ما عسى أن يحدث له قلقا ومللا ، إلى درجة أنها صارت بعد حين قليل ملاكا حارسا له وحفيظا ، ولم يعد فى وسعه الاستبعاد عنها ، وأضحى يستشعر الألم من غيبتها . أضف إلى هذا أنها كانت تبدو أكثر تفتحا وصراحة حينما يختليان .

وبرغم تقادم السنين فقد احتفظ إدورد بشيء من مظاهر الطفولة يتفق تماما وشباب أوتيلي . ولذ لهما أن يعيدا ذكر الأزمنة الأولى التى التقيا فيها ، وكانت هذه الذكريات تعود إلى العهد الأول لغراميات إدورد مع شرلوت . وزعمت أوتيلي أنها لا تزال تحتفظ بذكرى هذين العاشقين ، بحسبانهما أجمل زوج من العشاق فى البلاط ، ولما كان البارون لم يشأ الاعتقاد بأنها لا تزال تحتفظ بهذه الذكريات التى ترجع إلى طفولتها الأولى ، فقد

أكدت هي أنها تذكر جيداً حادثة بعينها : هى أنها ، وقد دخل يوما ، قد أخفت رأسها فى حِضْن شرلوت ، لا خوفا ، بل تحت تأثير المفاجأة الطفولية ، وكان فى استطاعتها أن تضيف : لأنه أحدث فى نفسها تأثيراً حيا ، ولأنه راقها كثيراً .

ونظرا إلى الوضع الجديد الذى وجدا فيه ، ترك الصديقان كثيراً من الأعمال معلقا ، وهى الأعمال التى عالجاها سويا ، إلى درجة أنهما وجدا من الضرورى استعراضها ، وتخطيط بعض المذكرات ، وكتابة جملة من الرسائل . فعادا إذاً إلى مكتبهما ، حيث وجدا الناسخ العجوز عاطلا من العمل . فأنشآ يعملان ، وسرعان ما أمداه بالعمل ، دون أن يلاحظا أنهما قد استراحا من كثير من الأشياء التى اعتادا من قبل أن يقوما بها بأنفسهما . غير أن الكابتن لم يستطع إتمام أولى مذكراته ، كما لم يقدر إدورد على الانتهاء من رسالته الأولى : إذ عانيا صَعَدا حينا فى التفكير والتحرير . وأخيرا سأل إدورد ، وقد كان أكثرهما انحراف مزاج : كم الوقت .

لكن حدث أنه للمرة الأولى منذ عدة سنوات نسى الكابتن ملء ساعته ذات الثوانى ، وتبينا ، أو على الأقل استشعرا أن سير الزمان بدأ يصبح بالنسبة إليهما شيئا لا يكاد يعنيهم .

وبينما بدأ نشاط الرجلين فى الفتور ، ازداد نشاط السيدتين . والواقع أن مسار الحياة المعتاد فى الأسرة ، كما ينتج عن الأشخاص الذين يكونونها وعن الملابسات الضرورية التى تحيط بها ، يمكن بذاته أن يسمح بوجود ميل غير عادى أو عاطفة ناشئة ؛ ولعل زمنا طويلا بدرجة كبيرة سيمر قبل أن يموت العنصر الجديد الذى أدخل فى الأنبوبة اختمارا ظاهراً ، وينتشر فوق الحافة على شكل موجات من الرغوة والزَّبَد .

ولقد ولّدت الميول المتبادلة التى نشأت بين أصدقائنا هؤلاء أجمل أثر : فقد تفتّحت القلوب ، وفاضت عاطفة إحسان شاملة من عاطفة إحسان خاصة ، وشعر كل زوج بأنه سعيد ، وسر بسعادة الآخر .

ومثل هذا الموقف خليق بالسمو بالروح والارتفاع بالقلب ، فيصير كل مايفعله الإنسان وكل ما ينجزه ذا نزوع إلى اللانهائى . فلم يعد هؤلاء الأصدقاء مغلقين بعد فى مساكنهم ؛ وامتدت نزهاتهم إلى مسافات بعيدة ؛ وبينما كان إدورد يحث الخطى إلى الأمام مع أوتيلى لاختيار الطرق التى يسلكونها والتقدم أمام ركبهم ، كان الكابتن برفقة شرلوت يقتفى آثار هذين الكشافين ؛ وساروا يتجاذبون بينهم أحاديث جِدّية ، ويعمنون النظر فى أماكن اكتشفت حديثا ، وفى آفاق لم تكن متوقعة ولا منتظرة .

وذات يوم غادروا القصر من باب الجناح الأيمن ، وهبطوا ناحية النُّزُل ، وعبروا الجسْر ثم يمموا نزهتهم صوب المستنقعات وساروا فى محاذاة شواطئها إلى أبعد ما تعود الناس أن يتابعوا به الماء ، حينما يكون الساحل قد كف عن أن يكون معبّداً ، إذ سُد برابية ذات أدغال ، ومن بعيد تعترضه الصخور .

وعلى الرغم من هذا فإن إدورد الذى خبر من قبل إبان رحلاته للقَنْص طبيعة المنطقة المجاورة قد أوغل فى المسير ، وفى صحبته أوتيلى ، خلال طريق تعوقه الأشواك ، وهو يعلم جيداً أن الطاحونة القديمة ، المغمورة فى الصخور لا يمكن أن تبعد عن مكانه كثيرا . لكن هذا الطريق ، الذى لم يلجه كثيرون ، سرعان ما تبدد رسمه وامّحت معالمه ، فَضلاً فى الغابة الكثيفة ، بين الصخور المغطاة بالطحلب . لكن ضلالهم لم يستمرّ طويلاً ، لأن ضجة العجلات سرعان ما أنبأتهما بأنهما بالقرب

من المكان الذى ينشدانه .

ولما تقدما على صخرة بارزة ، أبصرا أمامهما ، فى الوادى ، البيت الخشبى العتيق ، تعلوه سمرة وجمال ، وتظلله صخور وعرة وأشجار باسقة . واستقر عزمهما بجسارة على الهبوط من فوق الطحلب والصخور المتكسرة ، وفى طليعتهما إدورد . فلما عاد ببصره إلى الأعالى ورأى أوتيلى تتبعه بخطوات خفيفة دون ما وجل ولا اضطراب ، وفى اتزان بلغ غاية الرشاقة ، خُيل إليه كأن كائنا سماوياً يحلّق من فوقه . وحينما كانت فى بعض الأحيان فى المواضع الوعرة تقبض على اليد التى يمدها إليها ، أو تستند فعلاً إلى كتفه ، لم يكن يقوى على كتمان أن هـذه التى تمسه إنما هى امرأة ، امرأة رقيقة عذبة ، حتى كانت تخالجه أمنية أن يراها تتهاوى وتنزلق ، كيما يتيسر له أن يمسك بها بين ذراعيه ؛ وأن يضمها إلى قلبه . لكنه لم يكن ليفعل هذا على أية حال ، لأكثر من سبب : فقد كان يخشى إهانتها وجرح شعورها .

كيف نفسر هذا ؟ هذا ما نقص عليك نبأه الآن . فإنهما حينما بلغا الوادى ، وجلس إدورد فى مواجهة أوتيلى ، يتفيآن ظلال الأشجار السامقة حول منضدة ريفية ، ثم طلب من الطحانة المهذبة أن تبحث عن لبن ، ومن زوجها المرح أن يستبق إلى استقبال شرلوت والكابتن ، أنشأ إدورد يقول ، فى شىء من التردد :

« عندى رجاء إليك ، يا عزيزتى أوتيلى ؛ واضربى عنه صفحاً جميلا ، إن لم يَرُقْك . إنك لا تكتمين (ولست فى حاجة إلى هذا الكتمان) أنك تحملين تحت ثيابك وفوق صدرك صورة أبيك ، هذا الرجل الكريم الذى لم تكادى ترينه وتعرفينه ، ويستحق من كل وجهٍ مكانة فى قلبك خاصة . لكن اغفرى لى أن أقول لك إن هذه الصورة كبيرة بدرجة مفرطة ، وهذا

المدن وذلك الزجاج يثيران فى نفسى مختلف ألوان القلق ، حينما تأخذين طفلاً بين يديك ، وحينما تحملين شيئاً أمامك ، أو تترجح العربة ، أو تجوس خلال الغابة ، ومنذ قليل ، حينما كنت تهبطين الصخر . فإن نفسى لتمتلىء قشعريرة لفكرة أن صدمة مفاجئة ، أو هبوطاً ، أو ضغطاً يمكن أن يؤدى إلى جلب الشر عليك . فبحق صداقتى لك إلا خلعت هذه الصورة ، لا من ذاكرتك ، ولا من غرفتك — بل بالعكس : أحلّيها خير مكان وأقدس موضع فى مخدعك — لكن أبعدى عن صدرك شيئاً يجعلنى الخوفُ — المبالَغ فيه ، ربما — أحكم بأن قربه خطر عليك» .

وكانت أوتيلى تستمع له فى صمت وبعينين منكسرتين ؛ وإذا بها ، دون عجلة ولا تردد ، تفصل بصرها عن الأرض وترفعه قليلا إلى السماء ، ثم تفتح السلسلة ، وتجذب الصورة من صدرها ، وتضغطها على جبينها وتقدمها إلى صديقها قائلة :

«احتفظ بها حتى نبلغ القصر . وليس لدى خيرا من هذا شاهدٌ على مقدار تقديرى لقلقك الصادر عن خالص الود والصداقة » .

لكن إدورد لم يجسر على ضم الصورة إلى شفتيه ، بل أخذ كف أوتيلى وضمها إلى عينيه . ولعل هاتين اليدين كانتا أجمل يدين تصافحتا وتضاغطتا . فأحس بأن قلبه قد انزاح عنه عبء فادح ، وبأنه يرى الحاجز الذى كان يفصله عن أوتيلى قد زال .

أما شرلوت والكابتن فقد اقتادهما الطحّان خلال طريق أكثر تعبيداً ، وازداد السرور باللقاء ، وتناولوا بعض المنعشات . ولم يشاءوا العود من نفس الطريق ، فاقترح إدورد اتخاذ طريق من الصخر ، على العُدْوة الأخرى من الجدول ، فإذا صعدوه بشىء من الجهد ، وجدوا أنفسهم فى

مواجهة المستنقعات . ثم اخترقوا كثيرا من الخمائل ، وتبدت أمام نواظرهم فى الريف المنبسط قرى ودساكرُ وضياعٌ ، تحيط بها البرارى الخصبة الخضراء ؛ وبالقرب منها تجلت فى إحدى المزارع فوق الأعالى وسط الغابة خَلْوة هادئة . ولكن ثراء الإقليم تكشَّف عن خلف وعن أمام ، بكل جماله ، فوق الرابية التى بلغوها عن طريق منحدرٍ رقيق ؛ ومن هنا بلغوا أيكة بديعة ، وعند المخرج صارا إلى صخرة فى مواجهة القصر .

كان سرورهم فياضاً حينما وصلوا هذا المكان على نحو يكاد أن يكون غير متوقع . لقد داروا حول عالم صغير ، وتلبَّثوا ملياً عند المكان الذى سيقام عليه البناء الجديد ، ووجدوا أنفسهم أمام القصر .

ثم هبطوا إلى الكوخ الطلحبى ، ولأول مرة جلس فيه الأربعة المتنزهون . وطبيعى أن يتفق إجماعهم على التعبير عن الرغبة فى رؤية الطريق ، الذى سلكوه فى ذلك اليوم ببطء وفى شيء من المشقة ، مرسوماً ومعبَّداً على نحو يهيىء لجماعة أن تشقه بيُسْر وسهولة . وأدلى كل منهم باقتراحه ، وقدروا أنه لو كان الطريق الذى كلفهم ساعات طوالا للسير قد عبِّد جيدا ، لكلَّفهم ساعة واحدة للعودة إلى القصر . واقترح أحدهم إنشاء جَسْر تحت الطاحونة فى الموضع الذى يصب فيه الجدول فى المستنقعات من شأنه أن يَقْصر من المسافة وأن يزيد فى جمال المنظر — غير أن شرلوت وقفت قليلا من تحليق هذا الخيال المبتدِع ، مشيرة إلى ما يتكلفه مثل هذا المشروع من نفقات .

فأجاب إدورد : « عندى طريقة جيدة . فهذه الضيعة القائمة فى الغابة ، التى تبدو جميلة الموقع ولكنها لا تُغِلُّ إلا القليل ، يجب أن نبيعها ، وأن نخصص المال الناتج لمثل هذه التجميلات . وعلى هذا النحو ، تدفع لنا

المُتَنَزَّهات الثمينة بملاذها العذبة فوائد رأس مال أجيد استغلاله ، بينما نحن اليوم لا نحصل بعد الجهد إلا على دخل تافه فى نهاية العام ، بعد تصفية حسابها » .

فلم يكن لشرلوت ، وهى المدبِّرة الأريبة ، أن تقيم كبير اعتراض على هذا الرأى ؛ بل المسألة كانت من قبل موضع نظرهم . فاقترح الكابتن توزيع الأرض بين الفلاحين القاطنين فى الغابة ؛ لكن إدورد فضل وسيلة أنجع وأيسر ، هى أن تعطى للمستأجر الحالى ، وكان قد تقدم بهذا العرض من قبل ؛ وأن يدفع على أقساط ؛ وكذلك تنجز الأعمال المقترحة على دَفعات .

ومثل هذا التدبير الحكيم المستحصف كان خليقا أن يظفر بموافقة الجميع دون أدنى تحفظ . وهاهم الأصدقاء أولاء يرون بعين خيالهم الطرقات الجديدة مخطَّطة ، ويرجون الكشف عن آفاق جديدة ومواقع بديعة ، إن فى المنطقة المجاورة أو على طول المجرى .

ولكى تتضح التفاصيل ، نشروا فى المساء أمامهم المشروع الجديد ؛ ودرسوا الطريق الذى سلكوه ، وما يمكن إدخاله عليه من إصلاحات فى بعض المواضع ، ثم عكفوا على المشروعات القديمة يناقشونها ويمزُجون بينها وبين الآراء الجديدة ؛ ووافقوا فوراً على مكان البناء الجديد ، فى مواجهة القصر ، حيث تنتهى إليه الطرقات عند امتدادها .

وخلال هذه المناقشة كلها ، اعتصمت أوتيلى بالصمت ، وأخيراً وضع إدورد أمامها التصميم ، بعد أن كان موضوعاً أمام شرلوت حتى ذلك الحين ، ودعاها فى الآن نفسه إلى إبداء رأيها . فلما ترددت قليلا فى الإجابة ، ألحّ عليها بلطف فى الكلام ، وقد كان باب الاختيار لا يزال مفتوحا ، إذ لم يتقرر بعد شىء .

فقالت ، وهى تضع إصبعها على أعلى نجْـدٍ فى الرابية : « ها هنا أرى أن يبنى المنزل . أجل ، لن يكون فى الوسع رؤية القصر ، إذ تحجبه الغابة ، لـكن سيجد المرء نفسه كأنه فى عالم جديد غريب لأن القرية وجميع المساكن ستختفى معاً . وإن المنظر على المستنقعات والطاحونة والروابى والجبال والإقليم ليفيض فتنة وسحرا بدرجه خارقة : إذ لاحظت هذا وأنا مارة » .

فصاح إدورد : « الرأى ما رأته ! كيف لم تخطر ببالنا هذه الفكرة ؟ انظرى ، أوتيلى ، أليس هـذا رأيك ؟ » ثم أخذ قلماً ورسم بطريقة مكبرة مستطيلا طويلا فى أعلى الرابية . فأدمى هذا قلبَ الـكابتن : إذ أسف على تشويه هـذا التصميم الذى رسمه بغاية العناية والدقة والنظافة ؛ ومع هـذا فقد كتم انفعاله ، بعد أن عبر عن سخطه بلطف . وقال : « إن أوتيلى على حق . أولا نقوم برحلة طويلة لتناول القهوة ، أو أكل سمكة لا نجدها بمثل هذه الشهية فى منزلنا ؟ إن الإنسان لينشد التنويع والجِـدّة فى الأشياء . ولقد أصاب أجدادك حينما شيدوا القصر هنا ، لأنه فى مأمن من الرياح ، وفى متناوله كلُّ الأشياء الضرورية للحياة ؛ ولـكن البناء الذى يعدُّ للحفلات والنزهات أولى منه للسكنى يمكن أن يقام خير إقامة فى هذا المكان العالى ، ويستطيع المرء أن يقضى فيه أجمل الساعات إبان الطقس البديع » .

وكلما تحدثوا فى هذا المشروع ، ازداد ظهور منافعه . ولم يقو إدورد على كتمان إعجابه بأن تـكون صاحبة هذه الفـكرة هى أوتيلى ، حتى إنه زُهى بها وكأنها فـكرته الخاصة .

الفصل الثامن

وفى اليوم التالى ، زار الكابتن المكان منذ الصباح الباكر وبدأ بأن خط تخطيطا خفيفا . ولما قر عزمهم جميعاً على تنفيذ ما رأوه وهم يشاهدون المكان عينه ، رسم تصميما دقيقا ، مصحوبا بالتقديرات اللازمة ، ولم ينقص شيء من أجل الإعدادات الضرورية . وسرعان ما تناولوا مسألة بيع الضيعة . وهكذا وجد الصديقان ميداناً للنشاط جديداً .

ونبه الكابتنُ إدوردَ إلى أن الأدب ، بل الواجب يقضى بالاحتفال بعيد ميلاد شرلوت عن طريق وضع الحجر التأسيسى . ولم يكن من العسير تحويل إدورد عن كراهيته القديمة لمثل هذه الأعياد ، لأنه اقترح فجأةً الاحتفال بعيد ميلاد أوتيلى — وموعده يأتى بعد — بطريقة جليلة لا تقل روعة .

أما شرلوت ، وقد تبدت لها المنشئات الجديدة ونتائجها خطيرة ، جدية ، بل ومثيرة للمخاوف والقلق ، فقد شُغِلت بمراجعة التصميمات وحساب الوقت وتقدير النفقات ؛ وقل اللقاء أثناء النهار ، وازداد الحرص على اللقاء فى المساء .

وفى هذه الأثناء كانت أوتيلى قد وضعت بين يديها كل شئون المنزل ؛ وهل كان ينتظر غير هذا ، مع مسلكها هذا الهادىء الرزين ؟ لقد دفعت بها طبيعتها إلى المشاغل المنزلية ، أولى منها إلى المسائل الدنيوية العامة والحياة الخارجية . وسرعان ما لاحظ إدورد أنها لم تكن تصاحبهم فى النزهة إلا من باب المجاملة وحدها ، وأنها لم تكن تطيل معهم السهر فى الهواء الطلق إلا أداء لواجبها نحو هذه الجماعة ؛ وأنها كانت أحياناً تعتذر بشئون المنزل ،

كيما تعود إليه . لهذا نظم النزُهات المشتركة على نحو يجعلهم يعودون إلى القصر قبل مغيب الشمس . كما أنه استأنف عادته التى انقطع عنها منذ زمان طويل ، وهى أن يقرأ لأصدقائه قصائد من الشعر ، خصوصاً تلك التى تعبر عن حب طاهر ، ولكنه مشبوب .

وصار من عادتهم أن يختلفوا فى المساء إلى منضدة صغيرة يأخذ كل منهم مكانه حولها بانتظام : فكانت شرلوت تجلس على الأريكة ، وقُبالتها أوتيلى جالسة على كرسى ذى مساند ، بينما يأخذ الرجلان مكانهما فى الجانبين الآخرين ، فكان إدورد يجلس وعن يمينه أوتيلى ، وإذا بدأ القراءة كان يضع النور إلى ناحيتها . وحينئذ كانت تتقدم للنظر فى الكتاب ، لأنها هى الأخرى تثق فى عيونها أكثر من ثقتها فى شفاه الآخرين . وكان البارون من ناحيته يتقدم إليها كيما ييسر لها هذا الأمر . وفى أحيان كثيرة كان يقف وقفات أطول مما يجب ، كيلا يقلب الصفحة قبل أن تكون قد وصلت إلى نهايتها .

ولحظت شرلوت والكابتن هذه المسألة بوضوح ، وكانا أحيانا يتبادلان النظرات باسمَين ؛ ولكنهما دهشا من شاهد آخر تبين فيه عرَضا ميل أوتيلى الخفى . فقد حدث ذات يوم أن أضاعت زيارة ثقيلة جزءاً من المساء على هذه الجماعة الصغيرة ، فاقترح إدورد على أصدقائه أن يظل سامرهم قائما . إذ شعر بميل إلى استئناف العزف على نايه ، الذى هجره منذ زمن طويل . فبحثت شرلوت عن السوناتات التى اعتادت وزوجها أن يعزفاها سويا ؛ غير أنها لم تجدها ؛ وبعد قليل من التردد ، اعترفت أوتيلى بأنها حملتها إلى مخدعها .

– إذن تستطيعين وتودين أن تصاحبينى فى العزف ؟ هكذا قال إدورد ، وفى عينيه وميض السرور .

فأجابت : أحسب أن هذا ممكن .

وراحت تبحث عن الموسيقى وجلست إلى ذات المفاتيح (الـكلافسان) ؛ وأرعى السامعون أسماعَـهم وأعجبوا ببراعة أوتيلي في دراسة القطع الموسيقيَّـة ، وازدادوا إعجاباً بمهارتها في مصاحبة إدورد في العزف : ولا يكفي أن نقول « المهارة في المصاحبة » ، فهذا ليس التعبير الدقيق ، لأنه إذا كان مفهوماً من شرلوت ، بما لها من براعة ومحاولة للإرضاء ، أن تقف هنا ، وتسرع هناك ، حرصاً على إرضاء زوجها الذي كان يُبْـطيء في الميزان (الموسيقى) حينا ، ويسرع حينا آخر — فإن أوتيلي ، التي استمعت أحيانا إلى عزف السوناتات ، بدت كأنها تعلمتها على النحو الذي يصاحبها به إدورد ؛ حتى لقد بلغ من معرفتها بعيوبه أنه نشأ عن هـذا نوع من العزف مليء بالحياة ، لم يكن يسير حقاً وفقاً لقواعد الميزان الموسـيقي ، ولـكنه كان يحدث في الأذن وقعاً عذباً جـذابا ، ويلذ الملحِّـن نفسه أن يسمع مؤلَّـفه مشوهاً على هذا النحو البديع .

أما شرلوت والـكابتن فقد شاهدا في صمتٍ هذا المنظر الغريب ، غير المتوقَّـع ، يخالجهما شعور كشعور الإنسان حينما يرى الأطفال يعملون أشياء لا يقرهم عليها ، نظراً لنتائجها المثيرة للذعر ، ولـكنه لا يستطيع مع هذا أن يلومهم عليها ، بل يحدث أحيانا أن يحسدهم عليها . فالواقع أن الميل المتبادل فيما بين شرلوت والـكابتن كان هو الآخر يسيرُ قُدماً ، بل لعله أن يكون على نحو أدعى إلى الخطر ، لأنهما كانا أكثر جدًّا وأشد ثقة بأنفسهما ، وأقدر على كتمان عواطفهما .

وها هو ذا الـكابتن قد بدأ يشعر بأن عادة لا يستطيع مقاومتها تهدده بأن سيكون أسيراً لشرلوت . فعزم على أن يتجنب الأوقات التي اعتادت فيها

أن تزور المزروعات ، فكان يستيقظ فى الصباح الباكر ، ويعطى الأوامر خاصةً بكل شىء ، ثم يعود إلى العمل فى مسكنه بالجناح الأيمن . وخيِّل إلى البارونة فى الأيام الأولى أن هـذا من قبيل المصادفة ، فكانت تبحث عنه فى كل مظان وجوده ؛ وأخيراً فهمت السر فى المسألة ، وقدرت موقفه كما قدرته خير تقدير .

لكن حرصه على تجنب الخلوة مع شرلوت لم يمنعه من زيادة الاهتمام والإسراع بإنجاز المعدات اللازمة للعيد الرائع الذى سيحتفل بميلادها ، وقد قرب موعده . ففى نفس الوقت الذى عجَّل فيه ببناء الطريق الممتد خلف القرية صاعداً ، كان يأمر بالعمل نازلاً ، بحجة استغلال الحجر ؛ وهيأ كل شىء وقدره بحيث يتم وصل جزئى الطريق فى آخر ليلة . وكان حفر الأساس للمنزل الجديد لايزال فى مستهلَّه ، إنما نحتوا حجراً أساسياً جميلا ؛ وحفروا مربّعة وهيأوا البلاط الذى سيغطيه .

ولم يكن من شأن هذا النشاط الخارجى ، وهـذه النوايا الطيبة المستسرة ، وهذه العواطف الحبيسة ، لم يكن من شأن هذا كله أن يجعل الحديث شائقاً حاراً حينما يلتئم عقد الجماعة ، إلى درجة أن إدورد ، وقد شعر ذات مساء بشىء من الفراغ ، أوزعَ الكابتن بتناول كمانه ومصاحبة شرلوت على البيان ذى المفاتيح . فلم يقو صديقهما على مقاومة هذه الرغبة العامة ، فعزفا سويا — فى عاطفة وسهولة وحرية — قطعة من أصعب القطع ، سُرا بها هما والاثنان المستمعان إليهما أيّما سرور . فتواعدوا على العود إلى العزف مراراً وعلى زيادة المران سويا .

وهنا قال إدورد لأوتيلى : « إنهما يعزفان خيراً منا ، فلنعجب بهما ، لكن لنعرف أيضاً كيف نجد اللذة سويا » .

الفصل التاسع

وافى يوم الميلاد ، وكل شيء على أتم استعداد : أولا السور المتاخم لطريق القرية الرافع له ، على طول النهر ، ثم الطريق المار بجوار الكنيسة الذى يساير جنباً المسلك الذى رسمته شرلوت ، ويتعرج على سفح الصخور ، تاركا — أولا عن يسار — كوخ الطحلب من فوقه ، ثم — بعد دورة — يتركه مرة أخرى عن يسار ، لكن من تحته ، إلى أن يبلغ أخيراً قمة الرابية على درجات .

فاحتفل حشد كبير ، ما لبث أن ذهب إلى الكنيسة ، حيث كان جميع القرويين مجتمعين بملابس العيد . وبعد الحفل الدينى ، خرج الأطفال والشبان والرجال أول من خرج ، وفقاً للنظام الموضوع ؛ وتلاهم سادة القصر ومعهم أصدقاؤهم وحاشيتهم ؛ وقفّى على أثرهم الفتيات والأخوات الكبريات فالسيدات فكُنّ خاتمة الموكب .

وفى منعطف الطريق هُيِّيء مكان مُشرف على الصخرة ، دعا الكابتن إليه البارونة والضيوف كيما ينالوا قسطهم من الراحة . ومن هنا كانوا يستشرفون إلى كل الطريق ، ويرون الرجال واصلين إلى أعلى ، والنساء قادمات فى إثرهم ، وها هن الآن يمرُرن أمام الجماعة . وكان الجو رائعاً ، والمنظر فاتنا خلابا . فتأثرت شرلوت وملكتها الدهشة ، فضغطت برفق على يد الكابتن وحنان . وتبعوا الجماعة وهى تتقدم برفق مكوّنة دائرة حول مكان المنزل المقبل . ودُعى المالك وأسرته والممتازون من الضيوف إلى النزول حتى المحفور ، حيث تهيّأ الحجر الأساسى ، وقد أُسْنِد من جانب ، للوضع . وقام البنّاء مرتدياً ثوب العيد وممسكا المالج بيده والمطرقة بأخرى ،

وألقى خطاباً بالشعر بديعاً ، لا نستطيع أن نورده نثراً إلا بطريقة ناقصة .

قال : « هناك ثلاثة أشياء تراعى فى كل بناء : أن يكون جيد الموضع ، جيد الأساس ، جيد الصنع . والأول من شأن المالك : فكما أن الأمير والرعية هم المسئولون عن تعيين المكان الذى سيبنى فيه فى المدينة ، فإن من حق المالك فى الريف أن يقول : هنا سيقام مسكنى ، لا فى أى مكان آخر » .

فلم يستطع ادورد وأوتيلى أن يتبادلا النظرات لدى سماعهم هذه الكلمات ، على الرغم من أنهما كانا قريبين والواحد فى مواجهة الآخر .

« والمسألة الثالثة ، أى إنجاز البناء ، هى مهمة كثير من الصنائع بل قليل منها فقط هو الذى لا يساهم فيها . أما المسألة الثانية ، وهى التأسيس ، فهى من اختصاص البَنَّاء ، وفى وسعى أن أقول بكل جرأة وصراحة إنها أهم شىء فى العملية كلها . إنها لمهمة جدية خطيرة ، وإن دعوتنا أيضاً لخطيرة : لأن هذا الاحتفال يقام فى الأعماق . فهنا وفى داخل هذا المحفور ، أنتم تشرفوننا بحضوركم شهوداً على عملنا المستسرّ . وها نحن أولاء سنضع هذا الحجر الجيد النحت ، وعما قليل لن يكون فى الوسع النفوذ إلى هذه الحفر التى تلمع فيها الآن شخصيات محترمة رائعة : لأنها ستكون قد مُلِئت .

« وهذا الحجر الأساسى الذى يشير بزاويته إلى الزاوية اليمنى من البناء ؛ وبقطْعه المنتظم يشير إلى انتظامه ، وبأوجهه العمودية والأفقية إلى عموديته ومستوى جميع جدرانه ، وكل حواجزه — هذا الحجر نستطيع أن نرقده ببساطة كما هو ، لأن ثِقْله كفيل بتثبيته ؛ لكننا هنا أيضاً فى حاجة إلى الجير والملاط : فكما أن الناس ذوى الميل المتبادل بالطبيعة يصيرون أعظم اتحاداً حينما يربطهم القانون ، فإن الأحجار التى تَلاؤم أشكالها تزداد تماسكا بفضل هذه القوى الرابطة ؛ ونظراً إلى أنه من غير اللائق أن يكون

المرء متمطلا وسط العاملين ، فإنكم لن تجدوا غضاضة فى العمل هنا وإيانا » .

وما تفوه بهذه الكلمات حتى قدم مالجه إلى شرلوت ، فوضعت جيراً تحت الحجر . ودعى الكثيرون إلى عمل المِثل ، وسرعان ما أُرقد الحجر ؛ ثم قُدم المِدَقّ إلى شرلوت وإلى بقية الحاضرين ، ليدشّنوا علانا ، وهم يقرعون ثلاث ضربات ، اتحـاد الحجر بالأرض .

وتابع الخطيب حديثه فقال : « إن عمل البناء الذى يُعمل الآن فى وضح النهار ، إنما يتم من أجل السر ، إن لم يكن فى السر . فالآساس المنتظمة البناء تُدفن فى الأعماق ، ولا يرى الناس الجدران التى تقام فوق الأرض حتى ينتهى بهم الأمر إلى نسياننا نحن . أما أعمال نحاتى الأحجار والنحات الفنى فأكثر استرعاء للعيون ؛ بل يجب علينا أن نرضى بأن يزيل الرسام كل آثار أيدينا ، وينسب إلى نفسه عملنا بواسطة جصه وطلائه وألوانه .

« فمن أجدر من البنّاء بالحرص على إجادة عمله بدافع من نفسه ؟ ومن ذا يفوقه فى الظفر بأول حاثٍّ له فى مرْضاة ضميره ؟ فحينما يكتمل المنزل ، ويوضع البلاط وخشب التجليد ، ويُوشّى الخارج بالنقوش والزينات — تنفذ عينه إلى ما وراء هذه الأغلفة كلها ، متبيّنة هذه الروابط المنتظمة المحكمة التركيب ، التى يدين لها البناء كله بوجوده وصلابته .

« لكن ، كما أن من يقترف إثماً لا بد أن يخاف عليه أن يظهر ، رغم ما يبذل من محاولات ، — كذلك من يفعل الخير سرّاً يجب أن يتوقع إفشاءه رغم إرادته . لهذا فنحن نريد أن يكون هذا الحجر الأساسى حجراً أثرياً ، فيوضع فى هذه الفُرَض وهذه التجاويف كثير من الأشياء ، كشواهد قائمة أمام الأجيال القادمة . فهذه الأسطوانات المعدنية الملتحمة تحتوى مختلف الكتابات ؛ وعلى هذه الصفائح المعدنية نقشت أعمال باهرة ؛ وفى هذه

القوارير الزجاجية سندفن خمر معتقة ممتازة ، مع بيان عمرها ؛ بل لا يعوزنا حتى النقود التي ضربت في هذا العام . وكل هذا إنما ندين به لسخاء المالك ؛ غير أنه لا يزال ثمت مكان لمن يشاء من الأصدقاء أو الحاضرين أن يُنفِذ شيئاً إلى مُقبل الأجيال » .

وبعد لحظة من الصمت قصيرة ، نفض البنَّاء المكان بعينيه ونظر حواليه : لكن أحداً لم يكن مستعداً ، كما يحدث عادة في مثل هذه الأحوال ؛ فقد رَبِكَ كلٌّ في أمره ؛ وأخيراً قام ضابط شاب مَرِح خطيباً فقال :

« إذا كان من واجبي أن أقدم نصيبي فأضع في هذا الكنز شيئاً لا يوجد فيه ، فهأنذا سأقتص من زِيي الرسمي زوجاً من الأزرار ، يستحق أيضاً أن يُنفَذ إلى الأجيال المقبلة » .

وما تفوه بهذه العبارة حتى اقتلعهما ، واحتذى حذوه الكثيرون . فأسرع النسوة بوضع الأمشاط الصغيرة التي تمسك شعورهن ، وقناني العطر وبعض أدوات الزينة . وأوتيلي وحدها هي التي ترددت : ولكن كلمة ودية من إدورد انتزعتها من تأمل جميع القرابين التي تنافسوا في تقديمها ، فخلعت من رقبتها السلسلة الذهبية التي كانت تحمل صورة أبيها ، ووضعتها بخفة فوق بقية الحَلي . هنالك أمر إدورد ، في شيء من اللهفة ، بوضع الغطاء محكماً وإلحامه بالمِلاط في الحال .

ثم استأنف الشاب الذي أظهر في هذه العملية أوفر النشاط موقفه الخطابي وتابع قائلا :

« هانحن أولا نضع هذا الحجر للأبد ، كيما نمكّن لأصحاب هذا المنزل الحاليين والمقبلين في أطول لذة وسعادة . لكن في الوقت الذي تدفن فيه أيدينا نوعاً من الكنز ، نحن نفكر ، بمناسبة هذا العمل المنقطع النظير في

متانته ورسوخه ، فى زوال الأمور الإنسانية وفنائها ؛ فنؤمن بأن هذا الغطاء المحكم الوضع ربما يرفع يوماً ما — وهو أمر لا يمكن أن يتحقق إلا بعد تهدم البناء كله ، هذا البناء الذى لم نشيِّده بعد .

« لكن يجب علينا من أجل بنائه أن نتجنَّب التفكير فى المستقبل ، ولنَعدْ إلى الحاضر ! فعلينا ، بعد انقضاء عيد هذا اليوم ، أن نسرع فى إتمام عملنا هذا ، كيلا تضطر أية صناعة تعمل فى الأساس الذى أقمناه إلى التوقف ؛ وليرتفعْ البناء عاليا وليمتهِ سريعاً ؛ وفى استطاعة صاحبه وأسرته وضيوفه أن يتأملوا من خلال نوافذه الإقليم المحيط بحبور وسرور . وعلى صحتهم وصحة جميع الحاضرين أشرب هذا الكأس الدِّهاق ! »

وما نطق بهذه الكلمات حتى أفرغ بشربة واحدة كأساً من الزجاج جميلة الصقل ، وقذف بها فى الهواء : إذ من علامات السرور المفرط كسر الزجاج الذى استخدم فى الحفل . لكن حدث فى هذه المرة عكس هذا : فإن الكأس لم يسقط على الأرض ، ولم يكن هذا أمراً خارقا أو معجزة .

ذلك إن التعجيل بالبناء قد اقتضى إتمام الآساس فى الزاوية المقابلة ؛ بل بدأوا فعلا فى رفع الجدران ، وإقامة الصقالات إلى العلو المطلوب . ثم وضعت فوقها الألواح ، بمناسبة هذا الاحتفال ، وسمح لكثير من المشاهدين أن يصعدوا عليها ، وكان هذا لصالح الفَعَلة . وإلى هذه الناحية قُذِف الكأس ، فتلقاه أحد الحاضرين ، الذى رأى فى هذا الحادث فألا حسناً لنفسه . فأطلع من حوله على الكأس ، دون أن يخرجه من يده ، فلاحظوا أن قد نقش عليه الحرفان E و O [1] متعانقين بأناقة . وقد كان هذا

(١) الأول هو الحرف الأولى من اسم إدورد ، والثانى هو الحرف الأول من اسم أوتيلى .

الكأس أحد الكؤوس التى عُملت لإدورد فى شبابه .

ثم جلا الجمع عن الصقالات ، وتلاهم أنشط الحاضرين فصعدوها كيما يتملوا بما تبديه من مناظر . وكم راعهم جمال ما تراءى أمامهم فى كل ناحية ! فكم من صور فاتنة تجتليها العيون من مرتبة شاهقة ، حينما تصعد على أقل مصعاد ! ففى داخل الإقليم ، تبدى كثير من القرى الجديدة ؛ وتلألأت بوضوح أخاديد النهر الفضية ؛ بل ادعى أحدهم أنه استطاع أن يميز نواقيس العاصمة . وإذا رجع المرء ببصره كرة ، رأى من بعيد خلف الروابى ذات الغابات ، القمم الزرقاء لسلسلة من الجبال ، واستنفض كل المناطق المجاورة .

وهنالك قال أحد الحاضرين : « لم يبق إلا أن تضم الغدران الثلاثة فى بحيرة واحدة ، هنالك لن يعوز هذا المنظر شىء من جمال أو جلال » .

فأجاب الكابتن : « هذا عمل ميسور ، لأن هذه الغدران نفسها كانت تكوّن من قبل بحيرة فى الجبل » .

فقال إدورد : « كل ما أطلبه هو أن تعفوا أشجار الدُّلب والحور ذات المنظر الرائع على شاطىء الغدير الأوسط : تأملى — هكذا قال موجِّهاً الخطاب إلى أوتيلى بعد أن دعاها إلى التقدم نحوه خطوات : تلك الأشجار هناك أنا نفسى الذى غرستها بيدى » .

فسألته أوتيلى : « منذ كم من السنين غرستها هناك ؟ »

فأجاب إدورد : « منذ أن أتيتِ إلى الدنيا ، فيما أظن . أجل ، أى طفلتى العزيزة ، لقد غرستها وأنت لا تزالين فى المهد . »

ثم عادت الجماعة إلى القصر . وبعد الغذاء دعيت إلى نزهة فى القرية ، لزيارة المؤسسات الجديدة التى أقيمت هناك . وبدعوة من الكابتن ، احتشد

السكان أمام بيوتهم ، لا على هيئة صفوف لـكن على هيئة أُسر ، بعضها عا كف على أعمال المساء ، والآخر يستريح على مقاعد جديدة . وهي قد فرض عليها هـذا الواجب الجميل ، واجب تجديد هذا النظام البديع وتلك الأناقة ، على الأقل كلّ يوم أحد وكل عيد .

ومن شأن الائتناس العـذب الذى من نوع ما نشأ بين أصـدقائنا هؤلاء ، أن تقطع عليه مجراه الجماعة الحافلة ، فيتولد إحساس بالضيق . لهذا شعروا بسرور فياض حينما اختلوا من جديد هم الأربعة فى البهو الـكبير . لـكن هذا الشعور الهادىء عكرت صفوه رسالة جاءت تعلن لإدورد حضور ضيوف جديدين فى الغد . فقال لشرلوت : لقد توقعنا هذا ؛ فإن الـكونت لم يشأ الانتظار ، لهذا سيأتى غداً » .

فقالت شرلوت : « إذن البارونة ليست بعيدة » .

— كلا ، من غير شك : فهى الأخرى ستحضر غداً . وقد استضافونا لمدة ليلة ، واقترحوا الرحيل سوياً بعد غد .

— أوتيلى ، هكذا قالت شرلوت ، لنعجل بإعداد اللازم .

— فسألتها أوتيلى : بماذا تأمرين ؟

وبعد أن تلقت منها بعض الإشارات العامة ، ابتعدت . وهنا طلب الكابتن بعض الإيضاحات عن العلاقات بين هذين الشخصين لأنه لم تكن لديه عنها إلا فكرة غامضة . فكلاهما كان متزوجاً ، ومع هذا فقد اشتعل كل منهما غراما بالآخر ، غراماً متبادلا اضطرب له علناً بيتا الزوجية . ففكر كلاهما فى الطلاق . لـكن كان هذا ممكناً بالنسبة إلى البارونة ، ولم يكن بالنسبة إلى الـكونت . وعلى الرغم من قطع علاقاتهما فى الظاهر ، فقد بقيت الألفة بينهما ؛ وإذا كانا فى الشتاء لا يستطيعان الظهور معاً فى

البلاط ، فقد كانا يجدان العوض عن هذا فى الصيف فى الرحلات والمياه . وكانا كلاهما أكبر سناً من إدورد وشرلوت ؛ ولكنهم كانوا جميعاً الأربعة أصدقاء خُلَصاء منذ التقائهم فى البلاط ، واستمرت هذه الملاقات الطيبة ، على الرغم من أن كلا منهما لم يرض عن كل أحوال الآخر . أما هذه المرة فقد كان وصولهما ثقيلا على قلب شرلوت ، ولو حاولت هى أن تفهم السر فى هذا لأدركت أن هذا بسبب وجود ابنة أختها لديها . فهذه الطفلة الطيبة البريئة يجب أن لا ترى فى سنها المبكرة هذا المَثل بعيونها .

« كانا يُحسنان صنعاً لو حضروا بعد يومين أو ثلاثة ، هكذا قال إدورد ، فى الوقت الذى عاد فيه إلى البهو ، بعد أن نكون قد انتهينا من بيع الأرض المُستأجرَة . فصورة العقد قد حُضِّرت ، ومعى نسخة منها ، غير أنى فى حاجة إلى نسخة ثانية وكاتبى العجوز مريض الآن » .

فأظهر الكابتن استعداده للقيام بهذا العمل ؛ وكذلك شرلوت . لكن ثمت ما يحول دون تكليفها القيام به .

قالت شرلوت : لن تقوى على إنجازه .

فقال إدورد : الحق أننى فى حاجة إلى هذه النسخة بعد غد صباحاً ، والعمل كثير متراكم .

وهنا قالت أوتيلى : « ستتم » ، وكانت الورقة فى يدها فعلا .

وفى اليوم التالى كانوا يتطلعون من الطابق العلوى عسى أن يكون ضيفاهم قد وصلا ، لأنهم لم يشاءوا التخلف عن الذهاب إلى لُقياهم ، فقال إدورد : « من هذا الفارس الذى أبصره قادماً ببطء على الطريق ؟ » فوصف الكابتن وجهه بطريقة أدق . فتابع إدورد حديثه قائلا : « إنه هو إذاً ! لأن التفاصيل التى تميزها أنت خيراً منى ، تتفق تماماً مع المظهر

العـام الذى أراه بوضوح الآن . إنه مِتلر . لـكن لمـاذا يسير راكبا جواده ببطء هكذا ؟ »

وتقدم الفارس ، وقد كان مِتلر حقاً . فتقدموا لاستقباله بحرارة ، وهو يصعد درجات السلم بخطى هادئة .

« لمـاذا لم تحضر بالأمس ؟ هكذا قال له إدورد

— فأجاب : لا تروقنى الأعياد الصاخبة ؛ ولـكنى أتيت اليوم لـكى أحتفل بعيد ميلاد صديقتى ، احتفل به بعد انقضائه وبلا ضوضاء .

— وكيف يتيسر لك كل هذا الفراغ ؟ هكذا قال البارون .

— إذا كانت لزيارتى إياكم قيمة ما ، فأنتم تدينون بها لخاطرٍ طرأ علىّ بالأمس . فقد أمضيت نصف النهار متمتعاً من أعماق فؤادى فى منزل أعَدْتُ فيه السلام ، ثم علمنا من بعد أن القوم يحتفلون هنا بعيد ميلاد البارونة . فقلت لنفسى : « قد تُتهمين بالأثرة ، إذا لم تشاءى التمتع إلى جانب هؤلاء الذين دعوتهم إلى السلام والصلح . فلماذا لا تشاركين أيضاً فى سرور الأصدقاء الذين ينعمون فعلاً بالسلام ويسهرون على حفظه ؟ » وما قلتُ حتى فعلت . وهأنذا بينكم كما قررتُ .

فقالت شرلوت : « لو أتيت بالأمس لرأيت جمعاً حافلاً ؛ أما اليوم فلن ترى إلا جماعة صغيرة : سترى الـكونت والبارونة اللذين شغلاك من قبل كثيراً .

فوثب مِتْلر فجأة ، غاضباً ، من بين مضيفيه الذين أحاطوا بهذا الرجل الغريب ، المطلوب فى كل مكان . وعدا ليأخذ قبعته وسوْطه .

« أيطاردنى سوء الطالع إذاً فى كل مرة أحاول فيها أن أستريح وأرفه عن نفسى ؟ لـكن لماذا أخرج عن طبعى ؟ كان علىّ ألا أحضر ، والآن

لا بد من مغادرة هذا المكان ، لأنى لا أريد أن أسكن تحت نفس السقف الذى يقيم تحته هذان وأنتم بدوركم خذوا حِذركم : فهما لا يجلبان معهما إلا الشر . إذ طبيعتهما كالخميرة التى تنقل الاختمار » .

وحاولوا تسكين ثائرته ؛ لكن عبثاً .

ثم صاح : « إن هذا الذى أراه يهاجم الزواج ، ويزعزع ، بأقواله أو فعاله ، هذا الأساسَ الثابت لكل جماعة معنوية ، لى معه حساب . وإذا لم أستطع أن أردَّه إلى الصواب ، فلن أقبل مشاركته فى شىء . الزواج هو مبدأ كل حضارة وتاجها الذى يزينها . إنه يرقق حاشية الإنسان المتوحش ، والمتحضّر لا يجد خيراً منه وسيلة لإظهار تهذُّبه . ولا بد للزواج أن يكون ثابتاً لا تقبل عقدته أى حل ، لأنه يحقق من السعادة قدراً يتضاءل إلى جواره كل شقاء ، فيرجحه . بل أين هو هذا الشقاء ؟ إنه الضجر هو الذى يستولى على الإنسان حينا بعد حين ، فيلذُّ له حينئذ أن يرى نفسه شقيا . فليدع المرء هذه اللحظة تمر ، وسيرى نفسه سعيداً لأن ما استمر طويلا لا يزال مستمرا . الافتراق بالطلاق ؟ ليس لهذا مطلقاً علة كافية . إن حال الإنسان فى الدنيا مليئة بالآلام والملذات إلى درجة أنه ليس فى الوسع مطلقاً تقدير ما يدين به كل من الزوجين للآخر . أجل ، إنه دين لا نهاية لمقداره ، ولا يمكن سداده إلا بالأبدية . نعم ، قد يكون الزواج أحياناً مصدرا لشىء من الضيق والتعب ، هذا شىء أومن به ، ويجب أن يكون . أوَلسنا أيضاً مقترنين بضميرنا ، الذى نريد مراراً التخلص منه ، لأنه أكثر مضايقة من أى زوج أو قرينة ؟ »

على هذا النحو أطال عِنان القول بحرارة وحماسة ، وكان ممكناً أن يستمر طويلا ، لولا أن السائقين نفخوا فى البوق معلنين وصول الكونت

والبارونة اللذين دخلا سويا ، وكأنهما على ميعاد ، فِناءَ القصر من البابين المتقابلين . وبينما تقدم سكان هذا المنزل لاستقبالهما ، اختفى مِتلر ، وطلب اقتياد جواده إلى النزُل ، ومن هناك ارتحل وهو يتَزَغَّم .

الفصل العاشر

بسطوا للضيوف وجوههم وأقبلوا يلتمسون منهم دخول القصر . وكم كان سرور هؤلاء وهم يرون القصر من جديد بأبهائه الفخمة التى أمضوا فيها من قبل أياماً عاطرة بأجمل الذكريات ؛ ثم لم يزوروها منذ ذلك الحين . وأصدقاؤنا هم الآخرون قد وجدوا بمقدمهم بردَ السرو . فقد كان الكونت والبارونة من هذا النوع من الوجوه النبيلة الجميلة التى يزداد تأثيرها فى استواء السنّ أكثر منه فى مُقتبَل الشباب ؛ ولئن كانا قد فقدا شيئاً من رونقهم الأول ، فهما يثيران خالص الثقة فى النفس بما طبعا عليه من إحسان واجتماع لخلال الخير . وكلاهما كان سهل الشريعة رقيق الحاشية إلى أبعد الحدود ، يأخذ أمور الحياة بالمياسرة والترخُّص ، ويعلق كُلَّ شىء بغبطة وبساطة ظاهرة ، تشيع منه إلى من يتصل به من الناس ؛ ويسود كل حركة من حركاته حياء جَمٌّ لا يستشف من ورائه أدنى تكلف ولا صناعة .

وسرعان ما سرى إلى الجماعة هذا التأثير . فبعد أن تجلت المفارقة لأول وهلة بين الضيوف الجُدد القادمين مباشرةً من المحافل العالية ، — كما يتبين من هندامهم وحاشيتهم — وبين أصدقائنا بما هم فيه من مركز هادىء وجو مشبوب العاطفة المكتومة — اختفت وشيكا ، بفضل اختلاط الذكريات

القديمة مع العواطف الحاضرة ، فأخذوا سريعاً بأطراف الأحاديث بينهم .

لكنها لم تدم طويلاً ، إذ انفض جمعهم فأوى النسوة إلى جناحهن ، حيث وجدن من الموضوعات ما يكفى مادة لحديثهن : من أسرار استرحن بمكنونها ، وأزياء استعرضن أشكالها وقدودها ، وطرز جديدة للفساتين وقبعات الصيف . بينما شغل الرجال بالحديث عن العربات الجديدة ، والخيول ، التى أحضروها أمامهم ، فكانت مجالاً للبيع والقياض .

ثم لم يلتئم الجمع من جديد إلا فى الغداء . فاستبدلوا هندامهم ، وهنا تجلت روعة الضيوف : فقد كانت ثيابهما جديدة كلها ، بل وغير مألوفة ، ولكن العادة وضعت فيها شيئاً من الخفة والألفة .

وجرى الحديث حاراً مختلف الألوان : إذ يبدو كل شىء شائقاً فى مثل هذه الجماعة ؛ وكان بالفرنسية حتى لا يفهمه الخدم ؛ وترامى بهم الكلام إلى ذكر النبالة والبورجوازية ، تحدوهم إليه لذة ماكرة . ولم يستوقفهم خلال الحديث ، أكثر مما يجب ، إلا نقطة واحدة : فقد سألت شرلوت عن أخبار إحدى صديقات الطفولة ، فعلمت ، فى شىء من الدهشة ، أنها على وشك الطلاق ، فقالت :

اشد ما يؤلم النفس أن تعلم فى اللحظة التى نعتقد فيها أن أصدقاءها الغائبين قد استقرت بهم الحال أبداً ، أو أن رفيقة عزيزة تقيم تحت رواق النعيم — أقول أن تعلم فجأة أن مصير مثل هذه الصديقة مزعزع قلق ، وأنها بسبيل أن تسلك مسالك جديدة لعلها تكون أيضاً خطيرة » .

فأجاب الكونت : « أى بارونتى العزيزة ! الوزر وزرنا إذ دهشنا على هذا النحو . إذ يلذ لنا أن نتخيل الشئون الإنسانية ، وخصوصاً الزواج ، كأنها ثابتة أبدا ؛ وفيما يتصل بالمسألة الأخيرة ، إنها المسرحيات

الهزلية التي نراها تتكرر كل يوم، هي التي تملأ عقولنا بهذه الأفكار الفاسدة ، على خلاف ما تدل عليه حال الدنيا . ففي الملهاة يبدو لنا الزواج كأنه النهاية الأخيرة لنَذْر أخرت ميعاده عوائق طوال عدة فصول ؛ ثم في اللحظة التي يلمس فيها المرء الهدفَ يُسدَل الستار ، ويترك هذا الرِّضى الوقت أثراً مستمرا . أما في الدنيا ، فالحال على غير هذا : يستمر التمثيل وراء الستار ، وإذا رُفع مرة أخرى ، لا يحفل أحد بعد برؤية شيء أو سماع أمر » .

فقالت شرلوت : « يجب أن لا يكون الأمر على هذا النحو من السوء ، لأن كثيراً من الذين نزلوا من هذا المسرح يلذ لهم أن يعودوا إليه من جديد» .

فقال الكونت : « هذا لا اعتراض عليه : إذ يلذ المرء أن يأخذ دوراً جديداً ، وإذا عرف الدنيا وأحوالها رأى أنه في الزواج نفسه هذا الدوام المطلق الخالد ، وسط مثل هذه الحياة المتغيرة ، هو وحده الذي ينطوي على شيء من الإزعاج . ولي صديق ، يتجلى صفاء مزاجه خصوصا على هيئة مشروعات قوانين جديدة ، يرى أن كل زواج يجب أن يعقد لمدة خمس سنوات فحسب ، قائلا إن هذا العدد الجميل ، هذا العدد الفردي المقدس ، هذه الفترة من الزمان تكفي للتعارف وإنسال بعض الأطفال ، وللتنازع ، ثم — وهذا أجمل ما في الأمر — لإصلاح ذات البين من جديد . وكان هذا الصديق كثيراً ما يصيح قائلا : « ما أسعد مُضِيّ الفترة الأولى ! سنتان أو ثلاث على الأقل ستمر في نعيم وسرور ، ثم يبصر أحدهما وجهَ الرأي في أن تستمر هذه العلاقة مدة أطول ؛ ثم يزداد التلطف كلما اقتربا من ميعاد الانفصال ؛ فيصير الزوج غير المكترث ، بل والساخط ، هادئاً راضياً بوساطة مثل هذا المسلك . وكما أن الإنسان ينسى مُضى الساعات

فى الصُّحبة الجميلة ، كذلك ينسى كل منهما أن الزمان يمضى ، وتعتريه الدهشة على أجمل نحو حينما يتبين له ، بعد انتهاء المدة ، أنها أُطيلت من غير أن يشعرا » .

وعلى الرغم مما كان فى هذا الحديث من ظرف واطافة روح وأن هذه الفكاهة يمكن ، كما أحست شرلوت تماماً ، أن تفسر على أنها تنطوى على مغزى أخلاق عميق ، فإن هذا الحديث قد أسخطها ، خصوصاً من أجل أوتيلى . فقد عرفت تمام المعرفة أنه لا شىء أخطر من الكلمات الحُرة كل الحرية التى تصور موقفاً ، نصفه أو كله خاطئ أثيم ، على أنه عادى شائع بل وجدير بالإطراء ؛ ولا شك فى أن كل ما ينتقص من قدر الزواج يدخل فى هذا الباب . لهذا حاولت ، بما عهد فيها من لباقة ، أن تحوِّل مجرى الحديث ؛ فلما لم تستطع ، أَسِفت على أن هذه الفتاة الحاذقة فى إدارة شئون البيت (أوتيلى) قد أعدت كل شىء على نحوٍ جيد لم تحتج معه إلى النهوض من مكانها وسطهم . فكانت فى هدوئها وحسن سهرها تكتفى بإشارة إلى مدير الخدم كيما يهيأ كلُّ شىء على خير وجه ، ومع هذا فقد كانت لديها بعض الخدم الجُدد ، الذين تبدت الحَراقة من تحت هندامهم .

وهكذا استمر الكونت فى حديثه عن الموضوع نفسه دون أن يلاحظ رغبة شرلوت . وهذا الرجل الذى لم يتعود الإيغال فى مسألة ، قد شغلته هذه إلى حد كبير ، يضاف إلى هذا أن الصعوبات التى لقيها فى محاولة الانفصال عن زوجه قد ملأت نفسه مرارة فى كل ما يتصل بالرابطة الزوجية ، إلى حد أنه أراد بكل شعوره أن يعقد على البارونة . فتابع حديثه قائلا :

« ولقد قدم صديقى ذاك مشروع قانون آخر يقضى بأن الزواج يجب

ألا يعد غير قابل للفسخ إلا بالنسبة إلى الأشخاص — أحد الزوجين أو كلاهما — الذين تزوجوا ثلاث مرات : فالزواج بالنسبة إلى هؤلاء لا غنى عنه ؛ إذ يُعرف جيداً فى هذه الحالة كيف سلك فى زيجاته السابقة ، وهل كان فيه من الشذوذ الذى يؤدى إلى الانفصال أكثر مما يؤدى إلى الصفات المرذولة . لهذا إذاً يجب فى هذه الحال على كلا الزوجين أن يستطلع أمر الآخر ، كما يجب أن يُراقب المتزوجون ، كما يراقب غير المتزوجين ، إذ لا يدرى الإنسان ما عسى أن تؤول إليه الأمور » .

— فقال إدورد : « من شأن هذا أن يزيد ، من غير شك ، فى فائدة المجتمع ؛ فالواقع أن الناس لا يحتفلون بعدُ باستطلاع أمر فضائلنا ولا رذائلنا إذا ما تزوجنا » .

— فقالت البارونة باسمة : « فى مثل هذا النظام يكون ضيفانا العزيزان قد مرّا فعلا بالدرجتين الأوليين ويمكنهما أن يتهيآ للثالثة » .

فقال الكونت : « لقد سارت الأمور على ما تهوَيْن : فقد لذّ للموت أن يعمل ما لا يشاء مجمع البابا والكرادلة ان يعمله إلا على مضض وكراهية فى أغلب الأحوال » .

فقالت شرلوت : «لندع الموتى فى سلام» ، وفى لهجتها شىء من الجد .

فأجاب الكونت : « لماذا ، إذا كنا نستطيع التحدث عنهم مادحين ؟ لقد كانوا من التواضع بحيث قنعوا بالقليل من السنوات ، فى مقابل كل ما خلفوه من خير » .

فقالت البارونة وهى تُخَنِّق زَفرة : « وا حسرتاه على المرء أن يضطر فى مثل هذه الحالة إلى التضحية بأعز سنوات عمره ! »

فأجاب الكونت : « هذا حق ! ولقد كان علينا أن نستيئس ، إذا

كنا لا نرى الآمال كلها فى الدنيا إلى خيبة . فالأطفال لا يبلغون ما يُرَجَّى منهم ؛ والشباب قليلا ما يفعلون ، وإذا أخلصوا فى وعودهم ، لم تخلص الدنيا لهم » .

فقالت شرلوت ، وقد سرها أن يتحول مجرى الحديث : « إيه ! وعلينا نحن أن نعتاد مبكراً ألا ننعم بالسعادة إلا ناقصة على أجزاء »

— أجل ، هكذا قال الكونت ؛ ولقد كانت لكما معاً أيام سعيدة . فحينما أذكر تلك الأيام التى كنتما فيها ، إدورد وأنت ، خير زوج فى البلاط ، لا أرى اليوم أن أحداً يتحدث بعد عن مثل تلك الأزمنة الناعمة والوجوه الرائعة . لقد كانت العيون كلها حينما ترقصان تشخص إليكما ؛ وكم قمتما بغزوات ، بينما لم تكن عيون الواحد منكما تنظر إلا إلى عيون الآخر !

فقالت شرلوت : « ما دام كل هذا قد أنهج رونَقُه ، فلا علينا إن أصغينا إلى هذه الأشياء الجميلة بتواضع » .

فقال الكونت : « كثيراً ما انثنيت على إدورد بالملام سراً لأنه لم يثابر . فلقد كان أهله سيضطرون فى النهاية إلى التسليم ؛ وكسْب عشر سنوات شباب ليس بالأمر الهين » .

فقالت البارونة : « يجب أن أتولى الدفاع عنه . فإن شرلوت لم تكن بريئة الساحة من كل خطأ ؛ إذ لم تكن بنجوة من كل دلال ؛ وعلى الرغم من أنها كانت تحب إدورد بحنان ، وأن قلبها قد يختاره زوجاً لها ، فقد كان فى وسعى أن أرى أحياناً كيف كانت تعذّبه ، إلى حد أنه لم يكن من العسير حمله على عزيمته البائسة فى أن يترحل وأن ينتأى كيما يسلوها » .

فأومأ إدورد إلى البارونة ، إيماءة شُكر لها على تدخلها :

— لكن يجب أن أضيف كلمة ، هكذا تابعت حديثها ، كيما أبرّئ

شرلوت من الملام : ذلك أن الرجل الذى كان يسمى حينئذ إلى الزواج منها قد اشتهر منذ زمان طويل بحبه لها ، وحينما عرف على جلِيّته ، وُجد حقاً أحرى بالحب مما تشاؤن أن تتصوروا .

فقال الكونت ، بشىء من الحرارة : « صديقتى العزيزة ! لنعترف بأنه لم يكن عندك سواءً ، ولم يعوزه أن يثير اهتمامك ، وأن شرلوت كانت تخشى منك أكثر من أية امرأة أخرى . وأنا أجد جمالا فى هذه القَسمة من قسمات طبيعة المرأة ، وهى أنها تستمر طويلا على تعلقها برجل ، دون أن تضطرب أو تتسلى بأى نوع من أنواع الهجر » .

فقالت البارونة : « إن هذه الصفة الجيدة ربما يملكها الرجال أكثر من النساء : أو على الأقل بالنسبة إليك ، يا عزيزى الكونت ، لقد لاحظت جيداً أنه لا أحد أكبر سلطاناً عليك من امرأة شغفت بها حبا من قبلُ . وقد كان فى وسعى أن أشاهد أنك كنت عند رجاء حبيبة قديمة تبذل من السعى لتحقيقه أكثر مما عساك تفعله بالنسبة إلى حبيبتك الحالية » .

فأجاب الكونت : « مثل هذا الملام يمكن قبوله عن طيب خاطر ؛ لكن فيما يتصل بزوج شرلوت الأول ، لا أستطيع احتماله ، لأنه فَصَلَ هذا الزوج الجميل ، هذا الزوج الذى قدر له الاقتران ، لم يعد بحاجة إلى الخوف من فترة السنوات الخمس ، أو إلى الاهتمام والانشغال باقتران ثان وثالث » .

فقالت شرلوت : « سنحاول تلافى ما فات » .

فقال الكونت : « تحسنين صنعاً لو عنيت به . إن زواجكم الأول — هكذا تابع حديثه بشىء من الحرارة — كان من نوع ردىء ؛ ومما يؤسف له أن الزواج (واغفرى لى هذا التعبير الذى لا يخلو من حِدّة)

ينطوى على شىء من الخرق : لأنه يفسد أجمل العلاقات ، والسبب الحقيق لهذا هو الأمان الفج الذى يعتز به أحد الطرفين على الأقل . فكل شىء يسير على أنه مفهوم بنفسه ، ويبدو أن المرء قد تزوج لا لشىء إلا لكى يتابع كُلٌّ طريقه من الآن فصاعدا » .

وفى هذه اللحظة لجأت شرلوت ، وقد قر عزمها على إنهاء هذا الحديث ، إلى وسيلة جريئة لتغيير مجراه ، فصار عاما حتى استطاع الزوجان والكابتن أن يشاركوا فيه ؛ ودعيت أوتيلى نفسها إلى الحضور معهم ، وعند تناول الحلوى كان الكل صافى المزاج ، وأعان على هذا خصوصا جمال الفاكهة الشهية المعروضة فى سلال أنيقة ، وبهجة الأزهار العديدة الألوان وهى ترفُّ رائعة فى أُصص فتانة .

وتناول الحديث التجميلاتِ الجديدة فى البستان ، فلما خفوا عن المائدة ذهبوا لزيارتها . أما أوتيلى فقد انصرفت لشأنها ، بحجة أن لديها مشاغل منزلية ، ولكنها فى الواقع عادت إلى كتابة النسخة المطلوبة . وتحدث الكونت مع الكابتن ؛ وبعد حين شاركتهما شرلوت الحديث . فلما بلغوا الأعالى ، وكان الكابتن قد هبط مسرعاً ليبحث عن التصميم ، قال الكونت لشرلوت :

— هذا الرجل يملأ نفسى إعجابا به : فله معلومات واسعة محكمة الترتيب ، ويبدو لى أن له نشاط العمل الجاد المنطق : فما يعمله هنا يكون له قيمة كبرى فى مجال أعلى وأوسع .

وأصغت شرلوت إلى الثناء على الكابتن باغتباط مُسْتَتِر . ومع هذا فقد ملكت زمام نفسها . وبلهجة واضحة ثابتة ، أَيدت أقوال الكونت . لكن كم كانت دهشتها ، حينما تابع حديثه بهذه الكلمات :

— لقد عرفت هذا الرجل فى الوقت المناسب ، لأنى أعلم مكانا يصلح له تمام الصلاحية . فإن أنا أوصيت به ، استطعت إسداء خدمة لا تصاب لها قيمة إلى صديق عزيز المكانة ، مع توفير السعادة لهذا الرجل .

لقد وقع هذا القول فى نفس شرلوت وقوع الصاعقة . غير أن الكونت لم يفطن إلى شىء مما كان منها ، لأن المرأة ، وقد تعودت تمالك نفسها باستمرار، تحتفظ دائما برباطة الجأش فى أشد الأحوال هولا وترويعا . ولكنها لم تعد تسمع الكونت ، حينما أضاف :

— حينما أطوى فؤادى على صريمة حذاء ، أمضى تواً لإنفادها . فها هو ذا الخطاب قد ترتبت أجزاؤه فى رأسى ، وبى عجلة لكتابته . فنشدتكِ الله إلا هيأتِ رجلا على جواد ، لكى أبعث به هذا المساء .

تمزق قلب شرلوت ، وغلبتها الدهشة من هذه المشروعات ومن عواطفها الخاصة ، فأرتج عليها الكلام . ولحسن الحظ استمر ضيفها فى الحديث عن المشروعات التى أعدها من أجل الكابتن ، وهى مشروعات استرعت نظر البارونة بشدة . وكان الوقت قد حان لكى يعود مهندسنا (الكابتن) وينشر صفحة مشروعه أمام الكونت . لكن ، كم اختلفت نظرتها إلى الصديق الذى صارت على وشك فقدانه ! وبعد انحناءة خفيفة ، مضت وهبطت سريعا إلى آخر الطحلب . وما بلغت منتصف الطريق حتى تدفقت دموعها بغزارة . وجثمت بين الجدران الضيقة لهذا المأوى الصغير ، واستسلمت بكليتها إلى ألم ووجدان ويأس لم تكن لتعتقد مطلقا إمكان طرآنها عليها قبل لحظات قصار .

أما إدورد والبارونة فقد اتخذا سبيلهما إلى الغدران . وسرعان ما تبينت هذه المرأة اللبقة ، التى لذ لها أن تسأل عن كل شىء ، أن إدورد وهو

يتحدث قد غالى فى توشيح أوتيلى حُـلل الثناء والإطراء ؛ فاستطاعت أن تحركه شيئا فشيئا وعلى نحو طبيعى حتى لم يعُـد لديها شك فى أن ثمت وجدانا لا ناشئا ، بل بالغا تمام نموه وازدهاره .

ومن شيمة النسوة المتزوجات ، حتى لو لم يكن بينهن حب ، أن يتآمرن معاً فى السر ، خصوصاً ضد الفتيات . لهذا لم تلبث عواقب مثل هذه العاطفة أن تظهر جلية أمام عقلى امرأة فطنة كهاتيك . وفضلا عن هذا فقد كانت تحدثت من قبل مع شرلوت عن أوتيلى أثناء الصباح ، واستهجنت المقام فى الريف بالنسبة إلى هذه الفتاة ، نظراً خصوصاً إلى هدوء طبعها ولين مُهـتَصرها ، واقترحت إيفادها إلى المدينة لتقيم عند صديقة تبذل غالى التضحيات فى سبيل تنشئه ابنتها الوحيدة ، وتفتقد لها رفيقة رقيقة الحاشية خافضة الجناح ، ستعاملها هذه الصديقة كأنها ابنتها ، فتنعم بكل المزايا التى تنعم بها الأخرى . فسألتها شرلوت أن تمهلها حتى تجد فسحة للتفكير .

وما نفذت البارونة إلى عواطف إدورد المستسرة حتى زاد يقينها بمشروعها ، وبقدر ما بادرت إلى تنفيذ عزمها بقدر ما تملقت فى الظاهر رغبات مضيفها . لأنه ما من شخص يملك نفسه خيراً من هذه المرأة ، وهذا الضبط للنفس فى الظروف الخارجة عن المألوف تعوّد من وُهبوه على اصطناع المداهنة ، حتى فى الأحوال العادية ، وتهيؤهم ، فى الوقت الذى يقسون فيه على أنفسهم كل هذه القسوة ، لبسط سلطانهم على الآخرين ، كيما يستعيضوا ، نوعاً ما ، بهذه المزية الخارجية ، عن حرمانهم المستسرّ فى طوايا نفوسهم .

ويضاف إلى هذه العواطف عادةً نوعٌ من السرور الخبيث الذى يثيره فيهم عمى الآخرين والجهل الذى يندفعون به إلى الوقوع فى الحبائل

المنصوبة . ولا يقتصر السرور على التمتع بالنجاح الحاضر ، بل يمتد إلى التمتع بالاضطراب الذى سيصيب الآخرين فى المستقبل . ولقد كانت البارونة من الدهاء والخبث بحيث دعت إدورد وشرلوت إلى قضاء مدة القِطاف للكروم فى مزارعها ، ولما سألها إدورد عما إذا كان من الممكن اصطحاب أوتيلى معهما ، أجابت بطريقة يمكنه تأويلُها لصالحه .

وها هو ذا يشيد ، نشوانَ ، بالإقليم الرائع والنهر الكبير والروابى والصخور والأعناب والقصور العتيقة والمنازه فوق سطح الماء ومسرات قِطاف الكروم والمعصرة وما إليها : سعيداً بأن يشارك ، مقدَّماً ، وفى براءة قلبه ، فى الأثر الذى ستحدثه أمثال هذه المناظر فى نفس أوتيلى الفتية . وفى هذه اللحظة رأوها قادمة ، فأسرعت البارونة تقول لإدورد أن يلتزم الصمت فيما يتصل بمشروع رحلة الخريف هذه ، إذ يحدث عادةً أن تنهار المشروعات التى يغتبط المرء بها طويلا قبل تحقيقها . فوعدها إياه إدورد ثم حثته على الإسراع لاستقبال أوتيلى ، فانتهى أمره بأن أغذَّ فى السير كيما يلتقى بالفتاة العزيزة ، وسرعان ما انتشر شعاع السرور الحار فى كل كيانه ، فقبَّل يد أوتيلى وهو يقدم إليها باقة من الأزهار الريفية التى اقتطفها أثناء النزهة . وما أبصرت البارونة هذا المشهد حتى أحسَّت بالغضب والحنَق ، لأنها ، بالرغم من تنديدها بما فى هذا الحب من إثم وخطيئة ، كانت تحسد هذه الفتاة التافهة على ما وهبها الله من سحر وإغراء .

ولما التأم الشمل فى العشاء ، وجدت الجماعةُ نفسَها فى جو روحى جديد . فالكونت ، بعد أن كتب رسالته وأرسل الرسول ؛ كان يحادث الكابتن مستزيداً معرفة دخيلته بشىء من الاحتياط والزكانة ، فعنى

باجلاسه إلى جواره . ولهذا فإن البارونة ، وقد جلست عن يمين الـكونت ، وجدت من هذه الناحية المجال ضيقاً للحديث ، كما وجدته هكذا أيضاً من ناحية إدورد لأنه بدأ بأن كان صدياناً ثم شرب ولم يبق على النبيذ ، وأخذ بأطراف الأحاديث بحرارة فياضة بينه وبين أوتيلى التى أجلسها إلى جواره ، بينما شرلوت التى جلست قُبالتهما إلى جوار الـكابتن كانت تجاهد بمشقة — دون جدوى تقريبا — كيما تخفى حركات فؤادها الخفية .

وكان المجال واسعاً أمام البارونة لتجرى مشاهداتها . فلاحظت قلق شرلوت ، ولما كانت لا تعرف إلا صلات إدورد مع أوتيلى ، فقد اقتنعت بسهولة بأن مسلك الزوج هو العـلة فى إشاعة الحزن والحلم المُـفْـكِر فى نفس صديقتها . هنالك أفكرت فى خير الوسائل لبلوغ هدفها .

وبعد العشاء تفرقت الجماعة . فالـكونت وقد أراد تعمق معرفته بالـكابتن قد كان فى حاجة إلى تنويع الحديث ، كى يستبطن كُـنْه ما يريد معرفته ، مع رجل هذا حظه من الهدوء والإيجاز والبعد عن الغرور . فـكانا يذهبان ويجيئان فى أحد جوانب البهو ، بينما إدورد ، وقد أنعشته الخمر والأمل ، كان يمزح مع أوتيلى بالقرب من إحدى النوافذ ، وشرلوت والبارونة من ناحيتهما يتريضان صامتين فى النـاحية الأخرى من البهو . وما لبث صمتهما وقلقهما الفارغ أن انتهيا بأن أشاعا البرود فى باقى الجماعة . فأوى النسوة إلى جناحهن الأيسر ، والرجال إلى جناحهم الأيمن ، وبدا كأن ذلك النهار انتهى .

الفصل الحادى عشر

صحب إدوردُ الكونتَ إلى مخدعه، وحمله الحديث على أن يبقيه معه حيناً، فجر الحديثُ الكونت إلى الماضى البعيد، وتحدث بحرارة عن جمال شرلوت، مبيناً مناقب هذا الجمال بدراية وحماسة، قائلا :

— إن قدماً جميلة لهى هبة من الطبيعة ثمينة : إنها نعمة لا تفنى . لقد لاحظت اليوم مِشيتها . ليود المرء وهو يراها أن يقبّل حذاءها ، ويجدد تلك التحية — وإن كانت ، حقاً ، بربرية شيئا ، فإنها مع هذا تدل على عمق فى الإحساس — التى كان يستخدمها السرْمَتيون[1] الذين كانوا لا يجدون أعذب من أن يشربوا فى حذاء شخص عزيز ماجد ، يشربوا على صحته .

ولم يكن طرف القدم وحده موضوع الإطراء فى هذه المناجاة بين الصديقين . فإن شخصها قد عاد بهما إلى المغامرات القديمة ، وانتقلا منها إلى العقبات التى كانت توضع فى سبيل لقاء الحبيبين ، وما لقيا من عَنَت وإرهاق ، وما فتلا من حبائل لا لشىء إلا ليتيسر لكل منهما أن يقول للآخر : إنى أحبك .

---

(١) السرمتيون هم أهل سرمتيه ، وهى بلاد واسعة فى شمال أوربا وآسيا تنقسم إلى قسم أسيوى وآخر أوربى ؛ والقسم الأوربى يحده المحيط شمالا وألمانيا والفستولا غربا ، والبحر الأسود جنوبا ، ويشمل الآن روسيا وبولنده ولتوانيا والتتر الصغرى وكان أهلها غير متحضرين محبين القتال ، اشتهروا بصبغ أجسامهم ليزداد روعهم فى الحروب ، كما عرفوا بميلهم إلى الفجور . وقد ازدادت شوكتهم فى عهد الامبراطورية الرومانية ، إلى أن استطاعوا ، بعد أن انضم إليهم لإشقوزيون ، القضاء عليها نهائيا . فهم القبائل المعروفة بقبائل الهون والوندال والقوط والألان الذين غزوا روما وقضوا على تلك الامبراطورية الشامخة . وكانوا يعيشون على السلب ويتغذون بالألبان ممزوجة بدماء الخيول .

وتابع الـكونت الحديث قائلا : « أتذكر المغامرات التى آزرتك فيها بصداقة ونزاهة خالصتين ، حينما ذهب أمراؤنا لزيارة عمهم واجتمعوا فى القصر الفسيح ؟ كان النهار قد انقضى فى حفلات ومراسم جليلة رائعة ، وكان لا بد من تـكريس شطر من الليل للأحاديث الحرة العذبة .

— لقد عرفت ، هكذا قال له إدورد ، كيف تـكتشف الطريق المؤدى إلى مخادع السيدات ، وكان من حسن حظنا أننا بلغنا مخدع حبيبتى الجميلة .

— وهى قد حرصت على الحياء أكثر من حرصها على إرضائى ، هكذا عاود الـكونت حديثه ، واحتفظت إلى جوارها بتابعة مفرطة فى القبح ، إلى درجة أنك خلقت لى ، أثناء حديثك الغرامى ، دوراً بالغ القبح .

— بالأمس فقط ، هكذا أجاب إدورد ، حينما أعلنت عن قدومك ، أعدت ذكرى هذه الحادثة إلى زوجى ، وخصوصا كيفية انسحابنا . لقد ضللنا الطريق ، وبلغنا الغرفة المواجهة لغرفة الحراس . ولما كنا نعرف جيداً كيف نجد طريقنا من هناك ، اعتقدنا أن فى وسعنا الاجتياز بدون صعوبة مارين أمام ذلك المـكان مرورنا أمام أى مكان آخر . لـكن كم كانت دهشتنا ونحن نفتح الباب ! لقد كان الطريق مليئاً بالنضائد والوسائد التى نام عليها هؤلاء المردة الراقدون على عدة خطوط . فحملق الجندى المنوط بالحراسة إلينا مندهشاً ، ولـكننا استطعنا أن نمر بما فينا من جرأة الشباب ومرحه ، فوق الأحذية المتراصة دون أن يستيقظ واحد من أبناء ايناك هؤلاء أو ينقطع غطيطه .

— لقد كنت شديد الرغبة فى أن أكبو ، هكذا قال الـكونت ، كيما أحدث ضجيجاً وجلبة ؛ إذن ما كان أغرب ما سنراه من استيقاظ !

وفى هذه اللحظة دقت ساعة القصر نصف الليل .

— نصف الليل ! هكذا قال الكونت باسما ، إنها اللحظة المواتية . عزيزى البارون ، لى رجاء لديك . لتقُدنى اليوم كما قدتُك بالأمس . فقد وعدت البارونة بزيارتها . ونحن لم نحظ طوال النهار بلحظة واحدة نتحدث فيها حديثا خاصا ؛ لقد بقينا طويلا لا يرى أحدنا الآخر ، فمن الطبيعى أن نرجّى ساعة خلوة . دُلَّنى على الطريق ، وفى وسعى أن أجد سبيل العودة بنفسى ، وعلى كل حال فلست أخاطر بالكبوة على أحذية .

— سأزدرع عندك هذا المعروف عن طيب خاطر ، هكذا أجاب إدورد . ولكن هؤلاء النسوة الثلاث يقمن سويا فى الجناح الأيسر ؛ فمن يدرى لعلنا نجدهن مجتمعات الآن ، أوَما أغرب المشهد الذى يمكن أن نكون الآن بسبيل إثارته !

— اطَّرِحْ كل خوف ، فإن البارونة تنتظرنى . وهى الآن لا بد موجودة فى مخدعها ، هى وحدها .

— الأمر على كل حال ميسور ، هكذا قال إدورد .

وأخذ مصباحاً وتقدم الكونت مُنزِلا إياه سُلما خفيا يقود إلى ممشى طويل ، عند نهايته فتح إدورد باباً صغيراً . ثم صعدا سلماً دائرياً ، ما بلغا منه مِسْطحاً ضيقاً حتى أشار إدورد — منبهاً الكونت ، وهو يعطيه المصباح — إلى باب عن يمين انفتح من أول قَرْعة فدخل الكونت وترك إدورد فى الظلام .

وكان هناك باب آخر عن يسارٍ يؤدى إلى مخدع شرلوت . فسمع إدورد حديثاً فأرهف أذنه لاستراق السمع ، فتوجس شرلوتَ وهى تخاطب سيدة مخدعها :

— هل نامت أوتيلى ؟

— كلا ، يا سيدتى ، بهذا أجابت سيدة المخدع . إنها لا تزال فى أسفل تكتب .

— أوقدى إذن قُـنَيْـديل السهر وانصرفى ، فالوقت متأخر . وسأطفىء الشمعة بنفسى وأنام وحدى .

ولشد ما سر إدورد أن يعلم أن أوتيلى لا تزال مشغولة بالكتابة . « إنها تشتغل من أجلى ! » هكذا قال لنفسه منتشياً بالظفر . ولما كان مطوياً على نفسه فى الظلام فقد تخيلها جالسة تكتب ، وتخيل نفسه يقترب منها ، وهى ترتد إليه ؛ وأحس برغبة لا تقاوَم فى أن يكون إلى جوارها مرة أخرى هذا المساء . لكن لم يكن ثمت طريق يؤدى من المكان الذى كان فيه إلى الطابق السفلى حيث كانت هى آنذاك . فقد كان فى تلك اللحظة أمام باب مخدع زوجه . فحدث فى نفسه اختلاط غريب : حاول أن يفتح الباب فوجده مغلقا ، وكان دفعه إليه خفيفاً فلم تسمع شرلوت ، وكانت تغدو وتروح فى اضطراب وتهيُّج فى غرفة مجاورة أوسع من الأخرى ، وهى تردد لنفسها ، بصوت واضح ، ما أجالته مراراً فى داخل عقلها ، منذ أن اقترح الكونت اقتراحه المفاجىء . وخيل إليها أنها ترى الكابتن قُبالتها . أواه ! إنه ملء القصر وبهجة النزُهات ، وها هو ذا بسبيل الرحيل ! أيحل القفر عما قليل ! وقالت فى نفسها كل ما يمكن أن يقال ؛ وتمثلت لنفسها مقدماً ، كما هى العادة دائماً ، هذه السلوى الرهيبة : وهى أنه حتى أمثال هذه الآلام يخفف من وقعها الزمان ؛ وصبت اللعنات على الزمان اللازم لعلاجها منها ؛ كما لعنت المهد الحزين الذى ستكون فيه قد برئت منها .

وأخيراً أهابت بالدموع ، فكانت سلوى فيها من العذوبة بقدر ندرة الدموع لديها . وألقت بنفسها على الأريكة ، واستسلمت بكل نفسها لهمومها .

وإدورد هو الآخر لم يقو على مفارقة الباب ، فقرع مرة ثانية وثالثة بقوة متزايدة حتى إن شرلوت سمعته بوضوح فى سجوّ الليل ، واقشعرت فزعاً . وخطر ببالها أول ما خطر أن الطارق يمكن أن يكون هو الكابتن ، بل لا بد أن يكون إياه ؛ ثم خطر لها ثانيا أن هذا مستحيل . فخيل إليها أن هذا وَهم ؛ لكنها سمعت طرقا ، ورغبت وخافت معا أن تكون قد سمعت . فانتقلت إلى غرفة نومها ، واقتربت بخطى مسترَقة من الباب المولج بالمزلاج . وأنَّبت نفسها على فزعها ، وقالت لنفسها : « يظهر أنها البارونة ، فى حاجة إلى معونتى » ؛ ثم قالت ، رافعة صوتها ، بلهجة ثابتة موزونة : « من هناك ؟ » فأجاب صوت خافت : « إنه أنا » . فقالت شرلوت : « من أنت ؟ » إنها لم تستطع أن تتبين ذلك الصوت ، وتمثلت أيضا صورة الكابتن أمام الباب . فجاء الجواب على سؤالها مرتفعاً : « إنه إدورد » .

ففتحت ، ومَثَل زوجها أمامها ، وحياها بطريقة مازحة ، مما هيأ لها أن تستمر معه بنفس اللهجة . لكنه غطى زيارته الغريبة هذه بتأويلات غامضة : وأخيرا قال : « لماذا أتيتُ ؟ . . . هذا ما يجب أن أعترف به لك : لقد لج بى الشوق إلى تقبيل نعلك هذا المساء ، فقرَّ عزمى عليه » .

فقالت شرلوت : « مضى زمان طويل لم يخطر ببالك هذا الخاطر » .

فأجاب إدورد : « بئس ما حدث أو نعمه » .

وكانت شرلوت قد ألقت بنفسها على كرسى كيما تخفى عن نظراته مبذلتها الخفيفة . فخر راكعا أمامها ، ولم تستطع هى أن تحول بينه وبين أن يقبل نعلها ثم يمسك بقدمها — وقد بقى النعل فى يده — ويضغط به بحرارة على صدره .

ولقد كانت شرلوت واحدة من هؤلاء النسوة الهادئات الطبع

المتواضعات ، اللائى يحتفظن فى الزواج — دون ما جهد ولا تكلف — بأحوال العاشقات . فهى لم تحاول مطلقا أن تستنض لطفه ، وتبادله الملاطفة ، كما كانت نادراً ما تستجيب لملاطفاته ؛ إنما كانت تشبه زوجا رقيقة لا تزال تشعر بخوف خفى من الشىء المباح — دون ما برود أو قسوة منفّرة . وتلك كانت — ولسبب مُضاعَف — الحال التى وجدها عليها إدورد فى تلك الليلة . وكم كانت تتوق إلى رؤيته يغادرها الآن ! لأن صورة الكابتن تبدّت كأنها تُنحى عليها باللائمة . لكن الشىء الذى كان من شأنه أن يُبعد عنها البارون الآن لم يفعل إلا أنه زاد فى تعلقه وانجذابه إليها وتوضح عليها شىء من الانفعال ، إذ كانت قد أسبلت عبرتها ؛ وإذا كان النسوة الضعيفات يفقدن بالبكاء بعضا من محاسنهن ، فإن هؤلاء اللائى يُرَون عادة هادئات ثابتات يزددن منه فتنة وبه جمالا . أما إدورد فقد كان موفور اللطف مبسوط جناح الرقة والحنان ؛ فتوسل إليها أن تحتمل بقاءه معها آنذاك ، ولم يكن يتطلب منها شيئا ؛ وفى لهجة تترجح بين الجد والهزل حاول إقناعها بهذا ، ولم يفكر مطلقا فى أن له الحق فى هذا ، وأخيراً أطفأ الشمعة متلاعبا متضاحكا .

وعلى ضوء قُنَيْديل السهر الباهت ، بَرَّز الميل الخفى والخيال على الحقيقة . فخيل إلى إدورد أنه حمل أوتيلى بين ذراعيه ؛ وخيل إلى شرلوت أنها ترى — من قريب أو بعيد — صورة الكابتن ترنّق أمامها وتحلّق ؛ وهكذا استطاع الحاضر والغائب — بنوع من المعجزة — أن يتعانقا ويتحدا بلذة وشهوة واشتياق .

لكن الحاضر لا يستسلم لاغتصاب حقوقه المطلقة . فأمضيا هزيعاً من الليل فى أحاديث مختلفة الأنواع ودعابات عذبة السماع ، كان فى جريانها من

اليسر بقدر ما كان للقلب من عدم مشاركة فيها وواحسرتاه ! ولكن ، في الغد ، حينما استيقظ إدورد بين ذراعي زوجه ، تبدى النور وكأنه يلقي على الغرفة نظرة متوعّدة ، وظهرت الشمس له وكأنها تضيء على جريمة ؛ فانسلّ دون ضجة ، وأحست شرلوت بعاطفة غريبة حينما وجدت نفسها حين استيقاظها وحيدة .

الفصل الثانى عشر

ولما انتظم عِقْد اجتماعهم في ساعة الإفطار كان في وسع الناظر المتنبّه أن يتوسم في حركات كُلٍّ تباينَ أفكاره وعواطفه . فالكونت والبارونة قد تبادلا التحية في طمأنينة العاشقين الساجية ، العاشقين اللذين تبادلا — بعد هجر أليم — توكيدات جديدة لميولهما المتبادلة ؛ أما إدورد وشرلوت ، فعلى العكس من هذا استقبلا أوتيلي والكابتن بنوع من الاضطراب والندم السادم ، لأن من طبيعة الحب أن يعتقد أن له كل الحقوق ، وأن كل الحقوق الأخرى تتبدد أمامه . ولقد كانت أوتيلي مرحة مرح الطفولة ، مرحا يمكن أن يقال عنه بالنسبة إليها إنه كان لديها نوعاً من التفريج والترويح . أما الكابتن فقد تبدى رزين الحَصاة واقع الطائر . فبعد أحاديثه مع الكونت الذي أيقظت كلماته ما رقد في قلبه منذ زمان طويل ، شعر تمام الشعور بأنه لم يؤد مهمته الحقيقية عند صديقه ، ولم يفعل في الواقع غير أنه مَذِل بمقامه في هذه الحال الشبيهة بالتعطل .

ولم يكد الضيفان يرتحلان حتى جاءت زيارة جديدة ، سارةٌ لنفس شرلوت التي كانت تريد أن تُفَرِّج عن نفسها وترفه ، مضايقة لنفس إدورد

الذى كان يحس بازدياد تعلقه بأوتيلى وانشغاله ، ثقيلة أيضاً بالنسبة إليها وهى لم تنته بعد من إتمام النسخة ، وقد كان من الضرورى الفراغ منها فى صباح الغد . وفى السادسة ، حينما ارتحل الغرباء ، هُرِعت بالصعود إلى غرفتها .

اقترب الليل وإدورد وشرلوت والكابتن قد رافقوا الغرباء سيراً على الأقدام إلى بعض المسافة من القصر ، ثم قر رأيهم على القيام بنزهة حتى الغدران . فقد وصل زورق كان إدورد قد أوصى بإحضاره من بعيد وشرائه بنفقات باهظة ؛ فأرادوا تجربته ليعرفوا ما إذا كان سهل التسيار . وكان الزورق قد شد إلى شاطىء الغدير الأوسط ، غير بعيد من بعض أشجار البلوط العتيق التى حسبوا حسابها للمنشئات المقبلة . فقد كان مفروضاً أن يكون المَرْسىٰ هناك ، وتقام تحت الأشجار صُفَّة للراحة أنيقة البناء يمم شطرها من يريدون عبور الغدير بالزوق .

— « وقُبالتهـا ، أين يجدر بنا أن نقيم التَّكْلِئة ؟ هكذا قال البارون ؛ يبدو لى أنها يجب أن تقام صوب أشجار الدُّاب » .

فقال الكابتن : « إنها متباعدة كثيراً ناحية اليمين . أما إذا كَلَّأْنا فى ناحية أبعد سُفْلا ، فإننا نكون أكثر اقتراباً من القصر . ومع كل هذا فيجب التدبر » .

وهاهو ذا قد جلس فى مؤخر الزورق وأمسك بأحد المجاديف ؛ ونزلت شرلوت فى الزورق ، ومن خلفها إدورد الذى أمسك بالمِجْداف الآخر . ولكنه فى اللحظة التى قلع فيها المِرْساة تذكر أوتيلى وقدَّر أن هذه النزهة ستأخره وتعود به فى ساعة لا يعلمها إلا الله . فأمضى عزيمته فى الحال ، ووثب إلى الشاطىء ، ومد إلى الكابتن المجداف الثانى ، واعتذر بسرعة وهُرِع إلى القصر .

سأل عن أوتيلي فقيل له إنها أغلقت بابها لتكتب . وامتزج بهذا الخاطر الجميل ، خاطرِ أنها تشتغل من أجله ، أسفٌ حاد على حرمانه من حضرتها . وازداد ضيقه لحظة بعد لحظة وانتقضت مِرّة صبره . وظل يمشي غادياً آتيا في البهو الكبير ، وحاول كل شيء ، ولكن انتباهه لم يستقر عند شيء . وهو قد رغب في رؤيتها ، رؤيتها وحدها ، قبل عودة شرلوت والكابتن . وأقبل الليل ، فأوقدت المصابيح .

وأخيراً تجلّت في هالة من الإناقة والجمال ، يسمو بها الشعور بأنها عملت شيئاً من أجل صديقها . ووضعت الأصل والنسخة أمامه على المنضدة .

— تريد المراجعة ؟ هكذا قالت باسمة .

ولم يعرف هو بماذا يجيبها ، فألقى بنظره عليها ثم على النسخة . أما الصفحات الأولى فقد كتبت بعناية فائقة وبخط نِسْوى لطيف ؛ ثم تبدلت القسمات وصارت أكثر خفة وحرية ؛ لكن كم كانت دهشته حينما تصفح الصفحات الأخيرة ! فصاح : « بحق السماء ! ماذا أرى ؟ إنه خطي بعينه ! »

فنظر إلى أوتيلي ، ثم إلى الأوراق مرة أخرى فرأى الأخيرة خصوصاً كأنها بعينها كما لو كان قد كتبها بنفسه . أما هي فاعتصمت بالصمت لكن عينيها المحدقتين فيه كانتا تعبران عن أحر السرور . فرفع ساعديه في نشوة صائحاً :

— أنت تحبينني يا أوتيلي ! أنت تحبينني !

وتعانقا طويلا . أما من هو الذي بدأ بمعانقة الآخر ، فهذا ما تستحيل معرفته .

ومنذ هذه اللحظة وكل شيء قد تبدل وجهه في نظر إدورد ؛ فلم يعد بعدُ ما كانه قبل ؛ ولم يعد للدنيا نفس ما كان لها من مظهر في ناظريه .

ووقف كلاهما قُبالة الآخر . وأمسك إدورد بكفىّ أوتيلى فى كفّيه ؛ ولم تفارق عينا كليها عينى الآخر ؛ وكانا بسبيل أن يتعانقا من جديد .

ودخلت شرلوت بصحبة الكابتن . وعندما اعتذر عن طول تأخرهما ، ابتسم إدورد لنفسه . « آه ! كم أتيتما مبكرَين ! » هكذا قال فى نفسه .

وجلسوا للعشاء ، واستعرضوا زيارات اليوم ، فتحدث البارون — وقد تهيأ لعاطفة المحبة — عن كلٍّ مادحاً ، حانياً دائما ، مُطنباً فى الثناء فى غالب الأحيان . أما شرلوت — ولم تكن على رأيه تماماً — فقد لاحظت هذه الحال ، ومازحته على أنه كان فى هذا اليوم صافى المزاج شائع الحنان ، وهو المتأهب دائما للحكم بقسوة على الضيوف بعد رحيلهم .

فصاح إدورد بحرارة وفيض عاطفة صادقة:

— يكفى المرء أن يحب إنساناً من أعماق قلبه كيما يتبدى له بقية الناس جديرين بالمحبة .

غضّت أوتيلى طرْفها ، بينما أنعمت شرلوت النظر . فبدأ الكابتن الحديث قائلا :

— إن عواطف الاحترام والتقدير تدعو إلى الشعور بشىء من مثل هذا . والإنسان لا يميز جيداً ما هو جدير بالتقدير فى الدنيا حقاً إلا حينما يجد الفرصة لتغذية هذه العواطف من أجل كائن أو موضوع واحد .

وسرعان ما سعت شرلوت إلى مخدعها كيما تستسلم لذكرى ما جرى ذلك المساء بينها وبين الكابتن .

فإنه حينما دفع إدورد الزورق وهو يثب إلى الشاطىء ، وترك للعنصر المتحرك (الماء) زوجه مع صديقه ، رأت شرلوت الرجل ، الذى طالما تألمت خفيةً من أجله ، جالساً قُبالتها فى ساعة الأصيل ، وهو يدفع الزورق

بفضل المجاديف إلى حيث شاء . هنالك شعرت بحزن عميق نادراً ما أحست بمثله من قبل . وكان لدوران الزورق ، وضوضاء المجاديف الخفيفة ، ونسيم المساء وهو يمرّ مهتزاً على المرآة السائلة ، وقسيب الغاب ، وبعض الطيور المُرَنّقة فوق رأسيهما ، والنور المترنح ترسله النجوم الأولى — كل هذا كان له مسحة من الخيـال فى هذا الصمت الشامل والسكون الـكامل . وخيِّـل إليها أن صديقها يقتادها إلى بعيد ، ليلقى بها على الشاطىء ثم يذرها وحدها ؛ وأحست فى داخل نفسها بانفعال غريب ، بَيْـدَ أنها لم تقو على البكاء .

ومع هذا فقد كان الـكابتن يتحدث إليهـا عن تزيينات البستان كما صممها ؛ وأشاد بمتانة تركيب الزورق ، إذ يستطيع رجل واحد أن يقوده بيُسر بواسطة مجدافين . ولعلها هى أن تتعلم وحدها كيف تقوده ؛ فما أجمل أن يحس الإنسان أنه يُبحر وحده أحياناً وبأنه هو ملاح نفسه ونوتىّ ذاته !

فأهاجت هـذه الـكلمات فى نفس صديقته ذكرى فراقهما القريب . فقالت فى نفسها : « أيقول هذا الـكَـلِم عن قصد ؟ أو يعلم شيئاً عما تكنه ؟ أيحدس شيئاً أم يتحدث هكذا حيثما اتفق ، وبدون أن يعلم ينذرنى بمصيرى ؟ » فاستولت على نفسها كآبة عميقة وقلق لهيف ، وسألت حاديها أن يساحل بأسرع ما يمكن وأن يعود بها إلى القصر .

وكانت هذه أول مرة يجول فيها الـكابتن فوق الغدير ، وعلى الرغم من أنه لاحظ عمقه بطريقة إجمالية ، فإنه لم يعلمه بالتفصيل . وبدأ الليل فى الإظلام فولى إبحاره قِبَـل مكان ظنّ النزول فيه ميسورا ، يعرف أنه لا يبعد كثيراً عن الطريق المؤدى إلى القصر . لـكنه صُرف عن هذا الاتجاه أيضاً حينما كررت شرلوت الدعاء — فى شيء من اللهفة — بأن تنزل إلى البر وشيكا . فاقترب من الشاطىء باذلاً مجهودات جديدة : لـكنه

لسوء الحظ شعر بالتوقف على مسافة ما . وكان الزورق قد سقط ، وذهبت جهوده لتخليصه سُدًى . فما العمل ؟ لم يبق له إلا أن ينزل فى الماء ، وقد كان من الضحولة بحيث يتيسر له أن يحمل صديقته إلى الشاطىء . وسعد باجتياز هذه المسافة حاملا ذلك الحِمل العزيز ؛ وكان من قوة البدن بحيث لم يتمايل مطلقاً ولم يُثر فى نفس شرلوت أى انزعاج ؛ ومع هـذا فقد حملها الجزع على أن تعانق رقبته بذراعها ، بينما أمسك هو بها بقوة وضغطها بين ذراعيه . وانتظر حتى يبلغ أرضاً أريضة مائلة لينزلها ، وتم له هذا فى حالة لا تخلو من الانفعال والاضطراب . وكانت لا تزال معلقة بعنقه ؛ فضغط عليها من جديد بين ذراعيه ، وطبع على شفتيها قبلة حارة . ولكنه فى نفس اللحظة سقط تحت قدميها صائحاً : « شرلوت ، هل تغفرين ؟ »

هذه القبلة التى تجاسر صديقها على طبعها ، والتى قابلته هى بمثلها تقريبا ، دعت شرلوت إلى التأمل فى نفسها . وضغطت على يده ، دون أن تنهض به ؛ ومع هذا فإنها انحنت نحوه ووضعت يدها على كتفه وصاحت :

« ليس فى وسعنا أن نحول بين هذه اللحظة وبين أن تكون فترة حاسمة فى حياتنا ؛ لكن يتوقف على إرادتنا نحن أن تكون هذه الفترة جديرة بنا . يجب أن ترحل يا صديقى العزيز ، وسترحل . فإن الكونت يعنى بإصلاح حالك : وهذا يسرنى ويملأنى غما . ولقد شئت أن أكتمك هذا إلى اللحظة التى يصير فيها الأمر يقيناً . وهذه اللحظة تحملنى على أن أكشف لك عن هذا السر . إننى لا أستطيع أن أغفر لك ، ولا أن أغفر لنفسى خصوصاً ولدينا الشجاعة على تغيير مركزنا ، ما دام ليس فى أيدينا أن نغير عواطفنا » .

وما تفوهت بهذه العبارات حتى أنهضت الكابتن ؛ واستندت إلى

ذراعه ، وعادا إلى القصر صامتين وها هى ذى الآن فى غرفة نومها ، حيث يجب عليها أن تشعر وتعترف بأنها زوج إدورد . وفى وسط هذه المتناقضات أعانها على تحمل حالها خلقُها المتين الذى حنكته ألوان من التجارب مختلفة . وهى قد كان من عادتها أن تحاسب نفسها وتضبط عواطفها ، فاستطاعت هذه المرة أيضاً ، فى غير مشقة ، أن تقترب من الاتزان المطلوب ، بواسطة تأمل جادّ ؛ بل إنها لم تملك نفسها من الابتسام وهى تفكر فى تلك الزيارة الليلية الغريبة . لكنها سرعان ما انتابها شعور توقع غريبٌ ، وقشعريرة قلقة مسرورة معاً ، تحولت إلى رغبات وَرِعة وآمال واسعة الرجاء . لقد غلبها التأثر فخرت راكعة وكررت القسم الذى نطقت به لإدورد أمام المذبح . والصداقة والحب والزهد ، كل هذا تبدى لها فى صور براقة باسمة ؛ فأحست بتجديد فى باطنها ؛ وسرعان ما تولاها فتور عذب ورقدت فى نعاس هادئ .

الفصل الثالث عشر

أما إدورد فقد كان فى طور مختلف عن هذا كل الاختلاف . فهو لا يكاد يفكر فى النوم ، حتى إنه لم يخطر بباله أن يخلع ملابسه . وها هو ذا يطبع آلاف القبلات على نسخة الوثيقة ، أو مستهلها على الأقل ، حيث تتجلى يد أوتيلى فى طفولة وحياء ؛ أما الجزء الأخير فهو لا يكاد يجرؤ على تقبيله ، لأنه يتوسم فيه خطه هو آه لو كانت هذه الصفحات تدور حول موضوع آخر ! هكذا قال لنفسه . ومع هذا فهى فى نظره الشاهد السعيد على أن أعز أمانيه قد تحقق . وهذه الصفحات ستظل فى يده ؛ فلا يستطيع

دائماً إلا أن يضغط بها على قلبه ، على الرغم من أنهـا ستدنّس بتوقيع شخص ثالث !

وكان القمر قبل انحداره مضيئاً فوق الغابة ؛ والليل الفاتر يدعو إدورد إلى الخروج ؛ وها هو ذا يغدو ويروح من كل ناحية ؛ وهو أشد الناس اضطراباً وسعادة معاً . يجول فى البستان ، فيشعر بالضيق ؛ ويجرى فى الريف فيحس بزيادة الابتعاد . فيعود إلى القصر ، فيجد نفسه تحت نوافذ أوتيلى . وهناك يجلس على سُلّم سُطح ، ويقول فى نفسه :

« إن جدراناً وأقفالا تفصل بيننا الآن ، لـكن قلوبنا لا تنفصل . لو كانت أمامى ، إذاً لسقطَتْ بين ذراعىّ ، وسقطْتُ أنا بين ذراعيها ؛ وماذا أرغب فيه أكثر من يقينى بهذا ؟! »

سكن كل شىء حوله ؛ فلا نسيم للريح ؛ والهدوء قد بلغ من العمق مبالغ تجعل فى مقدوره أن يسمع حركة الحيوان تحت الأرض ، هؤلاء المعدّنون الذين لا يكلون ، والذين يتساوى لديهم الليل والنهار . ثم غَرِق فى أحلامه السعيدة ، وأخيراً نام ؛ وحينما استيقظ كانت الشمس قد تبدت بكل روعتها وجلالها وبددت أبخرة الصباح .

وكان أولَ الناهضين من النوم فى ضياعه ؛ وتبدى له العمال متأخرين . وأقبلوا : فوجدهم قِـلّة ضئيلة ووجد العمل المنوط بهم ذلك اليوم قليلا كل القلة فى نظر رغباته . فطلب استحضار عدد أكبر من العمال : فوُعِـد به ، وأُتِى بهم خلال النهـار . لـكنهم هم أيضاً لم يكونوا كافين لـكى يرى مشروعاته منجزة بسرعة . بل العمل نفسه لم يعد يبعث فى نفسه أية لذة : فيجب إتمام كل شىء حالاً وبلا أدنى تأخير . ولمن ... ؟ يجب أن تعبّد الطرق ، كى تسير عليها هى بسهولة ويُسر ؛ وأن توضع المقاعد فى

أما كنها ، كى تستطيع أن تستريح . وهو يستحث بكل ما فى مقدوره إنجاز الأعمال الخاصة بالمنزل الجديد ؛ ويجب إقامة القوائم الخشبية فى يوم عيد ميلاد أوتيلى ، ولم يعد إدورد يلتزم حدوداً لا فى عواطفه ولا فى أفعاله. فإن فكرة أنه يُحب ويبادَل هذا الحب قد دفعت به إلى غير نهاية . آه ! لشدَّ ما تغيرت المنازل والأجواء المحيطة فى ناظريه ! إنه لا يجد نفسه بعد فى منزله الحقيق . فإن حضرة أوتيلى قد ابتلعت كل ما عداها عنده ؛ فهو لا يحيا إلا فيها ؛ ولا فكرة لديه إلا فيها ، ولم يعد ضميره يحدثه بعد ؛ وكل ما كان مقيداً فى نفسه حطم قيوده ، وتدافع كل كيانه نحو أوتيلى .

ولاحظ الكابتن حركاته العاطفية المشبوبة ، وود لو استطاع أن يلوى عِنانه عن نتائجها المشئومة . فكل هذه الأعمال التى عُجِّل بها فوق كل حد تحت تأثير اندفاع مُفْرِط ، قد قدرها هو وحسبها من أجل جماعة من الأصدقاء الهادئين . وبيع الضيعة المستكراة قد تم بفضل اهتمامه ، ودفع القسط الأول ، وأودعته شرلوت فى خزانتها وفقاً لما تعاهدوا عليه . لكن من الأسبوع الأول شعر بوجوب زيادة التنبة والنظام والصبر أكثر مما اعتاد ، لأنه إذا استمر العمل بهذا الاندفاع والسرعة ، فإن المبلغ المرصود لن يكفى طويلا لذلك .

لقد شرعوا فى عمل الكثير ، وبقى لديهم الكثير ؛ فهل يستطيع الكابتن أن يترك شرلوت فى هذا الموقف ؟ فاشتوروا وقر الرأى على أن الأفضل هو التعجيل بالأعمال المتفق عليها ، والاقتراض من أجل إتمامها ، وتحديد الدفع وفقا لمواعيد حلول الأقساط الباقية من ثمن الضيعة المبيعة . وهذا يمكن أن يتم دون خسارة ، بواسطة التنازل عن هذه الحقوق ، فتكون أيديهم أكثر حرية وطلاقة ، ويكون فى وسعهم القيام بأكثر من عمل

فى آن واحد ، ما دامت الأعمال جارية والعمال متوفرين ، فيستطيعون الفراغ منها بكل سرعة وتأكيد . ورافأهما إدورد بكل ارتياح على رأيهما ، لأنه يتفق وأغراضه .

ومع هذا فقد أصرت شرلوت فى أعماق قلبها على آرائها وتصميماتها ؛ ولما كان صديقها يشاركها نفس الشعور ، فقد آزرها بكل شجاعة . ولكن هذا لم يفعل إلا أن زاد فى خلوتهما ومؤانستهما . فأجالا الرأى سويا فى مسألة عاطفة إدورد ، فكانت مدار حديثهم . وقربت شرلوتُ أوتيلى من شخصها ، ولاحظتها عن قرب ؛ وكلما عرفت حال قلبها هى نفسها ، زاد نفوذها وفهمها لقلب تلك الفتاة . فلم تجد وسيلة للنجاة خيراً من إبعادها .

وكانت فرصة سعيدة فى نظرها أن ترى لوسيان وقد وشّحها أهلُ مدرستها حُلَل الثناء والإطراء ؛ لأن أخت جدتها ما كادت تسمع بهذا المديح حتى أرادت أخذها لديها لتبقى عندها دائماً كيما تدخلها فى المجتمعات والمحافل . هنالك يتيسر لأوتيلى أن تعود إلى المدرسة . والكابتن بدوره سيرحل مزوّداً بمركز محترم . وهكذا سيسير كل شىء كما كان سائراً من قبل بضعة شهور ، بل وعلى وجه أحسن . وأمّلت شرلوت أن تصلح من صلاتها بإدورد ؛ فرتبت كل شىء فى ذهنها على نحو من الحكمة وحسن التدبير حتى إنها ازدادت اقتناعاً بالفكرة الزائفة ، فكرة إمكان العود إلى الحياة المحدودة النطاق ، وأن الوجدان المنطلق سيلتزم عما قليل حدوده .

بيد أن إدورد أحس بشدة وطء العقبات التى وضعت فى طريقه . وسرعان ما لاحظ أنه يُباعَد بينه وبين أوتيلى ؛ وأنه يضيّق عليه الخناق حتى لا يتحدث إليها على انفراد ، بل أن يقترب منها ، اللهم إلا فى حضرة

أشخاص آخرين . ومن سخطه على هذا المسلك ، تأوّن حَنَقاً على كل شيء . وإذا استطاع أن يوجه إليها بعض كلمات عابرة ، فلم يكن هذا لمجرد توكيد حبه إياها ؛ بل كان أيضا من أجل الشّكاة لها من زوجته ومن الكابتن . ولم يشعر بأن اندفاعه سيفضى حتما إلى استنفاد المال الموجود ؛ فكان دائم التثريب على شرلوت وصديقها — تثريب ممزوج بالمرارة — لأنهما يسلكان فى هذه المسألة مسلكا يتنافى مع ماتعاقدوا عليه أول الأمر . ومع هذا فقد أبدى موافقته على الترتيبات الجديدة ، بل كان هو الباعث عليها المؤكد لضرورتها .

البُغض مُغْرِض ، ولكن الحب أشد إغراضا منه . فإن أوتيلى تبدت بدورها أنها تتباعد عن شرلوت والكابتن . وذات يوم كان إدورد يشكوه إلى أوتيلى قائلا إنه لا يسلك مسلك الصديق ولا يخلص كامل الإخلاص فى هذه المسألة ، فأجابته أوتيلى بغير تدبر ولا تفكير :

— لقد أزعجنى من قبل أنه تعوزه الصراحة معك . فلقد سمعته يوما يقول لشرلوت : « بودى لو رحمنا إدورد من نايه ؛ وهو لن يكون ماهراً فى العزف عليه ، ومثل هذا تستك منه المسامع » . وفى وسعك أن تحكم إلى أى مدى جرحتنى هذه الكلمات ، أنا التى أجد لذة ما بعدها لذة فى مصاحبتك عليه .

ولم تكد تنطق بهذه الكلمات حتى أحست بالحكمة توحى إليها فى أذنها أنه كان الأخلق بها أن تسكت ؛ ولكن الأقوال خرجت من لسانها فاربدّ وجه إدورد إذ لم يشعر بأن شيئا ما قد بلغ من إيذائه وجرح إحساسه مثل ما فعل هذا . فقد أُهين فى أعز أهوائه . فأحس بمنافسة طفولية لا يمازجها أى ادعاء . وقد كان على أصدقائه أن يحابوه فيما يسره ويشيع

عنده اللذة . ولم يفكر ولم يقدر مدى ما يصيب الآذان من أذى وعذاب من جانب عازف وضيع المنزلة مخفوض المكان . لقد أهين فاستشاط غضباً ووَغِر صدرُه إلى حد لا يمكن معه الصفح . فأحس بأنه حرٌّ من كل واجباته .

وفى كل يوم يزداد شعوره بالحاجة إلى أن يكون بالقرب من أوتيلى وأن يراها ، ويهمس فى أذنها بكلمات رقاق ، ويبثها طوايا نفسه . وقرَّ عزمه على أن يكتب إليها ، سائلا إياها تراسلا سريا . وكانت الوريقة الصغيرة التى كتب عليها هذا الاقتراح فى كلمات قصار موضوعة فوق مكتبه ، وإذا بتيار هواء يدفع بها إلى أرض الغرفة فى اللحظة التى جاءه فيها خادم ليمشط شعره . وكان من عادته أن يختبر حرارة المكواة بأوراق يلتقطها من فوق الأرض ، وفى هذه المرة أخذ البطاقة وقبض عليها بالملقاط بشدة ، فاحترقت البطاقة . فلما شاهد سيدُه خطأه ، انتزعها من بين يديه . وبعد قليل حاول أن يكتب بطاقة أخرى ، ولكن لم يسل بها قلمه بنفس السهولة : فقد أحس إدورد بشىء من تأنيب الضمير وشائبة من القلق ، استطاع مع هذا أن يتغلب عليهما . وأزلق البطاقة فى يد أوتيل حينما استطاع الاقتراب منها .

وما عَتَّمت أوتيلى أن ردَّت عليه لفورها . وقبل أن يتيسر له قراءة بطاقتها الصغيرة ، وضعها فى جيب صدريه ، وقد كان قصيراً على أحدث طراز ، فلم يستطع الاحتفاظ بالورقة جيداً ؛ فانزلقت وسقطت دون أن يشعر . ولكن شرلوت رأتها فالتقطتها وقدمتها إليه بعد أن ألقت عليها نظرة عابرة ، قائلة : خذ هذا فهو مما خططته بيمينك وقد تحزن لفقده .

فاستولى عليه الذهول . وقال لنفسه : أهى تخفى شيئا ؟ وهل رأت ما تحتويه هذه البطاقة ، أو هى قد خُدعت بتشابه الخطوط ؟ ورجَّى أن

يكون الفرض الأخير هو الصحيح . لقد نبه وحذّر مرتين ، ولكن هذه العلامات الغريبة ، العرَضية التي يبدو أن كائنا أعلى يتحدث إلينا عن طريقها ، هذه العلامات لم يستطع وجدانه أن يفهمها ؛ وكلما دفع به هذا الوجدان إلى أبعد ، ازداد شعوره الأليم بالضيق الذى لاح له أنه يفرض عليه . فتبدد الائتناس الرقيق وأُرّج على قلبه بالأسداد ، وحينما كان يضطر إلى الوجود فى حضرة صديقه وزوجه ، لم يكن فى وسعه أن يستعيد فى فؤاده ذلك الحب الأول الذى كان يستشعره نحوهما ، ولا أن يحييه من جديد . وكانت ألوان التثريب المستور الذى كان يستشعره بالرغم منه فى هذا الصدد ، ثقيلة على نفسه ، وحاول جهده التخلص منها بنوع من المرح ليس له لطفه المعتاد ، لأنه خلا من الحب .

أما شرلوت فقد نجت من كل هذه المِحن بفضل حالة قلبها المستورة . وأحست بأنها قد طوت كَشحها بكل جِدٍّ على أن تزهد فى أنبل عاطفة وأحلاها .

وكم كانت تود أن تكون هى نفسها فى عون هذين العاشقين ! فالبعاد — لقد أحست بهذا جيداً — لن يكفى لعلاج مثل هذا الداء العُضال . فخطر ببالها أن تواضع هذه الفتاة المسكينة (أوتيلى) الرأىَ ، بيد أنها لم تستطع أن تقطع عزمها على هذا المسلك : فإن ذكرى ناحية ضعفها هى تقف فى طريقها . فحاولت أن تعبر عن نفسها فى هيئة قضية عامة ، ولكنها وجدت أن أقوالها تنطبق على حالتها هى أيضا ، وهى تخشى أن تصفها لنفسها . فكل النصائح التى تريد أن تسديها إلى الفتاة ترتد على قلبها وشجونه . إنها تود أن تبذل النصح ، لكنها تشعر بأنها لعلها هى الأخرى فى حاجة إلى أن تُمْحَض صادق النصيحة .

فلاذت بالصمت ، واستمرت تسعى فى المباعدة بين العاشقين . غير أن الإشارات الخفيفة التى تند عنها أحياناً لا تؤثر فى أوتيلى ، لأن إدورد كان قد أقنعها بأن شرلوت مستهامة بالكابتن ، وأنها تريد من جانبها أن تحصل على طلاق ، لا يفكر فى إنفاذه إلا بطريقة تتفق والكرامة وحسن الآداب .

أما أوتيلى ، وقد سندها شعورها ببراءتها فى مسلكها نحو السعادة ، وهى قبلة كل آمالها ، فإنها لم تعد تحيا إلا من أجل إدورد . فثبتت قدمها فى كل ما هو خير بفضل ما تحملته نحوه من حب ، وأقبلت على العمل بسرور جديد صادر عن وحيه ، وازداد تفتحها لجميع الناس ، فأحست بجنة النعيم على الأرض تقيم .

وعلى هذا النحو استمروا جميعاً يسايرون ركب الحياة ، كل وفق ما يهوى ، دون ما تفكير أو بشىء منه . ولاح كل شىء كأنه يتابع سيره المعتاد : كما يحدث فى المواقف الخطيرة الرهيبة التى يكون فيها كل شىء هدفاً للفرار ، أن يتابع الناس مجرى الحياة وكأن لم يحدث شىء .

الفصل الرابع عشر

وصلت رسالة من الكونت إلى الكابتن ، أو بالأحرى رسالتان : إحداها قابلة للنشر وفيها إشارة إلى آفاق جميلة واسعة فى المستقبل البعيد ؛ والأخرى تنطوى منذ الآن على عَرض حاسم لمنصب هام فى الإدارة والبلاط ، مع رتبة صاغ ، ومرتب ضخم ومزايا أُخر ، وهذه الرسالة لا يجب أن تذاع لاعتبارات خاصة . لهذا أنبأ الكابتن أصدقاءه بنبأ تلك

الآفاق الواسعة فى الآجل ، وأخفى عنهم العرض العاجل .

لـكنه استمر مثابراً فى أعماله الحاليـة وهيأ اللازم — سراً — لـكى يسير كل شيء فى طريقه دون عائق أثنـاء تغيبه . فأهمه آنذاك أن يعين أجلا لـكثير من الأعمال وأن يعجـل عيدَ ميلاد أوتيلى بإتمامها .

ومنذ ذلك الحين والصديقان يعملان سويا بغيرة وحماسة ، وإن لم يكن هذا باتفاق صريح . فإدورد قد اغتبط لرؤية صندوق المال ممتلئاً ، بواسطة مبالغ حصِّلت معَجّلة ؛ وأجذله أن يرى العمل كله يسير سيراً وَحِيّاً .

ولقد كان الـكابتن راغباً فى صرفهم الآن عن تحويل الغدران الثلاثة إلى بحيرة . إذ كان من الواجب تقوية السد السفلى ، ورفع السدود الوسطى ، وكانت هذه مهمة جدية شاقة من عدة نواح . ولـكن العملين ، وقد كان كل منهما يساعد على الآخر ، قد بدآ فعلا ؛ ولحسن الحظ وصل تلميذ قديم لصديقنا ، وهو مهندس معمارى شاب استطاع أن يتقدم بالعمل إما باستخدام صناع ماهرين أو بإعطاء الأعمال على هيئة مقاولات ، ووعد بأن يكون لهذا العمل رسوخ ودوام . وطاب قلب الـكابتن سِراً لأنهم لن يشعروا بغيبته ، إذ هو قد اتخذ لنفسه قاعدة أن لا يترك عملا ناقصاً كلِّف به قبل أن يرى أن محله شُغِل على وجه مناسب ؛ وكان يزدرى هؤلاء الذين يلذ لهم أن يُشْعِروا الناس بارتحالهم فيبـدأوا بإثارة الاضطراب فى تلك الأعمـال التى يديرونها ؛ إنهم أثرون جفاة غلاظ يسرهم أن يقضوا على الأعمال التى لن يتموها بأيديهم .

وهكذا استمر العمل دون إبطاء ولا انقطاع ، من أجل الاحتفال بعيد ميلاد أوتيلى ، دون أن يُصرّحوا بهذا علناً . غير أن شرلوت ، وإن كانت بعيدة عن عواطف الغيرة ، فإنها رأت من الواجب ألا يكون هذا العيد حافلا

نحها . فإن شباب أوتيلي وقلة يسارها ، وطبيعة صلتها بالأسرة لا تخوّل لها أن تظهر فى هيئة ملكة احتفال . بل يجب أن يصدر كل شيء عن طبيعته وأن يسبب مفاجأة وسروراً طبيعيا .

فتم الاتفاق ضمنياً على المناسبة : ففى ذلك اليوم تنصب قوائم بيت النزهة ، دون أن يلوح أن هناك غرضاً آخر ، وبهذه المناسبة يمكن أن يعلن عن احتفال لأهالى القرية والأصدقاء على السواء .

بيد أن عاطفة إدورد لم تعرف بعدُ حداً . فلقد أراد أن يتملك معشوقته فلم يضع حداً لسخائه وهداياه ووعوده . أما شرلوت فقد أشارت عليه باقتراحات متواضعة جداً تتعلق ببعض الهدايا التى أراد تقديمها إلى أوتيلى فى ذلك اليوم . لهذا تحدث فى الأمر مع خادم غرفته الذى كان يعنى بخزانة ملابسه ، كما كان على اتصال دائم بالتجار وأهل الأزياء . فأوصى هذا الرجل ، الذى كان يعرف كيف يختار الهدايا الفاخرة ويقدمها كما يجب ، بأجمل صندوق فى المدينة ، مغطى بالجلد المراكشى الأحمر ، ومزود بمسامير من الصلب ، ثم مُلىء بهدايا جديرة به .

واقترح على إدورد اقتراحا آخر ، فلقد كان فى القصر قليل من الصواريخ النارية التى أهملت منذ زمن ولم تُطلق ؛ وكان من الميسور زيادتها وتوسيعها . فاغتبط إدور بهذه الفكرة ، ووعد الخادم بالإشراف على تنفيذها . وكان يجب أن يظل هذا الأمر سراً .

وقبل اقتراب ذلك اليوم أَرْصَد الكابتن الأهبة لصيانة الأمن فى ظرف كهذا يدعى فيه جمع كبير فى مكان واحد . بل احتاط أيضاً لإبعاد المتسولين وغيرهم من المقْلقين الذين يمكن أن يعكروا صفو لذات عيد .

وإدورد من ناحيته قد شغل هو وأمين سره (خادم غرفته) بإعداد السواريخ النارية ، فقدرا إطلاقها ناحية الغدير الأوسط قبالة أشجار البلوط الكبرى ؛ وأمامها ستجلس الجماعة تحت أشجار الدُّلب ، كيما يكون فى وسعها أن ترى المنظر على بعد مناسب من دون تعرض لخطر ، وأن تتملى بانعكاساتها فى الماء وبما يسبح فوق السطح منها وهو يحترق .

ولعذر أو لآخر أمر إدورد باقتلاع الموسَّج والحشائش والطحلب من تحت الدُّلب ، فتبدت الأشجار فى تمام روعتها وكمال فتنتها فوق المكان الوضىء النظيف . فأحس بهزة سرور كبرى . وقال لنفسه : « فى مثل هذا الفصل غرستها . لكن كم من السنين مضت ؟ » وما كاد يعود إلى القصر حتى تصفح اليوميات القديمة التى كان والده يسجلها بنظام فائق ، خصوصاً وهو فى الريف . بيد أنه لم يكن من الممكن أن يذكر هذا الغرس فيها ؛ لكن حادثاً منزلياً على جانب من الأهمية ، جرى فى نفس اليوم ، وهو يذكره تمام التذكر ، لا بد أن يكون قد سُجل فيها . فتناول بضعة مجلدات ، وجد بها تسجيل الحادث . وفى وسع المرء أن يقدر كم كانت دهشته وكم كان سروره ، حينما اكتشف أعجب اتفاق زمانى : إذ وجد أن اليوم والسنة اللذين غُرِست فيهما هذه الأشجار هما بعينهما اليومُ والسنة اللذان ولدت فيهما أوتيلى .

الفصل الخامس عشر

وأخيراً تلألأ الصبح الذى انتظره إدورد بصبر نافد . وأقبل الضيوف أفواجاً تلو أفواج ، لأن الدعوة قد أرسلت فى نطاق واسع ، وكثير من

الناس الذين أهملوا حضور الاحتفال بوضع الحجر الأساسى — وقد كان احتفالا عاد منه الجميع بأطيب الذكريات — لم يشاءوا أن يضيع هـذا الاحتفال الثانى . وقبل الغداء ، لاح النجارون فى فناء القصر ، تسبقهم الموسيق ، وهم يحملون إكليلهم الثمين المكون من أطواق عديدة من الأوراق والأزهار المنسقة على هيئة طبقات يتراقص بعضها فوق بعض . ثم أنشدوا تحيتهم والتمسوا من النسوة أن يقدّمن مناديل حريرية وشُرُطاً من أجل الزينة المعتادة . وبينما كانت الجماعة تتناول طعام الغداء ، استمروا فى موكبهم الصاخب ؛ وبعد أن تلبّثوا فى القرية مليًّا ، حيث حصلوا من النسوة والفتيات على بعض الشُّرط أيضاً ، بلغوا أخيراً ، يصحبهم جمع حافل ، اليفاعَ الذى ارتفع عليه المنزل .

ودعت شرلوت الجماعة إلى المكوث قليلا بعد الغداء ؛ فهى لم تشأ تسيير موكب رسمى منظم ؛ لهذا مشى الضيوف جماعات صغيرة بلا تتابع ولا نظام إلى المكان المعَدّ دون جلبة ولا ضوضاء . وبقيت شرلوت فى المؤخرة هى وأوتيلى . لكن هذا لم يكن من شأنه أن يحقق مقصودها ، فإنه لما كانت الفتاة (أوتيلى) قد ظهرت فى المؤخرة فقد لاح أن الأبواق والدُّفوف لم تكن تنتظر إلا مجيئها ، وكأن الاحتفال لم يكن ليبدأ إلا عند قدومها .

ولكى يزول عن المنزل مظهره الخشن فقد زُيّن بالأغصان والأزهار فى فن وأناقة ، وفقاً لما أشار به الكابتن . ومع هذا فإن إدورد ، على غير علم من الكابتن ، قد دعا المهندس لرسم التاريخ على الواجهة بواسطة أزهار . ولقد كان هذا مقبولاً ، غير أن الكابتن أتى فى الوقت المناسب للحيلولة دون تلؤلؤ اسم أوتيلى على فواصل الواجهة ؛ فاستطاع بمهارة أن يمنع منه وأن يُنحِّى الحروف من الزهر بعد أن كانت قد أُعِدت فعلا .

ورفع التاج وتبدى من بعيد فى هذا الإقليم . ورفرفت الشُّرُط والمناديل العديدة الألوان وتلاعبت بها الرياح ؛ وتبدد الشطر الأكبر من خطبة قصيرة أُلقيت فى الهواء ؛ وقارب الاحتفال الرسمى نهايته ؛ وكان الرقص بسبيل الابتداء ، فوق مكان أحيط بالأوراق ومُهد خير تمهيد ، يقوم قُبالة المنزل . واقتاد نجارٌ شاب ، فى لباس العيد ، فتاة ريفية رقيقة إلى إدورد ، والتمس من أوتيلى ، وكانت إلى جواره ، أن تراقصه . وسرعان ما قلدهما الكثيرون . وأسرع إدورد باستبدال مراقِصته . فأمسك بأوتيلى ورقص معها رقصة الدائرية (الفَلْتِس) . وشارك شباب الجماعة فى سرور ومرح الشعب فى رقصاته ، بينما استدار الكبار حول الراقصين .

وقبل أن يتفرق الشمل للتريض ، اتفقوا على الاجتماع ناحية الدُّلْب عند مغيب الشمس . وكان البارون أول الواصلين ، فنظم كل شىء وتفاهم مع خادم غرفته ، وقد كان عليه أن يسهر على التنفيذ وهو قائم على الناحية الأخرى مع عامل السواريخ .

بيد أن الكابتن لم ينظر إلى هذه الإعدادات بعين الرضا والسرور ، وشاء أن يصور لصديقه الازدحام الكبير المنتظر ؛ لكن إدورد سأله ، بشىء من الحدة ، أن يدعه وحده يشرف على هذا الجزء من برنامج الاحتفال .

وها هو ذا الجمع قد احتشد فوق السدود التى قطع أعلاها وأزيلت الحشائش منها فى الأماكن التى كانت الأرض فيها غير ممهَّدة ولامستوية . وغابت الشمس ، وولد الشفق ، وفى انتظار زيادة الإظلام أديرت المرطبات على المجتمعين تحت الدُّلب . وتبدى هذا المكان موفور الفتنة والجمال ، وسُرّ القوم بفكرة إمكان تأمل بحيرة كبيرة من هذا الموضع ، بحيرة تعلوها شطئان رائعة .

وكانت أمسيةٌ ساجية لا تعلو فيها الريح ، بَشّرت بإنجاح العيد الليلى ، وإذا بصرخات مريعة تتردد فى الحال فجأةً : فقد انهارت قطع ضخمة من الأرض وانفصلت عن السد ؛ وشوهد كثير من الناس يُدفع بهم فى الماء ؛ وتداعت الأرض تحت ضغط الحشد وتدافعه ، وقد ازداد شيئاً فشيئا ؛ فقد شاء كلٌّ أن يحظى بخير موضع ، ولم يستطع أحد بعدُ أن يتقدم أو يتقهقر .

وهُرع الجمع للنظر أكثر منه العمل . وأيم الحق ، ماذا كان فى الوسع عمله حيث لم يكن من الميسور بلوغ المكان الذى وقع الحادث فيه؟ وأقبل الكابتن ومعه رجال أشدّاء ، وأمر الجميعَ بالنزول من السد إلى ناحية الشطئان ، كيما تتسع فرصة العمل لهؤلاء الذين حاولوا إنقاذ الغرقى المساكين من الماء . وها هم جميعاً أولاء قد استطاعوا بلوغ الشاطئ ، إما بجهودهم الخاصة أو بمعونة الآخرين ، اللهم إلا فتى صغيراً حملته حركاته المتدافعة على الابتعاد عن السد بدلاً من الاقتراب منه . ولاح أن قواه خانته ، فلم يكن يُشاهد منه أحياناً إلا قدم أو يد لا تزال تتراءى .

ولسوء الحظ كان الزورق فى العُدوة الأخرى ، مليئاً بالسواريخ . ولم يكن فى المستطاع تفريغ حمولته إلا ببطء ، فكان لا مناص من محاولة إسعافه فى التو . هنالك عزم الكابتن على النهوض بهذا الأمر ، فخلع ملابسه ، وشخصت كل الأبصار إليه ، وبعث قوامه المَرِن العصبى الثقةَ فى نفوس الجميع ؛ غير أن هؤلاء أرسلوا صيحة دهشة واستغراب حينما رأوه يلقى بنفسه فى الماء . فتابعت كلُّ النظرات هذا السباحَ الماهرَ الذى سرعان ما ظفر بالفتى الصغير وعاد به إلى السد ، لكن لم يبد عليه أثر الحياة .

وبقوة المجاديف أُتِى بالزورق ، فصمده الكابتن ، واستعلم بدقة من

الأشخاص الحاضرين عما إذا كان الكل قد أُنْقِذوا . ووصل الجراح وعُنى بالصبى الذى ظن الكل أنه مات . وهُرعت شرلوت سائلةً الكابتن ألا يفكر بعدُ إلا فى أمر نفسه ، وأن يعود إلى القصر لاستبدال ملابسه . فتردد إلى أن صرح أشخاص هادئون أذكياء رأوا الحادث عن قرب وأسرعوا هم أنفسهم بانتشال المساكين من الماء — صرحوا له بكل محرجة من الأَيمان أن الجميع قد نَجَوْا .

وشاهدته شرلوت وهو يغدو إلى المنزل ؛ وأفكرت فى أن الخمر والشاى وكل ما هو ضرورى قد أُغلق عليه بمفتاح ، وفى أن النـاس فى مثل هذه الأحوال يعملون كل شىء على عكس ما يجب . فَعَدت وسط الجماعة المشتتة وقد كانت هـذه الجماعة لا تزال ماثلة تحت أشجار الدُّلب ؛ ورأت إدورد مشغولا بإقناع كلٍّ بالبقاء ، وقد أوشك على إعطاء الإشارة لإطلاق السواريخ . فاقتربت منـه وتوسلت إليه أن يصرف النظر عن أُلْهية لن يكون هذا موضعها ولم يكن من المستطاع التمتع بها فى تلك الساعة ؛ وذكّرته بالعناية التى يجب بذلها للصبى المُنْقَذ ولمُنقِذه .

فأجاب إدورد : « سيقوم الجراح بواجبه . فقد زُوِّد بكل شىء ، ولن يكون من شأن استعجالنا إلا مضايقته » .

غير أن شرلوت أصرّت ، وأشارت إلى أوتيلى ، فتهيأت هذه لمغادرة المكان تواً . فأمسك إدورد بيدها وصاح : « لن نُنهِى هذا اليوم فى المستشفى . إن فيها من الخير ما يُؤَهِّلها لأن تكون من أَخَوات الإحسان . والذين يتبدون موتى ليسوا فى حاجة إلينا كيما يستيقظوا ، كما أن الأحياء فى غير حاجة إلينا كيما يجففوا أنفسهم » .

فالتزمت شرلوت الصمت ومضت ، يتبعها الكثيرون ، ويتلوها

آخرون ، ولم يشأ أحد أن يكون آخر الذاهبين ، وقليلاً قليلا تبدد الجمع . ولم يبق إلا إدورد وأوتيلى وحدهما تحت الدُّلْب . لقد شاء أن يظل هاهنا مهما كان الأمر ، على الرغم من شدة توسلاتها وحرارة تضرعاتها إليه أن يعود معها إلى القصر .

وصاح : « كلا ، أوتيلى ! فإن الخارق للعادة لا يسلك السبل الممهدة المعتادة . فإن هذا الحادث غير المتوقَّع الذى جرى هذا المساء قد وحَّد بيننا بطريقة أسرع . إنك لى ، هكذا قلت لك من قبل وأقسمت مراراً ؛ ولسنا نريد بعدُ أن نقسم به ولا أن نتفوه : فهذا شىء قد تم الآن » .

وتقدم الزورق من العُدْوة الأخرى : لقد كان به خادم الغرفة أتى يسأل ، بلهجة مضطربة ، عن مصير السواريخ .

« أطْلِقها ! هكذا صاح فيه البارون . لقد أُعدَّت من أجلك ، أى أوتيلى ! وستكونين وحدك من يشاهدها . فاسمحى لى بالتمتع بمرآها إلى جوارك » .

واتخذ مجلسه إلى جوارها ، بشىء من التحفظ الرقيق ، دون أن يَمَسَّها .

وانطلقت السُّهمان ، وترددت الطَّلَقات ، وتصاعدت النجوم ، واندفعت الأفاعى النارية وتلألأت ، وصَفَرت الشموس : فى البدء منفردة ومن بعد أزواجا ، ثم جماعات جماعات ، وفى كل مرة يزداد بريقها ، بالتوالى أو الكل معا . وتابع إدورد — موله الفؤاد — منظر هذه الشُّعل بعيون راضية زاهية ؛ أما أوتيلى ، وقد تأثرت برقة ، فقد شعرت بقلق أولى من أن تشعر بلذة أمام هذه النيران الصاخبة ، هذه البروق التى لم تكن تشتعل إلا لتنطفئ . فمالت إلى إدورد فى استحياء ، وملأه هذا الميلُ ، وهذه الثقة ، يقينا بأنها قد صارت له بكل كيانها .

وما تربع الليل عرشه حتى أشرق القمر ليضيء سبيل العاشقين وهما يعودان إلى القصر . ثم اعترض طريقهما رجل ، قبعته فى يده ، سائلا إحساناً ، لأنه أُهمل فى يوم العيد هذا . وقد أضاء القمر محياه ، وتوسم فيه البارون ملامح السائل الثقيل . لكن لما كان مفعماً آنذاك بالسرور ، فقد عز عليه الغضب ، ولم يخطر بباله أن التسول قد منع فى ذلك اليوم منعاً باتاً . ولم يفتش طويلا فى جيبه ، وأعطى المسكين قطعة من الذهب . لقد كان بوده أن يشيع السعادة فى جميع الناس ، لأنه أحس بأن سعادته لم تكن حينئذ ذات حد ولا نهاية .

وفى القصر سار كل شيء على ما يرام . فمهارة الجراح وسرعة الإسعاف ومعونة شرلوت ، كل هذا قد تضافر على رد الصبيّ إلى الحياة ، وتفرق الضيوف ، إما لرؤية شيء من السواريخ من بعيد ، أو ليأووا بعد هذا المنظر المضطرب إلى مخادعهم الوادعة .

والكابتن ، بدوره ، شارك مشاركة فعالة فى العناية اللازمة ، بعد أن أبدل ملابسه . وعاد السكون ، وصار وحيداً مع شرلوت . هنالك ، وبما للصداقة من ثقة وإخلاص ، صرح لها بأن رحيله قريب . وهى كانت قد عانت الكثير فى المساء ، حتى إن هذا الخبر لم يؤثر فيها كثيراً . لقد رأت تفانى صديقها ، وهو ينقذ الآخرين ، ورأيته ناجياً هو نفسه . فتبدت لها هذه الأحداث الغريبة كأنها تنذر بمستقبل خطير ، ولكنه ليس بائساً ولا مشئوماً .

كذلك أُنْبِيءَ إدورد ، وقد عاد مع أوتيلى ، بنبا هذا الرحيل القريب ، وحدَس أن شرلوت لا بد أن تكون قد علمت بالخبر قبله ، لكنه كان من الاشتغال بنفسه وبمشروعاته بحيث لم يشعر بإهانة من هذه الناحية .

بل بالعكس ، تلقى نبأ هذا المركز الجيد المحترم الذى سيوضع فيه الكابتن بسرور وشوق . لقد كانت آماله المستورة تسبق الحوادث بسرعة وحمية . وها هو ذا يتمثل اتحاده بشرلوت واتحاد نفسه بأوتيلى . وما كان لهدية خيراً من هذه أن تحظى منه بالقبول فى هذا العيد .

لكن كم كانت دهشة الفتاة حينما دخلت مخدعها فشاهدت الصندوق الثمين فوق منضدتها ! وسرعان ما فتحته ، فتبدى لها كل شيء محكم الحزم جيد التنسيق ، حتى إنها لم تكد تجرؤ على نقل شيء من مكانه ، أو المساس به . فالموصلىّ والقصبىّ (الباتستا) والحرير والشيلان والدنتلة كان ينافس بعضها بعضا فى الدقة والأناقة والجمال . ولم يُنس الحلى . ففهمت تمام الفهم أن إدورد قد قصد إلى أن يهيء لها لباساً كاملا من الرأس حتى القدمين ؛ بيد أنها وجدت كل شيء من النفاسة والنُّدْرة بحيث لم تجرؤ على الاعتقاد بأن هذا كله من أجلها .

الفصل السادس عشر

وفى الغد كان الكابتن قد ارتحل تاركا لأصدقائه رسالة مليئة بشواهد شكرانه العميم . لقد كان ودّع شرلوت فى المساء السابق بكلمات وداع قصار . فشعرتْ بأن هذا الانفصال سيكون إلى الأبد ، فاستسلمت : ذلك أن الرساله الثانية من الكونت — وقد أطلع الكابتنُ شرلوتَ عليها — قد تحدثت عن إمكان إيجاد زواج للكابتن موفّق ؛ وعلى الرغم من أنه لم يُعر هذه المسألة أىّ اهتمام فإنها هى قد عدّت هذه المسألة ثابتة يقينية ، فكفت عنه نهائيا .

بيد أنها اعتقدت أن فى وسعها أن تطالب الآخرين بالجهد الذى بذلته لنفسها . فما كان غير مستحيل بالنسبة إليها يجب أن لا يكون مستحيلا أيضاً بالنسبة إلى الآخرين . وتحت تأثير هذه الفكرة دخلت مع زوجها فى حديث كان فيه من الصراحة والإخلاص بقدر ما كان يجب الانتهاء من المسألة إلى غير رجعة .

قالت له : « لقد غادرنا صديقنا ؛ وها نحن أولاء من جديد فى مواجهة بعضنا بعضاً كما كنا من قبل ، ولا يتوقف إلا علينا أن نعود إلى ما كنا عليه من قبل تماما »

ولكن إدورد ، الذى لم يكن يستمع إلا إلى ما يتملق عاطفته ، ظن أن هذه الكلمات، من شرلوت يقصد بها الإشارة إلى حالة ترملهما ، وأنها تريد — وإن يكن ذلك بطريقة غامضة — منه أن يجعلها تؤمل فى طلاق . لهذا أجاب باسماً :

— ولم لا ؟ كل ما فى الأمر أن نتفاهم .

غير أنه وجد نفسه واهما ، حينما أضافت شرلوت قائلة : « أما فيما يتصل بأوتيلى ، فلكى نضعها فى وضع آخر ، فليس لنا إلا أن نختار إحدى خصلتين ، لأن أمامنا فرصتين لوضعها فى مركز مرغوب بالنسبة إليها . فهى إما أن تعود إلى المدرسة الداخلية ، ما دامت بنتى قد استقرت عند خالتها ؛ وإما أن تقبل فى بيت كبير ، كيما تتمتع ، هى وابنة وحيدة ، بكل مزايا التربية الممتازة .

— ومع هذا ، هكذا قال إدورد بلهجة فيها الكثير من الهدوء ، فإن أوتيلى قد صارت طفلة مدللة وسط أصدقائها ، وسيكون من الصعب عليها أن تنعم فى جماعة أخرى .

— لقد اتخذنا نحن جميعا عادات مرذولة ، هكذا قالت شرلوت ،

وأنت أولنا . لكن ها هى ذى لحظة تدعونا إلى التفكير ، وتنصحنا جديا بالتفكير فى أكبر خير لجميع أعضاء جماعتنا الصغيرة ، وعدم رفض القيام ببعض التضحية .

فعاد إدورد يقول : أقل ما فى الأمر أننى لا أرى من العدل أن نضحى بأوتيلى ، وهذا ما سيحدث لو ألقى بها الآن وسط أناس غرباء . إن نجم الكابتن السعيد قد سعى إليه هنا ؛ ففى وسعنا إذن أن ندعه يرحل فى اطمئنان ، بل وبسرور . أما هى ، فمن ذا الذى يدرى أى مصير خبىء لها ؟ لماذا نتعجل نحن الأمور ؟

— إن المصير المقدر لنا واضح ، بهذا أجابت شرلوت وقد غلبها شىء من الانفعال . ولما كانت قد استقر عزمها على التفاهم معه نهائيا ، فقد أردفت : « إنك تحب أوتيلى ، وتعودها على حضرتك ووجودك . وإن الحب والعاطفة ليولدان وينموان أيضا لديها . فلماذا لا تصرح إذاً عما تصرح كل ساعة تمر به وتكشف عنه ؟ أفلا نتحلى بشىء من الفطنة كيما نسائل أنفسنا ماذا سيؤول إليه كل هذا ؟

فقال إدورد وقد استجمع قواه : على الرغم من إنه ليس فى وسع المرء أن يجيب عن هذا السؤال فى الحال ، فيمكنه على الأقل أن يقول إنه إذا كان علينا أن نختار انتظار ما سيأتى به الغد ، فما ذلك إلا حينما لا نستطيع أن نتنبأ يقيناً بنتائج المسألة .

فأجابت شرلوت : للتنبؤ بنتائج هذه المسألة التى نحن بصددها ، لا حاجة إلى كبير حكمة : وعلى كل حال فيمكن أن يقال إننا لسنا من حداثة السن بالدرجة التى تجعلنا نمضى على غير هدى إلى حيث لا نريد ولا يجب علينا أن نذهب . ليس فى استطاعة أحد أن يسهر على أمورنا بعد ، بل يجب

أن نكون أصدقاء أنفسنا ، والمهيمنين عليها . وما من إنسان ينتظر منا أن نقع فى أشنع ضلال ، ولا أن يجد موضعا للوم أو السخرية .

فقال ، وهو لا يدرى كيف يرد على لهجة زوجته الصريحة المخلصة : « أتقدرين على لومى وتقريعى لأنى أهتم بسعادة أوتيلى ؟ لا بسعادتها المستقبلة ، فهذه فوق متناول تقديرنا ، ولكن بسعادتنا الحاضرة ؟ تصورى لنفسك ، بكل صراحة ، وبدون وهم ، أن أوتيلى قد انتزعت من منزلنا وألقى بها بين أحضان الغرباء ! . . . بالنسبة إلىّ على الأقل ، لا أشعر بأن عندى من القسوة ما يسمح لى بأن أفرض عليها مثل هذا التغيير » .

فرأت شرلوت بوضوح ، وراء تخفى زوجها وتوريته ، ماذا كان عزمه . هنالك أحست بمقدار ما يفرق بينها وبينه . فصاحت منفعلة :

— أيمكن أن تكون أوتيلى سعيدة ، إذا فرّقت بيننا ؟ إذا سلبتنى زوجى ؟ إذا انتزعت أباً من أولاده ؟

— فيما يتصل بأبنائنا ، هكذا قال إدورد بابتسامة باردة ، كنت أعتقد أننا أعددنا كل شىء .

ثم أضاف بلهجة فيها شىء من الصداقة والود أكثر : « من ذا الذى سيذهب به الفكر إذاً إلى مثل هذه النتائج البعيدة » ؟

— هذه النتائج البعيدة تمس العاطفة عن قرب ، هكذا لاحظت شرلوت . لا ترفض إذاً النصيحة الصادقة والمعونة التى أقدمها إليكما معاً ، قبل أن يفوت الأوان . فى الأحوال العسيرة يجب على من يرى على نحوٍ أوضح أن يعمل ويبذل العون . واليوم هذه حالى . فدعنى إذاً ، يا عزيزى إدورد ، يا أعز أعزائى ، دعنى أعمل . هل فى وسعك أن تطالب بأن أعزف فى الحال عن سعادتى المشروعة ، عن أعزّ حقوقى ، عنك أنت ؟

— من قال هذا ؟ هكذا عاد يقول فى شيء من التلعثم .

— أنت نفسك ! حينما تريد أن تحتفظ بأوتيلى إلى جوارنا ، أفلا تعترف بهذا ، بكل ما لا بد أن ينشأ عنه ؟ لا أريد الإلحاح ، لكن إذا لم تستطع أن تكبح جماح نفسك ، فإنك لا تستطيع على الأقل أن تخدع نفسك طويلا .

فشعر إدورد بمبلغ ما فى كلامها من صواب وسداد رأى . وإن الكلمة التى يتفوه بها المرء لخطيرة مريعة ، إذا عبرت فى الحال عن كل ما استباحه المرء لنفسه طويلا فى السر . ولكى يتخلص من الموقف قليلا أجاب : « لست أتبين بعدُ نيتَك » .

— نيتى أن أوازن معك بين الاقتراحين . ولكل منهما مزاياه . فالمدرسة الداخلية أكثر فائدة لأوتيلى بالنسبة إلى الحال التى فيها أرى اليوم هذه الفتاة ؛ لكن الموقف الآخر ، وهو أعظم وأجمل ، يبشر بما هو أفضل ، حينما أفكر فيما يجب أن تكون عليه يوماً ما .

هنالك عرضت شرلوت بالتفصيل لزوجها حقيقة المركزين ، وختمت بهذه الكلمات :

— وعندى أن منزل هذه السيدة أفضل لأسباب عدة ، أخص بالذكر منها أننى لا أريد أن أزيد فى ميل ، أو بالأحرى عاطفة المعلم الشاب نحو أوتيلى .

ولاح أن إدورد وافقها على رأيها ، لكن هذا كان من أجل كسب الوقت فحسب . وشرلوت من جانبها قد أرادت الوصول إلى شيء حاسم ، فانتهزت اللحظة التى لم يواجهها فيها بمعارضة مباشرة ، وحددت رحيل ابنة أختها على أن يكون فى الأيام القريبة العاجلة : وهى كانت قد هيأت كلّ

شيء فى السر .

فاستولت الرعدة على نفس إدورد ، وخُيِّل إليه أنه وقع فى شرك خيانة ، وظن أن اللغة الرقيقة التى تحدثت بها زوجه كانت مقصودة مدبّرة مصطنعة قد حُبِكت أطرافها من أجل إبعاده نهائياً عن ينبوع سعادته . فتظاهر بأنه يَدَع المسألة كلها بين يديها ، ولكنه فى الواقع قد بَيّت أمرا . فلكى يجد وقتاً للتنفس ، ويمنع الشقاء الماحق الماثل ، الشقاء الذى سيسببه ابتعاد أوتيلى ، صمم على مغادرة القصر ؛ ولم يتم هذا دون أن ينبئ شرلوت ببعض النبأ ، وإن استطاع مع هذا أن يخدعها مُدّعياً أنه لا يريد أن يكون حاضراً رحيلَ أوتيلى ، بل إنه لا يريد منذ الآن أن يراها . وشرلوت ، التى ظنت أنها كسبت المعركة كلها ، مَهّدَت له كل السبل . فأمر بإعداد جياده ، وأصدر إلى خادم غرفته الأوامر اللازمة ، وأوضح المتاع الذى يريد أن يحمله معه ، وبَيّن على أى نحوٍ ستكون صحبته ؛ وأخيراً وحينما كان على بتاتِ الرحيل جلس إلى مكتبه ، وخطّ الرسالة التالية :

من إدورد إلى شرلوت

عزيزتى :

ليت شعرى أنشفى من الداء الذى فاجأنا أم لا نشفى ؛ فلست أُحِس إلا بشيء واحد هو أن الواجب يقضى بأن أمنح نفسى ، بل نفسينا معاً ، هدنة ، كيلا نقع منذ الآن فى حبائل اليأس والقنوط . ومادمت أنا قد ضحيتُ ، فإننى أطالب بها . وهأنذا أغادر منزلى ولن أعود إليه إلا فى أحوال أكثر سعادة وهدوءا . وستقطنين أنت به خلال تلك الفترة ، لكن ومعك

أوتيلى . أريد أن أعلم أنها إلى جوارك ، لا عند قوم غرباء . فابذلى لها عنايتك ، وعامليها كما كنت تفعلين من قبل ، وإلى اليوم ، بل مع إحسان أكبر وزيادة فى الرقة والحنان . وأنا أعدك ألا أسعى فى إيجاد أية صله سرية معها . بل دعينى زماناً أجهل فيه كيف تحيين : فسأظن أن كل شىء سيسير على ما نهوى . وتمثلى نفسَ الفكرة عنى . لستُ أسألك إلا أمراً واحدا ، أسألك إياه بكل قوة وإلحاح ، وهو ألا تبذلى أى جهد أو محاولة لنقل أوتيلى إلى أى مكان ، أولتعديل وضعها . فإن خرجتْ عن نطاق قصرك وبُستانك ، وسُلمت لغرباء ، صارت ملكاً لى ، وظفرت بها . لكن إذا احترمتِ عاطفتى وأمانىّ وآمالى ، وإذا تملقتِ أوهامى وآمالى ، فلن أرفض الشفاء حينما يتقدم إلىّ .

وهذه الكلمات الأخيرة إنما جرت من قلمه لا من قلبه . بل إنه حينما رآها مخطوطة على الورق ذرف مُرّ العبرات . لقد كان عليه ، أيّاما كانت الحال ، أن يزهد فى السعادة ، بل فى الشقاء ، الذى سيأتى به حبُّه لأوتيلى ! هنالك ، وهنالك فحسب ، أحس بمدى ما فعل . إنه سيبتعد وهو لا يدرى ماذا سيحدث عن هذا الفراق . إنه لن يستطيع على الأقل أن يحظى برؤيتها الآن . وأى أمل يمكن أن يداعبه مؤكداً له أنه سيراها يوماً ما ؟ لكن الرسالة قد سُطّرت ، والخيول أمام الباب هُيِّئت ، وكان يخشى فى كل لحظة أن يلتقى بحبيبته ، وأن يرى فى الآن نفسه عزمه قد تلاشى وغار . فاستجمع كل قواه ، وقال لنفسه إنه يستطيع على كل حال أن يعود حينما يشاء ، وإن فى ابتعاده لقرباً من هدف رغباته . وتمثل لنفسه ، على العكس من هذا ، كيف أن أوتيلى — إذا بقى هو ولم يرحل — ستُضطر

إلى مغـادرة المنزل . فختم الرسالة وهبط الدرج بسرعة ، ووثب على صهودة جواده .

وحينما مر أمام الفندق ، أبصر تحت العريش السائلَ الذى أجـزل له بالأمس الصَّدَقة ، وهو يتناول الغداء بسرور . فنهض وحَـيّا البارون باحترام وتوقير . لقد رأى إدورد هذا الوجهَ نفسهَ فى اليوم السابق وهو يصطحب أوتيلى تحت ذراعه ؛ فذكّره متألمًا بأجمل ساعة أمضـاها فى مَحْياه . فازداد ألمه عتواً ومرارة . فإن شعوره نحو ما هجره لم يكن له قِبَـل به ؛ فألقى بنظرة إلى السائل مرة أخرى . وقال من أعماق قلبه : « كم أنت جدير بأن تحسَـد على ما أنت فيه ! إن صَـدَقة الأمس لا تزال تغذيك ؛ أما سعادتى بالأمس فإنها لم تَعُـد بَعْـدُ تغذينى » .

الفصل السابع عشر

هُرِعت أوتيلى إلى النافذة فى اللحظة التى سمعت فيهـا صوت إنسان يرحل ممتطياً جواداً ، وكان فى وسعها بعـدُ أن ترى إدورد من الخلف . ودهشت كل الدهشة لأنه ارتحـل دون أن يراها ، ودون أن يحييها تحية الصباح . فاستولى عليها القلق ، وازداد إفـكارها ، حينما أخذتها شرلوت معها فى نزهة طويلة ، حدثتها إبانها فى موضوعات شتى ، لـكنها تجنبت عن قصد — كما يلوح — التفوه باسم زوجها . وازداد ألمها أكثر وأكثر حينما عادت ولم تجد على المائدة إلا أدوات طعام لاثنين فحسب .

ليس فى وسعنا التخلى بلا أسف عن عادات تلوح تافهة ؛ لـكننا نشعر بأفدح الألم لمثل هذا الحرمان حينما نقع فى أحوال خطيرة . لقد غاب إدورد

كما غاب الكابتن ؛ ولأول مرة منذ زمان طويل أمرت شرلوت هي نفسها بإعداد الغداء ، وشعرت أوتيلي بأنها طليحة سلب وحرمان ومهيضة فِقْدان . وجلست السيدتان الواحدة قُبالة الأخرى : شرلوت تتحدث بلهجة كلها طبيعية عن المركز الجديد الذى شغله الكابتن وضعف الأمل فى رؤيته عن قريب ؛ أما عَزاء أتيلي الوحيد فكان أنها استطاعت أن تعتقد أن إدورد امتطى الجواد لكى يصطحب صديقَه بعضَ المسافة .

لكنهما حينما نهضا من المائدة رأيا تحت النافذة عربةَ سفر البارون ؛ ولما سألت شرلوت — بشيء من الضيق — عمن وضعها فى ذلك المكان أجيب بأنه خادم الغرفة هو الذى فعل لأنه يريد أن يحزم بعض المتاع . وكان على أوتيلي أن تستجمع كل قواها لتخفى دهشتها والتياعها .

ودخل خادم الغرفة وسأل عن أشياء أخرى : منها فنجان سيده وبعض الملاعق الفضية وأدوات أخرى تؤذن بالسفر الشاحط والغيبة الطويلة . فأجابته شرلوت بكل جفاف قائلة إنها لا تدرى ماذا يعنى ، لأنه هو الذى كان يقوم على حراسة كل ما يتعلق بسيده من أدوات . فاعتذر هذا العابث الماكر الذى لم يكن يريد إلا أن يقول بضع كلمات للفتاة (أوتيلى) وأن يدعوها إلى خارج الغرفة متذرعاً بأية تعلَّة ؛ اعتذر ولكنه أصر على سؤاله الذى كان بودها هى أن تتقبله قبولاً حسنا ؛ فرفضت شرلوت ، مما اضطر خادم الغرفة إلى الانسحاب . وسارت المركبة .

كم كانت هذه اللحظة مريعة رهيبة عند أوتيلى ! إنها لم تسمع شيئاً ولم تفهم فتيلا ، لكنها استطاعت أن تحس بأن إدورد قد انتُزِع منها إلى وقت طويل . فتأثرت شرلوت لحالها وتركتها وحدها . ولن نحاول نحن أن نصف أشجانها ولا عبراتها . لقد تقسَّمتها الهمومُ وتوزّعت نفسها الفِكَر .

فتضرعت إلى الله أن يعينها على قضاء ذلك اليوم وحده على الأقل . لكنها تضوّرت الأيام والليالى ، وحينما آب إليها رشدها لم تستطع أن تتعرّفَ نفسَها .

لم تنصرف عنها دواعى العلة ، ولم تتخذ إلى التسليم سببا ؛ بيد أنها بعد هذه الخسارة الفادحة كانت لا تزال تتخوّف أعظم الهول . وكان أول قلقها ومخاوفها ، حينما عادت إلى نفسها ، أن يكون مصيرها أيضاً إلى الإبعاد بعد رحيل إدورد والكابتن . وهى لم تعلم شيئاً عن تهديدات إدورد التى ضمنت لها المقامَ إلى جوار شرلوت . غير أن البارونة استطاعت بمسلكها بإزائها أن تشيع فى نفسها نوعاً من الطمأنينة . لقد سعت فى شغل الفتاة المسكينة ، ولم تكن تفارقها إلا نادراً ، وفى شيء من الأسف . لقد كانت تعرف جيداً أن الكلمات قليلة الأثر فى وجدان راسخ مشبوب ؛ بيد أنها كانت تعلم أيضا ما للتفكير من سلطان وما للضمير من صولة ، ولم تتوان عن التحدث معها عن موضوعات شتى .

فمثلا كان من أكبر دواعى عزاء ابنة أختها أن تلقى عليها ، عن قصد ولباقة ، تأملات وخواطر حكيمة ، من هذا النوع :

« ما أحر شكران هؤلاء الذين نعينهم برفقٍ على الخروج من المآزق التى توقعهم العواطف فيها ! فنبادر إلى العمل فى هذا الناحية بحماسة وسرور ، كيما نُكمل ما تركه أصدقاؤنا ناقصا : بهذا نهيئ لأنفسنا أجمل ظرف وخير حال تتفق وساعة العودة والإياب ، وذلك بأن نستخدم اعتدالنا فى ضبط ما كان اندفاعهم وقلة اصطبارهم خليقين بإفساده وتحطيمه .

— فأجابت أوتيلى : ما دمتِ يا خالتى تتحدثين عن الاعتدال ، فلا أستطيع أن أكتمك أننى دهشت من سلوك الرجال المتهور ، خصوصاً فى

شرب الخمور . ولكم شق عليَّ وآلمني أن أرى العقل الكامل والفطنة الراجحة والرقة واللطف والإيناس كلها تضيع وتذهب ، ولو لمدة ساعات قلائل ؛ وأن أشاهد ، بدلا من كل الخير الذى يمكن الرجل الممتاز أن يسديه ، ما يأتى به من شرور واضطراب وفساد . وكم من مرة أدى هذا إلى ارتكاب أعمال عنيفة !

وأمنت شرلوت على هذه الخواطر ، لكنها لم تتابع الحديث ، لأنها أحست جيداً أن أوتيلي لم تفكر آنذاك إلا فى إدورد الذى كان يطلق لنفسه العنان — لا عن عادة ، بل وفقاً للظروف وأكثر مما يجب — فى إهاجة السرور والحديث والنشاط عنده باستخدام الخمور .

وإذا كانت كلمات شرلوت قد استطاعت أن تذكر ربيبتها بالرجال عامة وإدورد خاصة ، فإن الفتاة قد دهشت كل الدهشة من سماع شرلوت تتحدث عن زواج الكابتن عاجلا ، تتحدث عنه كشيء معروف ومفروغ منه مما أعطى المسألة وجهاً جديداً مخالفاً لما كانت تتصوره بسبب توكيدات إدورد السابقة ، مما أدى بها إلى زيادة اهتمامها بكل كلمة وكل حركة وكل فعل ومسلك تقوم به شرلوت . لقد صارت بارعة نافذة البصيرة تحسن الظن والاتهام دون أن تدرى .

غير أن البارونة ، بما لها من نفوذ طبيعى فى الإدراك وسلامة نظرة ، تدخلت فى كل تفاصيل الشئون المنزلية ، وبذلت فيها مهارتها الذكية ، مضطرة ابنة أختها إلى المشاركة فيها بمثابرة ونشاط . وقللت النفقات ، دون أن تقع فى كزازة مثيرة . ولما قلبت المسألة على كل وجوهها نظرت إلى العواطف التى شبت كأنها قسمة عادلة وحظ سعيد ، لأنهم لو تابعوا السير فى الطريق التى ولجوها لضاعوا بسهولة فى هاوية نفقات لا تنتهى ،

ولو تقدموا فى هذا السبيل باستمرار ، دون أن ينتبهوا فى الوقت المناسب ، لزعزعوا قسما كبيراً من ثروتهم ، إن لم تضع كلها .

تركت الأعمال التى ابتدأت تسلك سبيلها ؛ فاستمرت فى المنشئات التى أعدت لتكون أساساً للتجميلات المقبلة . لكنها اقتصرت على هذا : إذ سيجد إدورد عند أوبته ما يكفيه ملاهى ومشاغل .

وكان نصيب المهندس المعمارى فى هذه الأعمال والتصميمات فوق كل ثناء . ففى زمن قليل رأت البحيرة تتبدى أمامها والشِّطئان الجديدة مغطاة بالمزروعات والحشائش ، فى أناقة وجمال تنويع . وفى البيت الجديد كان الشطر الأكبر من العمل قد انتهى ، وأعد كل ما هو لازم للمحافظة عليه ؛ ولم تتوقف شرلوت إلا عند النقطة التى يمكن استئناف العمل فيها بسرور . وفى هذه المشاغل كلها ، كانت آمنة السِّرْب راضية البال . أما أوتيلى فلم تكن كذلك إلا فى الظاهر فحسب ، لأنها لم تكن ترى فى كل شىء إلا أعراضاً وشواهد تريد أن تستدل منها على قرب عودة إدورد أو بُعدها . إذ لم يكن يعنيها شىء غير هذا الخاطر .

لهذا نظرت بعين السرور إلى إجراءٍ حُشِد من أجله كل أطفال القرية ، قصد منه السهر على نظافة البستان الذى وسّموه . ولقد خطرت هذه الفكرة من قبل ببال إدورد . فأُلبس الأولاد نوعاً من الزى اللطيف ارتدوه قبل المساء بعد أن اغتسلوا ورحضوا ثيابهم . وأودعت خزانة هذه الملابس فى القصر ، ووكلت العناية بها إلى أعقل هؤلاء الأطفال وأحرصهم . وسلك هؤلاء مسلكا ينم عن الإذعان والطاعة ، وقاموا بعملهم كأنه نوع من الاستعراض والمناورة . إنهم حينما كانوا يقبلون ومعهم مجارفهم ورَفْشهم ومِشَاطهم ومحافِرهم ومكانسهم ذات المراوح ،

ووراءهم آخرون معهم السِّلال ليضعوا فيها الأحجار والحصى والحشائش الرديئة ؛ ويتلوهم فريق يجر خلفه الأسطوانة الحديدية الكبيرة — كل هذا كان يتبدى موكباً جميلا باسما ، وجد فيه المهندسُ سلسلة بديعة من الأعمال والحركات ، من أجل عمل إفريز لصُفّة البستان . أما أوتيلى فإنها لم تر فى هذا إلا نوعاً من الاستعراض قصد به إلى تحية السيد لدى عودته .

وهذا ولد فى نفسها الرغبة المُلحة فى إعداد شىء من هذا القبيل عند وصوله . وكان القوم قد حاولوا حتى الآن أن يشجعوا الريفيات الفتيات على الخياطة والنسج والتطريز وما إليها من أعمال النساء . واستمرت هذه العادات الطيبة فى تقدم منذ أن أصلح من أمر القرية وجُمِّلت . كانت أوتيلى قد شاركت فى هذه النواحى ، لكن هذا كان بطريقة عارضة غير منتظمة تحدوها الأهواء . أما الآن فقد رغبت فى الاهتمام بهذه المسائل على نحو منتظم مُطرد . لكن ليس من الممكن إيجاد هيئة منظمة من بنات صغار كما يمكن من فتيان صغار ؛ فاستمعت لصوت الحكمة فيها ، وبدون أن تتبين جيداً ما تفعل ، سعت نحو شىء واحد هو أن توحى إلى كل واحدة من بناتها هؤلاء بالإخلاص لبيتها وأهلها وإخوتها وأخواتها .

وكلل سعيها بالنجاح مع عدد كبير منهن . غير أن فتاة واحدة شَموعا كانت موضع الشكوى الدائمة ، قيل عنها إنها عارية عن المواهب ، ولم تشأ أن تعمل فى البيت شيئا . بَيْد أن أوتيلى لم تحنق على هذه الفتاة التى كانت تحمل لها ميلا خاصا متعلقة بشخصها ذاهبة غادية معها ، حينما تسمح لها . هنالك كانت وافرة النشاط جمة الحياة لا يعرف إليها التعب سبيلا . ولاح أن هذه الطفلة كانت تشعر بحاجة ملحة إلى التعلق بمعلمتها الجميلة (أوتيلى) . وفى البدء احتملت أوتيلى صحبتها ، ثم جاء دورها فمالت إليها ،

وأخيراً صارا لا يفترقان ، وكانت نانِتّ تتبع معلمتها وسيدتها أينما حلت وحيثما سارت .

وكثيراً ما كانت أوتيلى تغدو إلى البستان متملية بهذه الخضرة الزاكية الزاهية . وكان موسم الفريز والكريز قد أوفى على الانتهاء ، لكن نانِتّ وجدت بعدُ ما يلذها وتشتهيه . أما الثمار الأخرى التى كانت تعد بمحصول وافر فى الخريف فقد كانت تعيد إلى البستانى دائماً ذكرى سيده ، وفى كل مرة كان دائماً يعبر عن ترجّيه عودته وكانت أوتيلى تصغى إلى الشيخ الطيب بسرور طافح . لقد كان يتقن مهنته ، يضاف إلى هذا أنه كان دائب التحدث إليها عن إدورد .

وحينما كشفت عن عميق سرورها لرؤية مثآبر الربيع قد نجحت كلها ، أجابها البستانى بلهجة يشوبها الهم :

— كل ما أتمناه أن يعود سيدنا الطيب فيجد فيه ما يلذه ويسره . لو كان هنا هذا الخريف لرأى كم من الفصائل الثمينة لا يزال باقياً منذ عهد السيد والده ، فى حديقة القصر العتيقة . إن البستانيين اليوم ليسوا من الثقة كما كان القدماء ، فلسنا نجد فى الأثْبات إلا أسماء جميلة : فنقوم بالتطعيم والغرس والتنمية ، وحينما تثمر أخيراً هذه المغارس ، نرى أن أمثال هذه الأشجار لا تستحق مكانا فى البستان .

ولم يكن هذا الخادم الأمين يرى أوتيلى دون أن يسألها أخبار مولاه ومتى يعود . ولما كانت عاجزة عن أن تنبئه بشىء ، أبان لها هذا الرجلُ الساذج القلب — والألم فى نفسه مكتوم — أنه يعتقد أنها لا تثق فيه ، مما زاد فى تألمها بشعورها بجهلها ، هذا الذى كانت أسئلته لها تثيره فى حدة ومضض . ولكنها لم تستطع أن تتجنب هذه المغارس والمثآبر . ذلك أن

ما بذراه سويا وغرساه كان حينئذ فى تمام نضرته ونمائه : ولم يكن فى حاجة إلى عناية أكبر مما تبذله نانت التى كانت دائماً تتعهده بالسُّقيا . وكم كان شعور أوتيلى وهى تنظر إلى الأزهار المتأخرة التى لم تكد تبدأ ، والتى تلألأ بهاؤها وجمالها من بعد معلنة حبها وشكرانها ، حينما يأتى يوم ميلاد إدورد الذى كثيراً ما داعبها أمل الاحتفال به ! لكن الأمل فى هذا العيد لم يكن دائماً حاراً لديها : لأن الشك والهم كانا دائماً يتهامسان صامتَين فى نفس هذه الفتاة الطيبة الفؤاد .

إنها لم تستطع أن تعود إلى حالة الانسجام الحقيقى الصريح مع شرلوت . أجل ، لقد تغير موقف هاتين السيدتين تمام التغير . فلو أن كلتيهما عادت إلى الوضع القديم ، وسلكت سبيل الحياة المنتظمة لظفرت شرلوت بالنعيم الحاضر ولتفتح لها أفق جميل فى المستقبل ؛ أما أوتيلى فكانت على العكس من هذا ستفقد كل شىء ، هكذا يمكن أن يقال . لقد وجدت فى إدورد الحياة والنعيم ، وشعرت فى وضعها الحالى أنها فى هاوية الخلاء المحض والقفر الرهيب ، مما لم تكد تشعر بشىء منه قبل ولم تتوقعه . ذلك أن القلب الذى يسعى يشعر جيداً أن شيئاً يعوزه ؛ لكن القلب الذى فَقَد شيئاً فعلا ، يشعر بحرمان حقيق ، والرغبة من شأنها أن تستحيل إلى سخط وقلق ؛ وإن قلب المرأة ، وقد تعود الانتظار والصبر ، ليستطيع أن يخرج من نطاقه ويصير فعّالا ، فيعمل ويبذل وسعه لتحقيق شىء يؤدى إلى سعادته .

ما عزَفت أوتيلى عن إدورد ولا زَهِدت فيه . وأنَّى لها هذا ، على الرغم من أن شرلوت — مهما يكن من نفوذ بصيرتها — قد ساءها أن تعتقد — على عكس اقتناعها الحقيق — أن هذا الزهد قد فُرغ منه ، وخيل إليها بل أيقنت أن فى الوسع إقامة صِلات صداقة هادئة تحسب بين

زوجها وابنة أختها ؟ لكن كم من مرة ، فى الليل ، جثت هذه الفتاة على ركبتيها بعد أن أغلقت باب مخدعها ، جثت أمام الصندوق مفتوحاً وراحت تتأمل هدايا العيد التى لم تخرج منها بعدُ شيئاً ولم تعدّ أو تستخدم منها أيّها ! وكم من مرة هُرعت الفتاة المسكينة ، منذ مطلع الشمس ، خارج المنزل الذى كانت تجد فى داخله قبلُ كل سعادتها ، هرعت وغدت إلى الريف الضحيان الذى لم يكن قبلُ يتحدث إليها بشىء ولا تجد له لذة ولا معنى بل إنها لم تكن تقوى على المكوث على الأرض نفسها . لقد كانت تثب إلى الزورق ، وتقوده بواسطة المجداف ، حتى وسط البحيرة ، ثم تلتقط من جيبها وصفاً لرحلة ، وتدع نفسها تترجح فوق الأمواج المتأثرة ، وتقرأ ، حالمة بالبلاد البعيدة ، ناشدة فيها دائماً صديقها : لقد كانت تسكن قلب إدورد ، وهو الآخر كان دائما يسكن قلب أوتيلى .

الفصل الثامن عشر

كان من المنتظر من ذلك الرجل الغريب النشيط الذى عرفناه من قبل ، ألا وهو مِتْلر ، حينما تلقى نبأ العواصف التى هبت أخيراً على أصدقائه ، أن يشعر أنه مستعد لإظهار صداقته واستخدامها والإفادة بتجاربه ، على الرغم من أن أحد الطرفين لم يطلب منه بعدُ هذه المعونة . غير أنه وجد من الحكمة الانتظار قليلا : لأنه كان يعلم حق العلم أن إيجاد الصلح بين الأشخاص المثقفين حينما يتنازعون أصعب منه بين الأشخاص غير المثقفين . لهذا ترك أصدقاءه لأنفسهم مدة من الزمان ؛ وأخيراً حينما لم يستطع الاستمرار على تلك الحال ، هُرع فى طلب إدورد ، بعد أن استطاع اكتشاف آثاره .

أداه طريقه إلى واد جميل يقوم فيه ينبوع حى ثَرّ ، حيناً يسير هادئا متعرجاً ، وحيناً آخر يغلى ويتواثب خلال البرارى المغطاة بالخضرة الرائعة والظلال الوارفة . وعلى المنحدرات الرقيقة الميل تنبسط الحقول الخصبة والمباقل الموفورة العناية . وكانت القرى قريباً بعضها من بعض ؛ وعلى المنظر كله مَسْحَة السجوّ والهدوء ، وما فيه من أنحاء وأصقاع ، إن لم يكن فاتناً ، فقد كان كفيلا بجعل الحياة عذبة ميسورة .

وتراءت أمام عينه ضيعة مستكراة موفورة العناية ، فيها منزل أنيق متواضع يقوم وسط الحدائق ، فاسترعى كلٌّ هذا انتباهه ، وحَدَس أن هذا لا بد أن يكون مأوى إدورد . ولم يكن فى هذا الظن مخطئا .

وكل ما نستطيع أن نقوله عن هذا الصديق المتوحد هو أنه فى عزلته هذه قد استسلم تماماً لوجدانه المشبوب وأجال فى خاطره آلاف المشروعات واقتات بمديد الأمانى والآمال . ولم يستطع أن يكتم نفسه أنه يريد أن يرى أوتيلى معه فى هذا المكان ، وأنه يود أن يقتادها ويجذبها إلى هـذا الملاذ . وليت شعرى ماذا استباحه أيضاً لنفسه من تصورات بريئة وآثمة ! ثم استعرض خياله المضطربُ كل الاحتمالات الممكنة . فإذا لم يكن له أن يظفر بها هنا ، يظفر بها بطريق مشروع ، فهو يريد على الأقل أن يضمن لها ملكية هذه الأرض . هنالك ستحيا لنفسها هادئة النفس مشتملة الجنان تظللها أطياف السعادة ؛ بل حينما اقتاده خيالُه المعذبُ نفسه إلى مدى بعيد خيل إليه أنه يراها تحيا هنا سعيدة مع شخص آخر غيره .

وعلى هذا النحو مضت أوقاته ، مترجِّحة دائما بين الخوف والرجاء ، والدموع والهدوء ، والمشروعات والإعدادات والقنوط . ولما رأى متلر لم يُدْهَش مطلقا : بل كان يتوقع مجيئه منذ زمان طويل ، إذ كان مجيئه ساراً

له من بعض النواحى . ونظراً إلى أنه اعتقد أنه مرسل من قِبل شرلوت ، فقد أعدَّ لهذا كل أنواع الاعتذار وألوان التخفيف ، بل واقتراحات حاسمة ؛ لكن لما كان يأمل ، من ناحية أخرى ، أن يظفر منه ببعض من أنباء عن أوتيلى ، فإن متلر كان فى نظره كأنه مبعوث من السماء .

لهذا استولى عليه الغم والاضطراب حينما علم أن صديقه الوافر الأدب لم يأت من قِبل شرلوت ، وإنما من تلقاء نفسه . فانغلق مفتاح قلبه ، وتبدى فى البدء أن الحديث غير ميسور ؛ غير أن كل من يتملكه الحب يشعر برغبة مُلحَّة فى التعبير عما فى نفسه وبث صديق له مكنونَ صدره . ولم يكن متلر جاهلا لهذه الحال ، لهذا فإنه بعد تبادل بضع كلمات أراد أن يخرج هذه المرة عن دوره ، وأن يلعب دور كاتم سره بدلا من أن يكون فى دور الوسيط .

فلما أنحى بشىء من اللوم على إدورد بسبب حياته المتوحدة هذه ، أجابه البارون :

— لست أدرى كيف أمضى وقتى على نحو أفضل . فأنا دائماً فى شُغُل شاغل بها ، وأنا دائماً أحيا فى حضرتها . ولدى ميزة لا تصاب لها قيمة ، هى قدرتى على تصور أين هى ، وإلى أينَ أذهب ، وأينما تتوقف ، وأيان تسرع . وأتمثل لنفسى كيف تعمل أمامى على عادتها ، وتؤدى دائماً كل ما تراه موافقاً لهواى . لكنى لا أقف عند هذا . فكيف أكون سعيداً بعيداً عنها ؟ إن خيالى ليسعى بكل حماسة ونشاط ليصوّر لنفسه كل ما تعمله أوتيلى من أجل الاقتراب منى . وإنى لأكتب باسمها رسائل كلها رقة وأُلفة موجَّهة نحوى ؛ وأجيب عليها واحتفظ بكل هذه الأوراق معاً . لقد وعدت بأن لا أبذل أى سعى من أجل الاقتراب منها ، وسأكون عند

وعدى هذا ؛ لكن ماذا يحول بينها وبين أن تأتى إلىّ ها هنا ؟ أفمند شرلوت من القسوة ما يجعلها تفرض عليها وتقتضى منها الوعد والقسم بألا تكتب إلى ، وألا تبعث إلىّ بأنبائها ؟ هذا طبيعى ، هذا محتمل ؛ ومع هذا فإنى أراه شيئاً لا يمكن احتماله . إن كانت تحبنى كما أعتقد وكما أعلم — فلماذا لا تقرر ، لماذا لا تخاطر بالفرار ، بالارتماء فى أحضانى وبين ذراعىّ ؟ كثيراً ما أفكر فى نفسى أنها يجب أن تفعل هذا ، وهو فى وسعها . إنى إذا سمعت نأمة فى الغرفة المجاورة ، نظرت من جانب الباب ! أهى القادمة ؟ هكذا أخيل إلى نفسى ، وهكذا آمُل أن يكون — أوّاه ! حينما أرى الممكن غير ميسور الحدوث ، أتخيل حدوث المستحيل . وفى الليل حينما استيقظ ، ويكون المصباح ملقياً نورا مترنحاً فى غرفتى ، يتراءى لى أن وجهها ، ظلّها ، طيفاً من شخصها ، يمر أمامى ويتقدم إلى ويمسك بى ، لمدة لحظة واحدة على الأقل ، مما يؤكد لى — على نحو ما — أنها تفكر فى ، أنها لى !

لم تبق لى إلا متعة واحدة . حينما كنت إلى جوار أوتيلى ، لم أكن أحلم أبداً فيها ؛ أما الآن وقد بعدتُ عنها ، فنحن مجتمعان سوياً فى أحلامى . ومن العجب أننى منذ أن عرفت بعض النسوة اللاطيفات فى هذه المنطقة صارت تتبدى لى فى المنام ، وكأنها تقول لى : تستطيع أنت أن تنظر هاهنا وهناك وفى كل ناحية ، فإنك لن تجد مطلقاً أجمل منى ولا ألطف . وعلى هذا النحو تمتزج صورتها بكل أحلامى . وكل ما يحدث لى معها يختلط ويشتبك . فأحيانا نحن نوقّع عقداً : وهاهو ذا حظها وحظى ، واسمها واسمى ، يمحو أحدهما الآخر ويفنى فى صاحبه متعانقين . وهذه التهاويل الشهوانية للخيال لا تخلو من الألم : فأحيانا تأتى أوتيلى فعلا مايخدش فكرتى عنها ؛ هنالك أحس بمقدار حبى لها ، إذ ينالنى قلق لا يبلغ مداه التعبير .

وآونة أخرى تستثيرنى بطريقة تتنافى تماما مع ما طبعت عليه ، فتؤلمنى ؛ هنالك تَبدَّلُ صورتها فى الحال : فيستطيل وجهها الجميل الرشيق الملائكى . وتستحيل إنسانا آخر ؛ لكن هذا لا يَزيدنى إلا خبالا وتعذيباً واضطرابا .

« لا تضحك ، أى متلر العزيز ، أو اضحك بالأحرى ، فليس منه بأس . لست أخجل من هذا التعلق ، من هـذا الميل الجنونى الأهوج ، بل ليكن ! كلا ، إننى لم أحبَبْ بعدُ ؛ أما اليوم فأنا أشعر لأول مرة بمعنى الحب وما هو الحب — حتى الآن لم يكن كل شىء فى حياتى إلا تمهيداً واستهلالا ، أُلْـهية ، ووقتاً ضائعاً ماضيا — إلى اللحظة التى بدأت أعرفها فيها ، والتى أحببتها فيها بكل قواى وبكامل نفسى . لقد لامونى — وإن لم يكن ذاك فى وجهى — قائلين إننى أبنى على شفا جرف هارٍ وإننى أعبث فى غالب أحوالى وأهزل : هذا ممكن ؛ لكنى لم أجد بعدُ الشىء الذى أستطيع أن أظهر فيه فى مركز السيادة . ألا فليدلونى على إنسان عرف كيف يحب خيراً منى !

« إنها هبة بائسة ، ليس فى هذا شك ، كلها آلام ومرارة . لكن لا عليك ! فإننى أجدها طبيعية عندى ، بل هى جزء من نفسى لدرجة أنه يبدو لى من الصعب أن أعزف عنها أبداً » .

بهذه الاعترافات المخلصة الحارَّة ، استطاع إدورد أن يُسَرِّى عن نفسه من غير شك . لكن كل قَسمة من قسمات مركزه الشاذ تبدت أمام ناظريه على نحو فيه من التأثير ما جعله ينوء تحت عبء هذا النضال الأليم ، فجرت منه العبرات الدافقة : لقد أشاعت هذه العبارات الرقة فى فؤاده .

أما متلر الذى لم يستطع أن يكذب حال تسرعه الطبيعى وقساوة خُلْقه ، وكان من شأن هذا الانفجار الأليم لوجدان صاحبه أن أبعده عن

الغرض من رحلته هذه ، فإنه عَبّر عن عدم موافقة إدورد على مسلكه بصراحة جافة قاسية قائلا إن إدورد يجب أن يستجمع شجاعته ، ويجب أن يفكر فيما تقتضيه منه مكانته كرجل ، إذ يجدر به ألا ينسى أن الإنسان يبلغ درجة عليا من الشرف إن أظهر التجلد فى البأساء واحتمل بهدوء ورزانة صولة اللأواء ، كيما يظفر بالتقدير والتوقير ويتخذه الناس نموذجاً عالياً .

ولما كان إدورد مليئا بالعواطف الأليمة والمشاعر الممِضّة ، فإنه وجد هذه الكلمات خاوية عابثة . فصاح : « إن الرجل السعيد المطمئن يستطيع أن يتحدث كما يهوى ؛ لكنه سيسوخ من الخجل لو أنه رأى كيف أن هذا غير محتمل عند من يتألم . إنهم يطالبون بوجود صبر لا ينفد ، والناس السعداء يصرون على عدم الاعتراف بوجود ألم لا ينفد . أجل إن ثمت أحوالا فيها يكون العزاء من شيمة الجبناء ، وفيها اليأس هو الواجب . وإن أحد اليونانيين المشهورين ، ممن يحسنون وصف الأبطال ، لا يجد حرجاً فى أن يجعلهم يبكون ويذرفون العبرات فى لوعة آلامهم . بل إنه يضع كقاعدة أن الرجال الممتازين يعرفون كيف يبكون . ألا بُعْداً لمن كان جافَّ القلب جاف العيون ! إنى لألعن السعداء الذين لا يرون فى الشقى غير منظر يتلهون بمشاهدته . إنهم يريدون منه ، كى يحظى بتصفيقهم ، أن يلتزم سَمتاً نبيلا إبان أقسى آلام البدن والروح ، ولكى يهتفوا له فى اللحظة التى تفيض روحه فيها ، يجب عليه أن يموت تحت أنظارهم فى هدوء ، كالمُجالِد القديم . عزيزى متلر ، إنى أشكر لك زيارتك ؛ ولكنك ستقدم لى دليلا عظيما على صداقتك لى إذا غدوت ترتاض فى البستان وخلال الريف . وسنلتقى . وسأعمل ما فى وسعى كيما أكون هادئاً أقرب ما أكون إليك .

غير أن متلر فضّل أن يلجأ إلى التنازل والترّضى على قطع حديث لم يكن فى وسعه استئنافه بسهولة . وإدورد من ناحيته كان مستعداً لموالاة الحديث محاولا أن يوجّهه نحو خدمة غرضه . فاستأنف الحديث قائلا :

— وأيم الحق أن مثل هذه الخواطر والمناقشات لن تؤدى إلى أى شىء ؛ ومع هذا فقد استطعت خلال هذه الأحاديث أن أثوب إلى نفسى ؛ وانتهيت إلى تقدير ما يجب علىّ فعله ، وإلى ما استقر عزمى عليه . إننى أرى حياتى الحاضرة وتلك المقبلة يتبديان أمام ناظرىّ . وليس لى إلا أن أختار بين الشقاء والنعيم . أيها الرجل الممتاز ، أَعْلِن طلاقنا ، فهو لا بد منه ، بل هو قد تحقق فعلا . هاتِ لى موافقة شرلوت . ولست أريد التوسع فى الأسباب التى تحملنى على الاعتقاد بأن من الممكن الحصول على هذه الموافقة . هيا ، صديقى العزيز ، اعمل جهدك كيما نكون جميعاً فى سلام ! اجعلنا سعداء !

فالتزم متلر الصمت والسكون . فاستمر إدورد :

— إن مصيرى مرتبط بمصير أوتيلى ارتباطاً لا يمكن انفصامه ، ولن نتحطم . انظر هذه الزجاجة ! لقد نقشت أرقامنا عليها ؛ وقد ألقى بها فى الهواء أحد الصحاب المَرِحين ؛ وليس لأحد بعد أن يشرب فيها ، وكان من المنتظر أن تتحطم فوق الأرض الصخرية ، لكنها بقيت معلقة فى الهواء . ولقد استخلصتها بثمن فادح وإنى لأشرب فيها كل يوم منذ ذلك الحين ، كيما أُقْنِع نفسى بأن العُقد التى كوّنها القدر لن تُحلّ أبداً :

— يا لشقائى ! هكذا صاح مِتْلر ، أىُّ صبرٍ يعوزنى مع أصدقائى ! يجب أن أجد التطيُّر حتى فى هذا المكان ، التطير الذى أُبغِضُه كأقبح شىء يمكن أن يوجد عند الناس . إننا نلعب بالأشراط والمخايل والأحلام ، ونهب

أهمية لأتفه أحوال الحياة . لـكن حينما تصير الحياة نفسها جِداً ، ويضطرب كلُّ شيء حولنا ويُرْعِـد ، حينئذ تزيد هذه الأشباحُ من هول العاصفة .

فقال إدورد : فى مضطرب الحياة هذا ، وبين المخاوف والرجاء ، دع للقلب الجريح نجماً مخلصاً يستطيع أن يستشرف بعيونه إليه ، حتى لو لم يكن عليه أن يوجه مجراه وفقاً له .

فأجاب متلر : بودى لو قبلت هذا ، لو كان وراءه رجاء ؛ لـكنى لاحظت دائماً أن الإنسان لا يحفل مطلقاً بالشواهد والمخايل التى تنذره ؛ إنما يتجه الانتباه إلى ما منها يتملق الهوى ويغرى المرام ، ومن أجلها وحدها يكون الإيمان حاراً قوياً .

ولما رأى متلر نفسَه قد أُفْـضِـى بها إلى هذه المناطق الغامضة التى كان فيها دائماً يشعر بأنه فى غير مكانه فينتابه القلق كلما أمد فى إقامته — لـمـا رأى هذا أرعى سمعه لتوسلات إدورد الذى ألح عليه فى الذهاب إلى شرلوت . وأيم الحق ، ماذا كان فى وسعه أن يعارض به البارون فى تلك اللحظة ؟ لم يبق لديه إلا أن يكسب الوقت ويلاحظ الأحوال النفسية التى يوجد فيها السيدان . فلقد كان هذا هو الحلّ الوحيد ، حتى من وجهة نظره هو .

فأسرع بالذهاب إلى شرلوت ، فوجدها على عادتها من الهدوء واطمئنان البال — وهى قد شاءت عن طيب خاطر أن تقص عليه نبأ ما حدث ؛ لأن أحاديث إدورد لم تنبىء متلر بشىء غير النتائج ، دون المقدمات . فراح متلر من ناحيته يعالج الموضوع بحذر واحتياط ، ولم يستبح لنفسه ، ولا حتى عرضاً ، أن يتفوه بكلمة الطلاق . لهذا كم كانت دهشته وذهوله — وهو على الأفكار التى كان يحملها فى نفسه — وكم كان سروره حينما قالت له شرلوت أخيراً ، بعد كل هذه الأمور الأليمة :

— يجب أن أعتقد ، وأن آمُـل أن يُسوِّى كل شىء ، وأن يقترب إدورد منى . كيف لا وأنا أُرَجّى أن أكون أمّـا ؟

— هل سمعتُ جيداً ما قلتيه ؟ هكذا صاح متلر .

— تماماً ، بهذا أجابت شرلوت .

— بُورك هذا النبأ ألف بركة ! هكذا استأنف حديثه ضامّـا يديه . إننى على علمٍ بقوة هـذه الحجة وسلطانها على قلب الزوج . وكم من مرة شاهدت أن هذا كان كافياً للإسراع فى الزواج أو العزم عليه أو إصلاحه ! إن مثل هذا الأمل ينتج من الأثر أكثر مما تنتجه آلاف الكلمات ؛ والواقع أن هذا خير رجاء نستطيع التعلق به .

وتابع قائلا : « ومع هذا ، ففيما يتصل بى ، قد كان كل شىء باعثا على عدم الرضا . لـكن مادام الأمر على هذا النحو ، فليس لدى ماأفاخر به . واهتمامى لاحق له فى شكرانك . إن مَثلى مثل صديقى الطبيب الذى كانت كل معالجاته موفقة ناجحة حينما يعالج مجاناً وإحسانا ، لـكنه كان نادراً ما ينجح فى علاج الأغنياء الذى يجزلون له الدفع . فلحسن الحظ سوّيت الأمور من تلقاء نفسها ، لأن مجهوداتى ونصائحى كانت ستذهب سدى » .

فسألته شرلوت أن يحمل هـذا النبأ إلى إدورد ، وأن يحمل أيضاً رسالة ستكتبها إليه ، وأن يرى ماذا يجب عمله وإصلاحه . لـكن لم يشأ موافقتها ، وصاح : عُمل كل شىء ؛ وفى استطاعة أى إنسان كان أن يحمل رسالتك كما أحملها أنا . وخليق بى الآن أن أحمل أقدامى إلى حيث الحاجة إلىّ ألزم . ولن أعود إلا من أجل تهنئتك ، سأعود من أجل التعميد » .

وفى هـذه المدة — كما فى مرات أخرى غيرها — لم تـكن شرلوت راضية عن مسلك متلر . فإن مزاجه الحادّ أحياناً ما يُسْـدى الخير ، لـكن

تسرعه واندفاعه كثيراً ما سببا إخفاقا . إذ ليس ثمت إنسان يفوقه فى الخضوع لتأثير اللحظة العابرة الحاضرة .

فبعث شرلوت برسول إلى إدورد ، استقبله هذا فى شىء من الجزع . فربما كانت الرسالة رفضاً أو موافقة . فتردد طويلا فى فضها ، وكم كانت دهشته واضطرابه وذهوله حينما وصل إلى هذه الكلمات وهو يقرأوه ، وهى كلمات ختمت بها الرسالة :

« تذكر تلك الليلة التى زرتَ فيها — كعاشق — زوجتك تلك الزيارة المغامِرة ؛ وجذبتها بقوة لا تقاوم إلى فؤادك ؛ وضغطت عليها بين ذراعيك كأنها معشوقة أو خطيبة . فلنسبح ، فى هذه الظروف الغريبة ، بحمد هذه الهبة التى بعثتها إلينا السماء التى شاءت أن تقيم بيننا رابطة جديدة ، فى اللحظة التى أصبح فيها نعيم حياتنا مهدداً بالزوال والفناء » .

ويشق على المرء أن يصف ما كان يجرى آنذاك فى نفس إدورد . ففى مثل هذه المواقف الأليمة تنتهى العادات القديمة والميول الماضية بأن تنبثق من جديد لقتل الوقت وملء الحياة . هنالك يصير القنص والحرب بالنسبة إلى النبيل موارد للسلوى لا تتخلف . لقد اشتاق إدورد إلى الخطر الخارجى ، كيما يحدث توازناً مع الخطر الداخلى ؛ لقد تشوق إلى الموت ، لأن الحياة أصبحت تهدد بأن تصير غير محتملة ولا مقبولة ، بل لقد كان عزاءً عنده أن يتمثل نفسه ، وقد زال عن الوجود ، وبهذا نفسه يمهد السبيل أمام سعادة من يؤثرهم بالحب . ولم يضع أحدٌ عقبة فى سبيل مراده لأنه أبقى على قراره مكتوماً . وكتب وصيته فى شكلها القانونى . وكم أرضى نفسه أن يكون فى وسعه أن يوصى بالضيعة المستكراة الجميلة لأوتيلى . وكفل مصير شرلوت ، والطفل الذى تحمله فى بطنها والكابتن ، والخدم . وساعد على

تحقيق عزمه هـذا أن الحرب قد بدأت منذ قليل . لقد سبَّـب له رؤساء وضعاء متاعب عدةً إبان شبابه ، وكان ذلك السبب فى تركه العسكرية ؛ أما اليوم فهو سعيد بالخدمة تحت إمرة قائد يمكن أن يقال عنه إن « الموت تحت قيادته محتمل والنصر مؤكد » .

وما علمت أوتيلى بسر شرلوت — وقد أصابها الذهول كما أصاب إدورد ، بل وأكثر — حتى انطوت على نفسها . لقد انتهى كل شىء بالنسبة إليها . لارجاء لديها بعد ولا اشتهاء . وستهيّيء لنا « يومياتها » — التى نرى أن نقدم إلى القارىء بضع صفحات منها — أن نتبيّن ما كان يجرى فى أعماق نفسها .

القسم الثاني

الفصل الأول

كثيراً ما نصادف فى الحياة العادية أشياء أَلِفْنا أن ننعتها فى الملاحم بأنها من نسج خيال الشاعر ، ونعنى بها أن نرى أحياناً الشخصيات الرئيسية تتباعد وتختفى ويزول ما لها من أثر ، وسَرعان ما يشغل مكانها شخص أو آخر ممن لم يلفتوا النظر من قبل ، باذلا كل نشاطه ، مما يثير بدوره انتباهنا وشوقنا ، بل ويحملنا على تقديره وإزجاء المديح إليه .

وعلى هذا النحو حدث بعد رحيل الكابتن والبارون أن ازدادت شخصية المهندس فى الظهور يوماً بعد يوم . فعليه وحده توقف توجيه أعمال عدة وتنفيذها ، وقد تبدى فى أداء عمله دقيقاً ماهراً مثابرا . وأسدى فى الآن نفسه كثيراً من الخدمات إلى السيدتين ، وعرف كيف يرفّه عنهما فى ساعات الصمت والملال . وكان يكفى حضوره لإشاعة الثقة والعطف .

لقد كان شابا جميلا ، بكل ما لهذه الكلمات من معنى ؛ فارع القوام ، أقرب إلى الإفراط فى الطول ؛ وكان متواضعاً فى غير تزاُيل ولا انقباض ، سريع التواصل فى غير ثِقل ولا عَبامة . وكان يأخذ على عاتقه القيام بكل ما يتطلب العناية والمشقة ، يتحمله بسرور وطيب خاطر ؛ ولما كان ماهراً فى الحساب ، فسرعان ما أُشْرِك فى شئون المنزل ، وكان له فى كل شىء أثر ممدوح . وكان يوكل إليه عادةً استقبالُ الغرباء ، وكان يحسن صَرْفَ الزيارات غير المتوقّعة ، أو على الأقل يهيئ السيدتين لها ، إلى حد أنها لم تكن مضجرة لهما .

وذات يومٍ أوقعه أحد القانونيين فى عناء . فقد كان موفداً من قِبَل سيد من الجيران ليتحدث فى مسألة لم تكن فى الواقع ذات أهمية كبيرة ،

لـكنها أحدثت فى نفس شرلوت أثراً عميقا . وخليق بنا أن نرى هـذه المسألة ، لأنها أعطت الدافع لعديد من الأشياء التى كانت بدون هذا ستظل فى سبات وقتا طويلا .

لم نَنْسَ بعدُ أن شرلوت قد أزمعت تبديل حال المقبرة . فنُـقلت كل الأضرحة ، وصُفـَّتْ على طول الجدار وحول أساس الـكنيسة ومُهـِّدت الأرض . وفيما عدا طريق طويل يفضى إلى الـكنيسة وعلى طول البناء إلى الباب الصغير فى الناحية الأخـرى ، بُذرت التربة كلها بأنواع مختلفة من البرسيم كانت خضرتها وأزهارها بساطاً كأجمل ما يكون المخمَّـل . وكان على القبور الجديدة أن ترتب على نظام معلوم ، وبعد هـذا تسوّى الأرض وتلقى فيها البذور . ولم يكن أحد يشكّ فى أن هذا التنظيم يهيئ للذين يغدون إلى الـكنيسة ، منظراً جميلا باسما نبيلا فى أيام الآحاد والأعياد . وراعى الـكنيسة نفسه ، وهو رجل متقدم فى السن ، متشبث بالعادات القديمة ، بعد أن كان فى البدء غير راض تماماً عن هذا الإجراء ، انتهى باغتباطه به ، حينما أتى مثـل فيلمون يستريح مع بوقيسه[1] تحت الزيزفون العتيق خلف المنزل ، فسُـرّ إذ رأى أمامه — بدلا من أضرحة غير مستوية — بساطاً جميلا مُفـوّفا ، سيفيد منزله من ناحية أخرى ، لأن شرلوت قد ضمنت لبيت الراعى التمتع باستغلال الأرض .

بيد أن بعض أعضاء الناحية قد ساءهم رفع العلامات الدالة على

---

(١) بوقيس هى امرأة عجوز من فريجيا . كانت تحيا حياة الـكفاف مع زوجها فيلمون فى كوخ حقير . وفى أثناء رحلة چوپتر ومركير متخفيين فى آسيا ، بلغوا هذا الـكوخ ، فأصابا من أهله خير ضيافة ، حتى إن چوپتر سر من هذا الـكرم إلى حد أنه كافأهما بأن أحال كوخهما إلى معبد ، وأقام بوقيس وفيلمون كهنة له ؛ وعاشا فى أسعد حال حتى بلغا من الـكبر عتيا ، وماتا فى وقت واحد وفاقاً لرغبتهما إلى چوپتر حتى لا يحزن أحدهما لفقد الآخر . وتحول بدناهما إلى شجر أمام باب المعبد .

الأماكن التي رقد فيها أجدادهم ، وبهذا مُحيت ذكراهم : والواقع أن الشواهد المحفوظة قد عُنِيت ببيان حقيقة الشخص المدفون ، لكنها لم تبين فى أى مكان دُفِن ، وكانت معرفة المكان هى الأهم فى نظر كثير من الناس .

فقد كان هذا رأىَ إحدى أسر الجيرة التي احتفظت لنفسها منذ سنوات عدة بمكان فى هذا المرقد المشترك ، وفى مقابل هذا أقامت مؤسسة صغيرة لصالح الكنيسة . وقد أتى القانونى الشاب مُوفداً لإلغاء المؤسسة ، معلناً أنه لن يدفع لها بعدُ شىءٌ ، لأن الشرط الذى به تم الدفع لها حتى الآن قد أُخِلّ به من جانب أحد المتعاقدين ، ولم يُحسب أىُّ حساب لكل الآراء والمعارضات . ولما كانت شرلوت هى الفاعلة الأصلية لهذا التغير ، فقد أرادت أن تتحدث بنفسها إلى ذلك الشاب الذى عرض حيثيات موكِّله بحرارة ، فى غير تكبر ولا مجرفة ، مثيراً عند أصدقائنا ألواناً من الأفكار الجادّة الخطيرة .

قال ، بعد استهلال قصير ، عرف كيف يبرر به إلحاحه : « هؤلاء أنتم ترون أن أصغرِ الناس وأكبرهم حريص على تعيين المكان الذى رقد فيه أجداده . إن الفلاح المسكين الذى يدفن ابنَه ليجد نوعاً من العَزاء فى إقامة صليب هش من الخشب فوق قبره ، وتزيينه بأكاليل ، كيما يحتفظ على الأقل بالذكرى طوال ألمه ، حتى لو عَفَّى الزمان على هذه العلامة كما يُعَفِّى على أحزانه . أما الموسرون فيستبدلون بهذه الصلبان الخشبية صلباناً من الحديد يصونونها ويحمونها بشتى الوسائل ، مما يؤدى إلى بقائها طويلا . لكن لما كانت هذه الصلبان نفسها ستنتهى بالدُّثور والفناء ، فإن الأغنياء لا يفوتهم أن يقيموا حجراً ، يَعِدُ بالبقاء طوال عدة أجيال ، ويستطيع الأخلاف فى الأجيال التالية أن يصلحوه ويجددوه . غير أن هذا الحجر ليس هو مايسترعى انتباهنا : إنما هو ما انطوى تحته ، وما وُكِل إلى التراب . فالناس لا تعنيهم

الذكرى بقدر ما يعنيهم الشخص نفسه ؛ والأمر ليس أمر ذكرى ، بل أمر حضور . وإنى لأفضل عناق ميت عزيز على القبر منه على شاهده : لأن هذا ليس فى ذاته بذى قيمة ظاهرة ؛ لكن الأزواج والأهل والأصدقاء لابد لهم أن يلتفوا حوله كلواء يضم شملهم ، حتى بعد موتهم ؛ ويجب أن يحتفظ الحى بحقه فى إبعاد الغرباء وأهل السوء عمن أحبه وهو يرقد فى هذا المكان . لهذا فإنى أوكد إذاً أن مُوَكّلى له كلّ الحق فى سحب المبلغ الذى يدفعه للمؤسسة ؛ وهو بهذا يظهر كثيرا من روح الإنصاف ، لأن الضرر الذى أصاب أفراد الأسرة هو من ذلك النوع الذى لا يمكن التفكير فى أى تعويض عنه . لقد فقدوا المتعة المذبة الحزينة ، متعة حمل قربان جنازى لموتاهم الأعزاء ، فقدوا الأمل فى أن يرقدوا يوماً إلى جوارهم .

— فأجابت شرلوت : ليس لهذا الأمر كل تلك الأهمية ، التى تحملنا على الدخول فى متاعب قضية . إننى أبعد من أن أكون آسفة على مافعلت ، لدرجة أنى سأعوّض الكنيسة بطيب خاطر عن المنفعة التى فقدتها . لكن يجب علىّ أن أصارحك بأن حججك لم تُقْنِعْنى مطلقاً . فإن الشعور الصافى بالمساواة العليا الكلية ، على الأقل بعد الموت ، يبدو لى أبعث على الرضا من ذلك الاستمرار التحكمى العنيد لأشخاصنا وعلاقاتنا وصلاتنا الاجتماعية . وأنت ماذا ترى فى هذا ؟ هكذا وجهت شرلوت الخطاب إلى المهندس .

فأجاب : « لست أود فى مثل هذه المسألة أن أناقش أو أُدلى بحكم . ولتسمحى لى بأن أعبر فى تواضع عما يمس فنى وطريقة تفكيرى عن قرب ، ما دمنا لا نملك من السعادة ما يسمح لنا بأن نضم إلى صدورنا بقايا أحبائنا المطمورة فى إجّانة ، وليس لدينا من الثراء ولا الصفاء ما يخول لنا الاحتفاظ بها فى حمى من الفساد داخل نواويس فخمة واسعة ، بل لا نجد مكانا حتى فى الكنائس لنا ولأهلنا ، وأننا نطرد خارجاً فى الفضاء الفسيح — ما دام

الأمر كله على هذا النحو فلدينا جميعاً ما يحملنا على الموافقة على ما فعلتيه يا سيدتى البارونة . إن أبناء الأبروشية حينما يرقدون جنباً إلى جنب ، إنما يرقدون وسط أهلهم وبين ظهرانيهم ، وما دام مصيرنا جميعاً إلى التراب ، فلا شيء أقرب إلى الطبيعة وأنسب من تسوية كل الأكمات التى أقيمت بغير نظام ولا تدبير ، وتهدمت شيئا فشيئا ، ومن تخفيف عبء التراب عن الجميع ببسط الغطاء عليهم أجمعين .

فقالت أوتيلى : إذاً لا بد أن يفنى كل شيء إلى غير رجعة ، دون الإبقاء على أقل علامة للذكرى ، ودون أن تبدى للذاكرة أية إشارة .

— كلا ، هكذا استأنف المهندس ، ليس الواجب التخلى عن الذكرى وإنما عن المكان . إن المهندس والنحّات يعنيهم تماماً ما ينتظره من فنونهم ومن أيديهم من بقاء وجودهم واستمراره ، لهذا أود أن أرى آثاراً جيدة التصميم متقنة الصنعة ، لا متناثرة متفرقة حيثما اتفق بل مقامة فى مكان يمكنهم فيه أن يأملوا البقاء . وما دام القديسون والعظماء أنفسهم يصدفون عن امتياز دفنهم فى الكنائس ، فيجب على الأقل أن توضع فى هذه الأبنية أو فى أبهاء جميلة حول المقابر آثارٌ ونقوشٌ . وهنالك آلاف الأشكال التى يمكن أن تعمل لها ، وآلاف الأنواع من التزيين الصالحة لتوشيتها .

فقالت شرلوت : أنت تقول إن الفنانين أثرياء بموارد فنونهم إلى هذا الحد ! خبرنى إذاً لماذا لا يخرجون أبداً عن شكل المسلة الصغيرة والعمود المقطوع والإجّانة الرُّفاتية ؟ وبدلا من آلاف الابتكارات التى تشيد بها لم أشاهد مطلقاً غير آلاف التكرارات .

— لعل الأمر على هذا النحو عندنا ، بهذا أجاب المهندس ؛ لكن الحال ليست كذلك فى كل البلدان . ويلوح بوجه عام أن العاطفة والتطبيق المناسبين هما شيء خاص . وفى مثل هذه الحالة خصوصا توجد بعض

الصعوبات ؛ فيجب في الموضوعات الجدية إشاعة نوع من السحر ، وفي الموضوعات الأليمة عدم إيجاد أثر أليم . أما فيما يتصل بمشروعات الآثار من كل الأنواع ، فقد جمعت عدداً وافراً منها ، وسأوافيك بها عند الحاجة ، لكن أجمل أثر هو دائما صورة الإنسان نفسه . فهي تعطي فكرة عما كان ، خيراً من أي شيء آخر ؛ وهي أحسن نص يمكن أن تضاف إليه قسمات نادرة أو عديدة . لكن يجب صنع هذا العمل حينما يكون الإنسان في أجمل سنوات عمره ، وهذا عادة هو ما يهمله الناس . فلا أحد يفكر في الاحتفاظ بالأشكال الحية ، ولو حدث هذا فإنه يتم بطريقة غير كافية ولا وافية . هنالك يسرع الإنسان بعمل تمثال من الجبس للميت ؛ ويوضع هذا القناع فوق كتلة حجرية ، وهذا يسمونه تمثالا نصفيا . وما أندر ما ينجح المرء في إشاعة الحياة بقوة فيه !

فأجابت شرلوت :

لقد عثرت — وربما من غير علم ولا قصد — على فكرتي الحقيقية . فإن صورة الإنسان شيء مستقل قائم بذاته : أينما وُجِدَت ، وُجِدت لنفسها ، ولن نسألها أن تعين لنا مكان الدفن . لكن ، أيخلق بي أن أصارحك بشعور غريب ؟ إنني أنفر من الصور نفسها نوعاً من النفور . إنها تلوح لي دائماً كأنها توجه إليّ لوماً خفيا . إنها تذكّر بشيء بعيد ، شيء لم يَعُدْ بعد موجوداً حاضرا ، وتذكرني بمقدار ما هنالك من مشقة في تكريم ما هو باق على نحو ملائم . لو أفكرنا في عدد الناس الذين رأيناهم وعرفناهم ، ولو صارحنا أنفسنا بضآلتنا بالنسبة إليهم ، وفي نظرهم ، وبضآلتهم في نظرنا ، فماذا نشعر آنذاك ؟ نحن نلتقي بالرجل العبقري دون أن نتحدث وإياه ، وبالعالم دون أن نتعلم في صحبته ، والرحالة من دون أن

نفيد من تجاربه ، والرجل العاطفى من دون أن نقول له شيئاً يتملق عواطفه ؛ ومن الأليم أن هـذا لا يحدث مع من نلتقى بهم بطريقة عابرة وحدهم : فإن الجماعات والأسر تسلك نفس المسلك نحو أعز أبنائها ، والمدنُ نحو خيرة مواطنيها ، والشعوب نحو أكرم أمرائها ، والأمم نحو رجالهـا الصِّـيد الممتازين .

« لقد سمعت أحداً يتساءل لماذا يذكر الناس محاسن الموتى بسخاء ، ومحاسن الأحياء بنوع من التحفظ ؟ وأجيب عليه : بأننا لا نخشى شيئاً من الأولين ، بينما الآخرون يمكن أن نلتقى بهم يوماً فى طريقنا . وهـذا هو الطابع النفعى فى عنايتنا بذكرى الآخرين : إنه ليس غالباً إلا تسلية أَثِرة ، بينما الواجب أن نعدَّ شيئاً جدياً مقدساً أن نُنمِّى دائماً النشاط والحياة فى علاقاتنا مع الباقين على قيد الحياة » .

الفصل الثانى

وفى الغد غدا أصدقاؤنا — وقد هزتهم هـذه المسألة وما أثارته من أحاديث — إلى المقبرة ، وأبدى المهندس بعض الأفكار الجيدة من أجل تزيينها وتجميلها . لـكن عنايته كان يجب أن تمتد أيضاً إلى الـكنيسة ، لأن هذا البناء قد استغرق انتباهه منذ اليوم الأول .

لقد أنشئت منذ عدة قرون ؛ وكانت وفقاً للذوق والطراز الألمانيَّيْن ، مشيَّـدة تبعاً لنسب جيـدة ، ومزينة بطريقة ماهرة بارعة . وفى الوسع الاعتراف بسهولة بأن مهندس الدير المجاور قد لذّ له أن يبرز كل ملـكاته فى إقامة هذا البناء أيضا ، الذى وإن كان أقل حجماً فإنه أحدث أثراً ممتعاً رائعا ، على الرغم من أن التغييرات التى أُجريت فى التنظيم الداخلى ،

وفقاً للمذهب البروتستنتى ، كانت كفيلة بأن تُفقد المعبدَ شيئاً من جلاله الهادىء .

وظفر المهندس من شرلوت دون عناء بمبلغ متواضع ، اقترح أن يعيد بواسطته إصلاح الجزء الخارجى والداخلى ، لكى يردهما إلى طرازهما الأول ، وأن يوائم بينه وبين المقبرة الممتدة أمام الكنيسة . وعمل هو نفسه بكل مهارة وحِذْق ، واحتفظ ببعض العمال ، ممن كانوا لا يزالون يشتغلون ببناء الصُّفّة ، من أجل إتمام ذلك العمل الجليل .

وكان لزاماً إذاً زيارة البناء بكل ملحقاته وتوابعه ؛ وكم كانت دهشة المهندس وسروره حينما اكتشف معبداً جانبيا صغيرا فات الناظرين ، كان بارع الهندسة خفيفاً ، ذا ترتيبات جميلة أنيقة . وكان يشتمل على بقايا قطع منحوتة وصور تنتسب إلى المذهب القديم (الكاثوليكية) الذى يحسن التمييز بين مختلف الأعياد بواسطة الصور والأجهزة القديمة العديدة ، ويحتفل بكل منها على نحو خاص .

ولم يتمالك المهندس من إدخال المعبد فى الحال ضمن مشروعه ، وأن يعيد ذلك المكان الضيق بكل عناية ؛ حتى يعود كأثر من آثار القرون الماضية يتفق وذوقها . وفكر فى تزيين الأماكن الخالية وفقاً لهواه ، واغتبط كل الاغتباط باستخدام ملكته فى التصوير : لكنه جعل هذا الأمر سرّاً بالنسبة إلى مضيفه .

وقبل كل شىء أرى السيدتين ، كما وعد ، النسخ المختلفة والمُجْملات التى للقبور القديمة ، والأوانى وغيرها من الأشياء المماثلة . ولما انتقل الحديث إلى أضرحة الشعوب الشمالية بما فيها من بساطة ، أراهما مجموعة الأسلحة والأدوات المختلفة التى وُجدت فيها . وهو كان قد رتب كل هذه الأشياء

لى خير ترتيب وأيسره للحمل ووضعها فى أدراج ذات عيون ، وعلى ألواح مشقوقة مكسوة بالجوخ ، حتى إن هذه الأمتعة العتيقة الجدية قد اتخذت بفضل عنايته مظهر الأناقة وأصبحت العيون ترنو إليها بسرور ، كما هى الحال فى صناديق تاجر الأزياء الجديدة . ولما بدأ يعرض كنوزه ، وكانت الوحدة تدعو إلى الملاهى والتسلية ، عمل على أن يظهر قسما منها كل مساء ، وكان أغلبها من أصل ألمانى : مُخَلّفات ونقود وأختام وما إليها . وكل هذه الأشياء تعود بالخيال إلى العهود القديمة ؛ ولما توّج التسلية بعرض النماذج الأولى للطباعة والنقش على الخشب والنحاس — وبهذه الروح تبدت الكنيسة نفسها كأنها تتقهقر فى الماضى يوماً بعد يوم ، بواسطة الرسوم وبقية التزيينات — وصلت الحال بالمرء منهم أن يتساءل هل هو يحيا حقاً فى العصر الحديث ، وعما إذا لم يكن حُلْماً أن يجد نفسه منذ الآن وسط عادات وأخلاق ومعاملات واعتقادات مختلفة كل الاختلاف .

ولما تهيأت النفوس على هذا النحو أحدثت حافظةُ أوراق كانت آخر ما أتى به المهندس ، أحسنَ الأثر . أجل إنها لم تكن تشتمل إلا على صور رسمت رسماً بسيطاً ، لكن طبعت على النماذج الأصلية حتى إنها احتفظت تماماً بطابعها القديم . وكم كانت فتنتها فى نفوس سيدتينا ! وفى كل هذه الصور تكشف أصفى شعور ، وتبدى طابع من النبل أو على الأقل من الإحسان ظاهر . فكان يقرأ على كل الوجوه التأمل السعيد ، وعبادة كائن أعلى ، والتسليم الوديع فى الحب والرجاء ، وكانت تنبض بهذا كل الحركات والإشارات . فالشيخ الأصلع ، والطفل ذو الشعر المقوص ، والفتى المتوثب والرجل الجادُّ ، والقديس الطاهر ، والمَلَك الناشر أجنحته ، كلها لاحت سعيدة ترفل فى سرور برىء ، وتنعم برجاء ورع . وعلى أتفه الأفعال سيماء

الحياة السماوية ، وتبدت خدمة الله كأنها الرسالة الطبيعية لكل فى الحياة .

وكان الجميع يتأملون هذا العالم كأنه عصر ذهبي انقضى ، أو جنة مفقودة . ولعل أو تيلى كانت وحدها التى استطاعت أن تشعر بأنها فى عالم أليف لها ، عالم من جنسها .

ومن ذا الذى كان يستطيع أن يرفض عروض المهندس ، حينما اقترح ، بمناسبة هذه الأشكال والصور المثالية ، أن يرسم المساحات الموجودة بين عروق قباب المعبد ، وبهذا يربط ذكراه بالمكان الذى أُحْسِن فيه استقبالُه ! وعرض رأيه فى هذه المسألة بشيء من الحزن ، لأنه رأى جيداً ، من شواهد الحال ، أن مقامه فى مثل هذه الجماعة الممتازة لا يمكن أن يستمر طويلا ، بل لعله لابد أن ينتهى وشيكا .

وفضلا عن هذا فإن هذه الأيام التى تمتلىء بالأحداث قد سببت كثيراً من الأحاديث الجدية ؛ وإنّا لننتهز هذه الفرصة كيما نقتبس بضع مقتطفات من « يوميات » أوتيلى مما ينتسب إلى تلك الفترة . ولسنا نجد وسيلة للانتقال خيراً من تشبيه يخطر ببالنا ونحن نتصفح هذه المجموعة العزيزة .

فالناس يتحدثون عن عادة غريبة مُتّبعة فى البحرية الإنجليزية . فكل حبال البحرية الملكية ، من أغلظها حتى أرفعها ، قد فُتِلت على نحو يجعل خيطاً أحمر يخترقها كلها ، ولا يمكن فصله دون حلها جميعاً ؛ مما يسمح بمعرفة أن أصغر الأجزاء ينتسب أيضاً إلى العرش . وبالمثل ، يسرى فى «يوميات» أوتيلى خيط غرام وحنان ، يربط الكلّ ويميزه بطابع خاص . وعن هذا الطريق تصير هذه الملاحظات والتأملات والخواطر والأمثال المستعارة ، وبقية الأشياء التى نجدها فيها ملائمة لمن تكتبها ، ذات أهمية خاصة لديها . وكل فقرة اخترناها واقتبسناها ستقدم على هذا الدليلَ الحاسم .

من يوميات أوتيلى

أغرب خاطر يجول بفكر الإنسان حينما يستشرف إلى ما وراء هذه الحياة هو الرقاد يوماً ما إلى جوار من أحبهم . « أن يُضَم المرء إلى صِحابه » : هذا تعبير بالغ التأثير !

هناك آثار وتذكارات من عدة أنواع تذكرنا بالموتى والغائبين . لكن لا شيء منها يفوق الصورة . فالتحدث إلى صورة عزيزة ، حتى لو لم يكن التشابه كاملا ، فيه نوع من الفتنة والإغراء ، كما أنه من المغرى أحياناً أن يتجادل الإنسان مع صديق . إذ يشعر المرء على نحو لذيذ بأنه اثنان ، ومع هذا فالانفصال ليس من المستطاع .

أحياناً مايتحدث الإنسان مع شخص حاضر وكأنه يتحدث إلى صورة . فليس من الضرورى أن يتحدث أو يتطلع إلينا ، أو يهتم بنا : ومع هذا فنحن نراه ونشعر بصلاتنا به ؛ بل إن هذه الصِّلات يمكن أيضاً أن تنمو وتزيد ، دون أن يعمل المرء شيئاً فى هذا السبيل ، ودون أن يحس بشىء مما حدث ، إلى درجة أنه لا يكون فى نظرنا إلا مجرد صورة .

لا يمكن المرء أن يرضى عن صورة الأشخاص الذين نعرفهم ؛ لهذا فإنى رثيت دائماً لحال الرسامين الذين يشتغلون بهذا النوع . من النادر أن يطلب المرءُ المستحيلَ من الناس ، لكن هذا هو بعينه ما نقتضيه من هؤلاء الفنانين . نريد منهم أن يُدخِلوا فى رسمهم علاقاتِ كُلٍ بالأشخاص المرسومين وما بينه وبينهم من حب أو كراهية . ولا يجب عليهم أن يمثلوا الشخص كما يرونه ، بل كما يمكن كُلاًّ أن يراه . لذا لا أدهش من كون هؤلاء

الفنانين يصيرون شيئاً فشيئاً عنيدين هوائيين غير مكترثين ولا مبالين : وما كان لهذا الأمر من ضير لولا أن نتيجته أن يزهد المرء فى امتلاك صورة كثير من الأشخاص الأعزاء .

ليس من شك فى أن مجموعة المهندس : هذه الأسلحة وهذه الأدوات القديمة التى دفنت مع الجثة فى المقابر الكبيرة وتحت الأحجار الضخمة ، تدل دلالة قاطعة على مقدار عدم فائدة الاختبارات التى يتخذها الناس لصيانة شخصهم بعد الموت . وما أقل اتفاقنا مع أنفسنا ! .. لقد اعترف المهندس بأنه فتح بيده قبور الأسلاف هذه ، ومع هذا فهو يستمر على الاهتمام بإقامة التماثيل والآثار من أجل الأخلاف .

لكن لماذا نأخذ الأمور هذا المأخذ القاسى ؟ أفكل ما نعمله نعمله للخلود ؟ أفلا نرتدى ثيابنا فى الصباح لنخلعها فى المساء ؟ ألا نقوم بالأسفار لنعود إلى حيث كنا ؟ فلماذا لا نأمل فى الرقاد إلى جوار أهلنا وصحابنا ، حتى لو لم يكن ذلك إلا لمدة قرن من الزمان ؟!

حينما يرى المرء كل أحجار الأضرحة هاتيك مطمورة فى التراب ، أو تعفى عليها أقدام المخلصين بل وتنهار الكنائس نفسها فوق قبورهم ، حينما يرى المرء هذا كله يمكنه دائماً أن يتصور الحياة بعد الموت على أنها حياة ثانية ، يدخلها المرء بصورة أو نقش ، وفيها يبقى أطول مما يبقى فى حياة الأحياء ؛ لكن هذه الصورة ، وهذه الحياة الثانية ، ستفنى إن عاجلاً أو آجلا . إن الزمان لا يسمح بأن تسلب حقوقه عند الآثار أكثر منه عند الناس .

الفصل الثالث

ما أعذب الاشتغال بالأشياء التى لا نعرفها إلا معرفة ناقصة ! وليس لإنسان أن يلوم الهاوى الذى يتعلق بفن لن يتعلمه أبدا ، ولا الفنانَ الذى يتجاوز حدود فنه فيلذ له أن يقوم بجولة فى الميادين المجاورة .

بهذا الشعور العادل كان المهندس قد تهيأ لرسم المعبد . وكانت الألوان مُعَدَّة ، والمقاييس قد أُخِذت ، والرسم التمهيدى قد خُطِّط : وهو لم يدع الابتكار ، بل تعلق بمجملاته ؛ وكان هَمّه الوحيد أن يُحْسن توزيع الأشكال الجالسة والطائرة ، وأن يُعمل منها لهذا المكان زينةً جيدة الذوق .

نُصِبت القوائم وتقدم العمل ؛ ولما كانت بعض الأجزاء مما يثير الاستطلاع قد تم إنشاؤها ، فإن الفنان لم يكن فى وسعه أن يغضب من زيارات شرلوت وأوتيلى له . وكانت صور الملائكة تفيض كلها حياة ، والأقمشة المتماوجة التى تنفصل عن زرقة سماوية تفتن العيون ، بينما كان مظهرها الساكن الورع يهيب بالقلب أن ينطوى على نفسه ويتأمل ، ويدعو النفس إلى الرقة والحنان .

صَعِدت السيدتان على القوائم ؛ ولم تكد أوتيلى تبصر مقدار ما فى سير العمل من سهولة ويُسْر ودقة ، كأنه بالفرجار ، حتى لاحت ثمار دراستها الأولى كأنها نمت فى الحال وانبعثت ؛ فأخذت لوح الألوان والريشة ، ووفقاً للارشادات التى قدمت إليها ، خططت قماشاً عديد الثنيّات ، بكل مهارة وصفاء .

ولما رأتها شرلوت تشتغل بشىء وتسرِّى عن نفسها على نحو ما ، سرها ما شاهدت ، فتركت الهاويَين يواصلان عملهما ، وابتعدت لكى تفرُغ

لأفكارها الخاصة ، وتناقل نفسها الحديث عن الأفكار والهموم التى لا تستطيع أن تفضى بها إلى أحد .

وإذا كان التافهون من الناس يثيرون فينا ابتسامة الشفقة ، حينما نشاهد المضايقات الصغيرة فى الحياة اليومية تثير فى نفوسهم قلقا محموماً ، فإننا نتأمل باحترامٍ هذا القلب النبيل الذى يبذر فيه جرثومة مصير كبير و يُضطر إلى الانتظار حتى النهاية ، انتظار أن تنمو هذه الجرثومة ، دون أن يجرؤ أو يقدر على التعجيل بما لابد أن ينشأ عنها من خير أو من شر .

إن إدورد بعد أن تلقى فى عزلته رسالة شرلوت ، رد عليها بطريقة تنم عن الصداقة والعطف ، لكن بلهجة أقرب إلى الجد والتحفظ منها إلى الألفة والتعاطف . وبعد زمان قصير اختفى ، ولم تستطع زوجه أن تكتشف ما آل إليه أمره . وأخيراً شاهدت بالصدفة اسمه فى الجرائد ، مذكوراً بالتميز ، بين الضباط الذين برّزوا فى مسألة هامة . فعرفت آنئذٍ أى طريق سلك ؛ واستطاعت أن تتبين أنه نجا من مخاطر كبيرة ؛ لكنها فى الآن نفسه اقتنعت بأنه لا بد سيسعى إلى ما هو أكبر منها ، واستنتجت من هذا بكثير من اليقين أنه من العسير على كل حال أن يحال بينه وبين الاندفاع إلى أبعد الأطراف . فشغلتها هذه المخاوف فى صمت ، وتواردت عليها فى غير انقطاع ، ومهما قلبت الأمر على وجوهه ، فإنها لم تستطع أن تكتشف فيه مايبعث فى نفسها الطمأنينة .

أما أوتيلى التى لم تحدِس شيئاً من هذا كله فقد أقبلت على عملها بحرارة وحماسة ، واستطاعت بسهولة أن تظفر من شرلوت بالإذن لها بمواصلته بانتظام . هنالك تقدمت بسرعة ، وسرعان ماملىء الأزرق السماوى بسكان ممتازين . وبهذا التمرين المتصل ظفر فَنّانانا ، فى الصور الأخيرة ، بحرية فى

الرسم أوسع . فجاءت أحسن كثيراً . والوجوه التى وُكل إلى المهندس وحده رسمها تبدت شيئاً فشيئاً ذات طابع خاص يستلفت النظر بشكل واضح : وقليلا قليلا شابهت كلُّها وجه أوتيلى . فإن حضرة هذا الإنسان الجميل لا بد أن تكون قد أحدثت أثراً عميقاً فى نفس ذلك الشاب الذى لم يكن قد ظفر بعد ، لا فى الطبيعة ولا فى الفن ، بأى نموذج سماء ، حتى إن كل شىء انتقل — من غير شعور — من العين إلى اليد ، دون فقدان شىء ، وأخيراً تضافرت العين مع اليد فى العمل على وفاق كامل : وبالجملة ، نجح أحد الوجوه الأخيرة نجاحاً كاملا ، إلى حد أن المرء يخيَّل إليه أن أوتيلى نفسها ماثلة تلقى من علياء سمائها بنظراتها على الأرض .

وتمت القُبَّة ؛ وكان الرأى أن تترك الجدران عارية ، إنما تغطى فقط بطبقة سمراء فاتحة ، عليها تبرز الأعمدة الرقيقة وزخارف النحت بواسطة لون أغمق ؛ لكن كما يحدث فى مثل هذه الأحوال من أن شيئاً يقود دائماً إلى آخر ، فقد قر العزم على أن ترسم على الجدران أيضاً أكاليل من الأزهار والثمار ، من شأنها — على نحوٍ ما — أن توحد ما بين الأرض والسماء . وفى هذا أحست أوتيلى بأنها بنت بجدتها . وكانت البساتين خير نموذج تحتذيه ، وعلى الرغم من أن هذه الزخارف قد عولجت بثراء واسع ، فإن العمل قد تم قبل الأوان المقدّر له .

ومع هذا فقد لاح كل شىء متبدّى الخشونة والإهمال : فالقوائم كانت مختلطة ، والألواح متناثرة بعضها فوق بعض ، والأرضية غير مستوية ، قد زاد من تشويهها مختلف الألوان التى نشرت عليها . فسأل المهندس السيدتين أن يدعا له ثمانية أيام لا يدخلان فيها المعبد . وأخيراً فى أُمسية جميلة دعاهما للمجىء كُلاًّ من ناحية ؛ ولكنه سألهما أن يعفياه من مصاحبتهما ، وانصرف .

— مهما يكن من الدهشـة التى أوقعنا فيها حينما خرج ، هكذا قالت شرلوت — ، فليست لدى الآن أية رغبة فى الذهاب إلى المعبد . فـكافى نفسك وحدها هذه المهمة ، وأبنئينى نبأ ما سترين . وليس من شك فى أنه عمل عملا جميلا ؛ وسأنعم به بواسطة وصفك أولا وبالعِيان ثانياً .

وكانت أوتيلى تعلم جيداً كيف أن شرلوت تلتزم الحذر فى كثير من الأشياء ، وتتجنب كل الانفعالات ، ولا تريد خصوصاً أن تقع فى دهشة ؛ لهذا سلكت سبيلها وحدها فى الحال ، وبغير إرادة منها تفقدت المهندس بعيونها . لـكنه لم يظهر : ولعله قد اختفى فى ركن ما . فدخلت المعبد ووجدته مفتوحاً . وكان قد تم منذ زمان طويل ، ونُظِّف وكُرِّس . فتقدمت ناحية باب الـكابـلّة ، الذى انفتح بسهولة على الرغم من أنه كان ثقيلا مزوداً بالبرنز ، وسمح لها ، فى مكان كانت تعرفه ، برؤية مشهد لم يخطر لها على بال .

فمن النافذة الوحيدة العالية كان يسّاقط نور قاتم ، اختلط فى جمـال بأصباغ متنوعة هى أصباغ الزجاج الملون ، مما أعطى الـكل لوناً غريباً ، وأحدث فى النفس أثراً من نوع خاص تماماً . وزادت زخارف الأرضية من جمال القبة والجوانب ، وقد كانت الأرضية مكونة من طوب ذى شـكل خاص مرصوف وفقاً لنموذج جميل ومترابط معاً بواسطة طلاء من الجبس . وهذه المربعات ، هى والزجاج الملون ، قد أعدها المهندس سراً ، وكفاه وقت قصير لترتيب كل شىء . وحسب حسابا للجلوس : فبين أثاث الـكنيسة العتيق كانت توجد بعض مقاعد الجوقة أنيقة النحت ، فأسندت إلى الجدران التى تحيط بها على نحو ملائم .

نعمت أوتيلى بالأجزاء المعروفة لها وقد تبدت أمامها الآن كأنها مجموع

جديد . وقفت حينا ، وغدت وراحت ، وتأملت وشاهدت ؛ وأخيراً جلست على أحد المقاعد ، ورفعت عينيها إلى القبة ثم أجالتهما فيما حولها ، فلاح لها أنها موجودة وأنها غير موجودة ، أنها تشعر ولا تشعر ، وأن كل ما رأته على وشك أن يزول أمامها ، وأنها هى ستزول أمام نظر نفسها . ولم تخرج الفتاة عن أحلامها إلا حينما غادرت الشمسُ النافذة التى كانت ترسل عليها فيضا من النور حتى ذلك الحين . ثم دَلَفت إلى القصر .

ولم تكتم نفسها أىَّ زمن غريب جرت لها فيه تلك المفاجأة . لقد كان عشية عيد ميلاد إدورد ، وهى كانت قد أمَلت أن تحتفل به على نحو آخر مختلف تماما . لكن كم صار كل شيء مزدانا من أجل هذا العيد ! الآن قد تفتحت كل أزهار الخريف الجميلة ، ولم يقتطفها أحد بعد . إن أزهار عباد الشمس هذه لتدير وجهها دائمـا قِبَل السماء ، وهذا الأَسْطير يغض عيونه بتواضع نحو الأرض ، وتلك التى ضُفرت على هيئة أكاليل قد استخدمت كنماذج لتزيين مكان ، إن لم يكن له أن يبقى دائمـا نزوة فنان ، وإذا كان لا بد من تكريسه لمنفعة ما ، فإنه يلوح أنه لا يليق إلا أن يكون مقبرة مشتركة .

ثم تذكرت بأى نشاط صاخب تم الاحتفال بعيد ميلادها بفضل إدورد ؛ فأفكرت فى البيت الجديد ، الذى اتُّسِعَ تحت سقفه على كثير من أسباب السرور ؛ وكيف كانت الشُّهمان النارية تتلألأ تحت سمعها وبصرها ؛ وكلما ازداد شعورها بوحدتها ازداد انشغال خيالها ، لكن هذا لم يزد وحدتها إلا وحشة وكآبة . إنها لم تعُد تستند بعدُ إلى ذراع إدورد ، ولم تعد تأمل بعد فى أن تجد فيه يوما سندها وعمادها .

من يوميات أوتيلى

يجب أن أسجل خاطر فنان شاب : الأمر عند الفنان التجسيمى شأنه شأن الصانع : فلا بد من الاعتراف بكل يقين بأن الإنسان لا يكون أقل ملكا لشيء منه لما ينتسب إليه حقا . إن أعماله لتهجره ، كما تهجر الطيورُ الأوكار التى وُلدت فيها .

ومن هذه الناحية يكون مركز المهندس غريبا كل الغرابة . فكم مرة يستخدم كل عبقريته وكل تعشقه للفن ، لإقامة أبنية يجب أن يخرج نفسه منها ! إن مساكن الملوك لتدين له بروعتها وجلالها ، ولا يسمح له بالتمتع بخير ما فيها ؛ وهو فى المعابد يرسم خط تحديد يفصل بينه وبين قدس الأقداس ؛ وليس له بعدُ أن يطأ الدرجات التى وضعها من أجل احتفال تهذيبى ، شأنه شأن الصائغ الذى لا يستطيع أن يتعبّد معرض القربان المقدس الذى رتب هو جواهره ومبناه إلا من بعيد . إن المهندس حينما يقدم مفتاح القصر إنما يسلّم إلى الغَنِىّ كل المتَع واللذائذ ، دون أن يشارك هو فيها بأدنى نصيب . وعلى هذا ، أفلا يجب على الفن إذاً أن يتباعد عن الفنان شيئا فشيئا ، اللهم إلا إذا لم يردَّ العملُ الفعلَ على منشئه كالابن البار ؟ وأى تشجيع لا بد للفن أن يجده فى نفسه ، حينما كان يلذ له ألا يشتغل إلا بالأعمال العامة ، بما ينتسب إلى كل الناس وبالتالى إلى الفنان نفسه !

كانت لدى الشعوب القديمة فكرة قاسية ، يمكن أن تبدو رهيبة . لقد كانوا يتخيلون أجدادهم جالسين على عروش فى داخل كهوف ضخمة يتحدثون فى صمت ؛ فإذا أتاهم عضو جديد جدير بالتقدير ، وقفوا

له وانحنوا ، إكراما لوفادته . وبالأمس ، حينما جلست فى الـكابلَّة ، ورأيت قُبالة مقعدى المنحوت مقاعد أخرى عديدة ، مصفوفة من حولى ، تبدت لى تلك الفـكرة جميلة سارة . « لمـاذا لا تستطيعين أن تظلى جالسة ؟ هكذا قلت لنفسى ؛ ابـقَىْ جالسة ، صامتة ، متأمّـلة ، لزمان طويل ، طويل ، حتى اليوم الذى يأتى فيه أصدقاؤك ، فتنهضين واقفة لمرآهم ، وبتحية صادقة ، تشيرين إليهم بالمـكان الذى ينتظرهم ؟ إن الألواح الزجاجية الملوّنة لتجعل من النور أصيلا كابيا ، ولا بد أن يضع أحد الناس مصباحا دائما كيلا يدع الليل مستغرقا فى ظلام شامل » .

فى أى مكان شئت أن توجد به يخيّـل إليك دائما أنك تبصر وترى . إننى أعتقد أن المرء يحلم لا لشىء إلا لـكيلا يتوقف الإبصار والرؤية . فمن الممكن أن يحدث أن ينبثق النور الباطن مرة من داخل نفوسنا ، بحيث لا يكون غيرُه ضروريا لنا .

العام بسبيل الزوال ؛ والريح تمر فوق القش ، ولا تجد بعد شيئاً تهزه ؛ والحبوب الحمراء لهذه الأشجار الفارعة تبدو هى وحدها التى تريد أن تذكرنا ببعض الأفـكار الباسمة ، كما أن الضربات الموزونة للدرّاس فى الحقل تثير فينا فـكرة أن الغذاء والحياة كامنان بوفرة فى السنبلة المحصودة .

الفصل الرابع

بعد أمثال هذه الأحداث ، وبعـد أن نفذت مشاعر بطلان الشئون الإنسانية فى كل أعماقها ، كم كان تأثر أوتيلى حينما علمت (ولم يكن من الممكن إخفاؤه عنها طويلا) أن إدورد قد أسلم نفسه لعواصف الحرب !

وا أسفاه ! لقد انساقت وراء كل ما عسى أن يثيره هذا من تأملات وخواطر وأفكار . لكن لحسن حظ الطبيعة الإنسانية أنها ليست قادرة إلا على مقدار محدود من الألم . وما يزيد عنه يقتلها أو يدعها غير مكترثة . وهناك مواقف يختلط فيها الخوف والرجاء ، يوازن كلٌّ منهما الآخر ويفنيان فى فقدان للشعور غامض . وإن لم يكن الأمر على هذا النحو ، فكيف نحتمل أن يكون أعز الناس لدينا بعيدين عنا مستهدفين لأخطار متصلة ، ومع هذا نمضى فى أعمالنا فى الحياة اليومية ؟!

يلوح إذاً أن ملاكا حارساً قد عُنِى بالسهر على أوتيلى ، بأن أتى لها فجأة ، فى مأواها الهادىء الذى قبعت فيه وحيدة عاطلة من الأعمال ، بجيش جرار سبب لها خارجياً القيام بكثير من الأعمال التى انتزعت نفسها منها ، وفى الآن نفسه أيقظ فيها الشعور بقواها الخاصة .

فلوسيانه ، ابنة شرلوت ، لم تكد تغادر مدرستها حتى دخلت المجتمع ؛ ولم تكد يراها الناس فى بيت عمتها ، محفوفة بجماعة عديدة ، حتى أرضت رغبتها فى الإغراء ، وسرعان ما شعر شاب واسع الثراء برغبة حارة فى امتلاكها . وقد كان يساره العظيم يعطيه الحق فى امتلاك خيار كل شىء ، ولم يَلُحْ أن شيئا عاد ينقصه بعد إلا الزوجة الكاملة التى لا بد أن تثير فى الناس الحسد ، كما يثير هذا غيرة مما لديه من الأشياء .

وهذه مسألة كثيراً ما شَغَلت شرلوت حتى ذلك الحين ، فكرّست لها كل أفكارها ، وكانت كل رسائلها تدور من حولها ، اللهم إلا تلك التى كانت لا تزال تكتبها كيما تظفر بأخبارٍ عن إدورد . لهذا فإن أوتيلى قد أصبحت فى الأيام الأخيرة فى وُحْدة أشد إيحاشا عما قبل . أجل ، إنها كانت تعلم أنهم ينتظرون لوسيانه ؛ وهى قد أعدت فى المنزل كل ما يلزم ، لكن

لم يكن من المتوقَّع أن تـكون الزيارة قريبة كل ذلك القرب . وهم شاءوا أيضاً أن يكتبوا ويتفاهموا ويتفقوا على التفاصيل ، لـكن العاصفة هبت فجأة على القصر وعلى أوتيلى معا .

قدِم الوصائف والخـدم فى عربة ومعهم الحقائب والصناديق . حتى ليخيل إلى المرء أنه يرى فى البيت أسرتين من السادة أو ثلاثا . وعما قليل أقبل الضيوف أنفسهم : العمة الـكبرى ومعها لوسيانه وبعض صديقاتها ، والخِـطيب نفسه ومعه حاشية وافرة . وامتلأ الدهليز بالمتـاع والحقائب والعِياب . وكان لابد من كثير من المشقة لتمييز كل هذه الأمتعة والصناديق ؛ ولم يقف الحل والتفريغ والجر . وزاد فى هـذه المتاعب انهمار مطر دافق . أما أوتيلى فقد قابلت هذا الاضطراب الصاخب بنشاط مُـتّزن هادىء ؛ وتبدت نصاعتها ومهارتها بكل جلاء ؛ وفى وقت قصير وضعت كل شيء فى مكانه ورتبته . واتخذ كلٌّ مسكنا طيبا رافها يتفق وهواه ، وخُيِّـل إليه أنه ينعم بخدمة ممتازة ، لأنه لم يُمْـنع من خدمة نفسه بنفسه .

وبعد هذه الرحلة الشاقة كل المشقة ، كان كلٌّ يود أن يحظى بشيء من الراحة ، وكان يود الخطّـيب أن يقترب من حماته ، كيما يحدثها عن مشاعره وطيب نواياه ؛ لـكن لوسيانه لم تُطِـق الهدوء .

ووفقاً لمشيئتها ، ظفرت أخيراً بجواد : وكان خطيبها يملك من الخيول أنواعاً فخمة ، وكان لابد من استخدامه فى الحـال . فلم تكن رداءة الجو والرياح والمطر والأنواء عقبات فى ذلك السبيل : ولاح أن المرء منهم لا يحيا إلا ليبتلّ ثم يتجفف بعد . وإذا شاء للوسيانه هواها أن تخرج ماشية على قدميها ، فإنها لم تكن تحسب حساباً لثيابها ولحذائها . وأرادت زيارة المنشئات التى سمعت عنها حديثاً طويلا . وما كان غير ميسور لها ارتياده على الجواد ،

كانت ترتاده على قدميها . وبعد قليل كانت قد رأت كل شيء وقدرته . وإن شخصا له مثل مالها من حرارة وحمية لا يتيسر له احتمال المعارضة بسهولة . وكم شكت الجماعة منها فى هذا القصر ، خصوصاً الوصيفات اللائى كُن لا يفرُغن من الغسيل والكى والخياطة والرفو .

وما كاد القصر وما حوله يستنفد حب استطلاعها ، حتى وجدت نفسها مضطرة إلى القيام بزيارات فى كل المنطقة المجاورة . ولما كانت تسرع فى سيرها كل الإسراع ، إما على الجواد ، أو فى العربة ، فإن المنطقة قد امتدت إلى مدى بعيد . وأقبلت على القصر وفود زاخرة من الناس الذى قَدِموا للزيارة ، ولكى يضمن وجودهم ، حُدِّدت أيام للاستقبال .

وبينما كانت شرلوت مشغولة هى وعمتها ومدير أعمال الخطيب بوضع شروط العقد ، وبينما كانت أوتيلى تحسن الإشراف على كل شيء وتدبير كل ما يُحتاج إليه وسط هذا التدافع الكبير (وهى قد عبأت القناصين والبستانيين والصيادين والتجار) — كانت لوسيانه تتبدى دائماً كأنها نجم مذنب متوقد يجر وراءه ذنباً طويلا مسترسلا . وسرعان ما بدت لها أسباب التسلية العادية للجماعة تافهة خالية من كل طعم . وقليلا ما كانت تترك للأشخاص الكبار شيئاً من الراحة عند منضدة اللعب . وكل من كان لا يزال قادراً على التحرك (ومن ذا الذى لا ينساق وراء مضايقاتها الفاتنة !) كان لا بد له من المشاركة ، إن لم يكن فى الرقص ، فعلى الأقل فى هذه الألعاب المتوبلة بالمراهنات والعقوبات والمكائد . وحتى لو لم يكن لكل هذه التسليات ، وما يتلوها من فداء الرهائن ، من موضوع غيرها ، فإن أحداً ، وخصوصاً الرجال ، مهما يكن من طبعه وخلقه لا يمكن أن ينسحب منها دون أن يظفر بشيء . بل لقد نجحت أيضاً فى إغراء بعض المُسِنِّين ذوى المكانة المرموقة ، وذلك

باحتفالها بأيام أعيادهم أو ميلادهم بعد أن تكون قد وقفت على أمرها . وعرفت بمهارة عجيبة كيف تقنع كل إنسان — بما تشمله من عطف — بأنه المفضل عندها الأثير لديها ، وهذا ضعف كان أكبر الجماعة سناً أولى الناس بأن يلوموا أنفسهم عليه .

ويبدو أن خطة لوسيانه هي أن تأسر قلوب الرجال البارزين الذين ينعمون بالمكانة أو الجاه أو الشهرة أو أية ميزة أخرى ، وأن تذل الحكمة والفطنة وأن تجعل حتى أكثر الناس تحفظاً طوعَ أهوائها العاصفة . ولم يضع نصيب الشباب من هذا ؛ فلقد كان لكلٍّ حظه ويومه وساعته التي فيها تعرف كيف تغريه وتأسره . وبعد قليل لاحظت المهندس : لكنه كان يحمل ، تحت شعره الجُفال الأسود ، سيماء البراءة الكاملة ؛ فكان ينتحي جانباً ، وعليه مسحة البساطة والهدوء ؛ وكان يجيب عن كل الأسئلة بأجوبة موجزة حكيمة ، دون أن يبدي استعداداً للزيادة والاستزادة ، حتى إنها قررت في النهاية — عن حَنَق يمازجه المكر — أن تجعل منه مرةً بطل اليوم وأن تدرجه من بين حاشيتها .

وهي لم تحضر كل هذا المتاع معها وبعد وصولها عبثاً : فإنها قد أرصدت أُهْبَتَها لتبديل زينتها باستمرار إلى غير نهاية . ففضلا عن أنها كان يلذ لها أن تقوم كل يوم بثلاث زينات أو أربع وأن تظهر دائماً ، من الصباح حتى المساء ، بأثواب جديدة ، فإنها كانت تبدو في الأثناء في ثياب تنكرية على هيئة فلاحة أو امرأة صياد أو جنية أو بائعة أزهار ؛ ولم تستحْيِ من التنكر في زي امرأة عجوز ، كيما يتبدى وجهها الشاب أكثر نضارة تحت عُصابتها ؛ والواقع أنها كانت تمزُج بين الخيال والواقع على نحو يجعل المرء يعتقد أنه على صلة قربى ومحالفة مع أُنْدين نهر الراله . بيد أنها كانت تستخدم هذه

التنكرات لمناظر المحاكاة ورقصاتها ، وفيها كانت تكشف عن قدرتها على التعبير عن مختلف الأشخاص ومحاكاتهم . وهى كانت قد مرّنت فارساً من حاشيتها على أن يصاحب حركاتها ببعض الألحان الضرورية يوقعها على البيان ذى المفاتيح . وكانت بضع كلمات قليلة تكتبها للتوافق ، وسرعان ماينسجمان .

وذات يوم أثناء استراحة فى رقص وافر الحركة سئِلت ، بإيماز خفىٍّ منها — لكن كأن الأمر مفاجأة — أن تمثل منظراً من ذلك النوع ، فبدا الاضطراب عليها والدهشة ، وعلى غير عادتها اضطرت السائلين إلى الإلحاح . ولاح منها التردد ، تاركة الخيار للجماعة ، سائلة موضوعاً ، شأنها شأن كل مُمَرَّن تَجِل ؛ وأخيراً قام الفارس الذى كان يسايرها على البيان ، والذى ربما دبّرت الأمر وإياه ، وبدأ يعزف لحنا جنازياً ودعاها إلى تمثيل أرتميسيه(١) وهو دور أتقنته كل الإتقان . ثم أبدت موافقتها ، وبعدغيبة قصيرة تبدت ، على ألحان اللحن الجنازى الحزينة ونغماته المؤثرة ، فى ثياب الأرمل الملكية ، بخطوات موزونة ، تحمل إجّانة بين ذراعيها . ومن خلفها كانت تُحمل لوحة سوداء كبيرة ، وفى مَقْلمة من الذهب قصعة من الطباشير جيدة الصنع .

---

(١) هى ملكة كاريا (وهى مقاطعة فى جنوب أيونا وشرقى وشمال البحر الإيكارى وغربى أفريجيا الصغرى فى آسيا الصغرى) ، وهى ابنة هيكاتومنوس ملك كاريا أو هليكارناسوس . تزوجت أخاها موسولس الشهير بوسامته وجماله . وقد بلغ من حبها لزوجها أنها — حين مات — شربت رماده فى شرابها بعد أن أحرق بدنه ، وأقامت تمثالا لذكراه عدّ من بين عجائب الدنيا السبع لما فيه من فخامة وجلالة . وأطلقت على هذا التمثال اسم «موسوليوم» ، وهو اسم أطلق من بعد على كل ضريح فخم . ودعت كل الأدباء فى عصرها وعينت جوائز ثمينة لمن يقول خير مرثية فى زوجها ، ولم يُجْد أى عزاء فى صرفها عن حزنها على زوجها ، فماتت من الغم بعد سنتين من وفاته .

ثم همست فى أذن أحد أتباعها وعابديها يضع كلمـات ، فانطلق لفوره يسأل المهندس ويلح عليه ، ويدفع به على نحوٍ ما ، إلى داخل الحَلْقة ، إلى حـد أنه اضطر إلى أن يرسم ، بوصفه فناناً ، مقبرة موسول ، دون أن يقتصر على دور الدخيل ، بل لعب دوراً جدّيا فى هذا التمثيل . وعلى الرغم مما بدا عليه من اضطراب (لأن ثوبه الضيق الحديث كان فى مفارقة بارزة مع الأقنعة والكريب والهُدّاب والشراريب وألوان الزينـة والتيجان) ، فقد ظل مالـكا لسلطان نفسه ، مما زاد فى روعة المنظر . وبكل جِدّ ووقار وقف أمام اللوحة الـكبرى التى كان يحملها خادمان ، ورسم بكل عناية ودقة مقبرةً كانت أنسب أن تكون — والحق يقال — لملك لباردى منها لحاكمٍ كاريا ، لـكن كان فى نسبها من الجمال وفى أجزائها من دقة الذوق ، وفى زخارفها من الحذق والبراعة ما جعلها تلذ الأعين حين بُدِئ فيها وتثير الإعجاب حين تمامها .

وطوال هذا الوقت كله لم يكد يدير وجهه ناحية الملـكة ، إذ وجّه كل انتباهه إلى عمله ؛ وأخيراً حينما انحنى أمامها ، وأفهمها أنه أنفذ أوامرها ، قَـدّمت هى إليه الإجانة ، مُبدية رغبتها فى أن تراها مرسومة فى أعلى التمثال . فامتثل لـكن عن أسف ، لأن هذه الإجانة لم تكن على انسجام مع مُجْمله . وهكذا شعرت لوسيانه بأنها تخلصت من حَرَجها . فهى لم تقصد مطلقاً إلى أن تطلب إليه رسماً دقيقاً : فلو أنه اقتصر على أن يرسم بصورة إجمالية وببعض ضربات من قلمه موضوعاً عليه مسحة تمثال ، فقد كان هذا أكثر ملاءمة لمقاصدها وأغراضها . ولـكن مسلك المهندس أوقع بها — على العكس من هذا — فى حيرة لا مخرج منها . والواقع أنها على الرغم من أنها حاولت أن تدخل كثيراً من التنويع فى آلامها ، وأوامرها وإرشاداتها ، وفى

المدائح التى أسبغتها على العمل وهو يتقدم قليلا قليلا ؛ وعلى الرغم من أنها كانت أحياناً تحدث للفنان بعض المعاكسات ، لكى تدخل فى منظر معه ، فإنه قد أبدى من البرود ما حملها مراراً على اللجوء إلى إجانتها تضغطها على قلبها ، وترفع عينيها إلى السماء . ولما كان المرء فى مثل هذه المواقف يبالغ كثيراً ، انتهت بأن كانت أشبه بأرملة من أفسوس منها بملكة كاريا . واستطال المنظر ؛ ولم يدر الفارس الصابر العازف على البيان ذى المفاتيح إلى أية تنغيمات عليه أن ينتقل؛وحمد السماء حينما رأى الإجانة واقفة على الهرم . ولما أرادت الملكة أن تعبر عن شكرانها ، إنتقل — دون وعى — إلى نغمة فرحة ، إن أفقدت التمثيل طابعه ، فإنها أشاعت الطرب فى الجماعة . وامتد السرور إلى لوسيانه لتهنئتها بحرارة على براعة محاكاتها ، وإلى المهندس على رسمه الجميل الرشيق .

وتوجه إليه بالحديث خصوصاً خطيب لوسيانه .

قال له : « يؤسفنى ألا يبقى هذا العمل طويلا . ألا فلتسمح لى على الأقل أن آمر بحمله إلى غرفتى ، وأنا أحادثك فى شأنه » .

فأجاب المهندس : « إن كان هذا يسرك ، فسأطلعك على رسوم متقنة لأمثال هذه التماثيل ، التى ليس هذا إلا مجملا سريعاً عارضاً لأحدها » .

ولم تكن أوتيلى غير بعيدة ، فتقدمت وقالت للمهندس :

— لا تنس أن تطلع السيد البارون على محافظ أوراقك ، وبهذه المناسبة أقول إنه مُحِب للفنون ولما هو قديم . وإنى لآمل أن تزيد معرفة كل منكما بالآخر .

وحضرت لوسيانه وسألت عما يتحدثون بشأنه . فقال البارون : عن مجموعة آثار يملكها السيد ، وسيتفضل بإطلاعنا عليها يوماً ما .

— فليطلعنا عليها فوراً ؟ — هكذا صاحت لوسيانه — أليس صحيحاً يا سيدى أنك ستحضرها إلينا فى الحال ؟ هكذا أضافت بصوت مُلاطِف ، وهى تمسك بيديه علامة صداقة .

فأجاب : يبدو لى أن هذا ليس وقته مطلقاً .

— لماذا ؟ — قالت لوسيانه بلهجة آمرة — أترفض أن تمتثل لأوامر ملكتك ؟ » .

— لا تكن عنيداً ! هكذا قالت له أوتيلى بصوت خافت .

فمضى المهندس ، بعد أن أحنى رأسه ، انحناءة لم تكن رفضا ولاقبولا.

ولم يكد يخرج حتى شرعت لوسيانه فى العدو فى البهو مع كلب سلوقىّ.

— آه ! كم أنا تَعِسة ! هكذا قالت حينما اصطدمت بأمها مصادفة . لم أُحضِر معى نَسْناسى ، فقد صرفونى عن هذا ؛ ولكنه كسل خَوَلنا هو الذى حرمنى من هذه اللذة . وعلى كل حال فإننى سآمر باستحضاره ، وسيذهب واحد لتفقده . آه لو كنت أستطيع أن أُرِيه مجرد صورته ، إذاً لكنت راضية . ولن أنسى أن آمر برسمه ، ولن يفارقنى أبداً .

— لعل لدىّ ما يغريك ، هكذا قالت شرلوت ؛ فسآمر بإحضار مجلد من المكتبة ملىء بأغرب أشكال النسانيس .

فصاحت لوسيانه صيحة السرور ، وأُحضر المجلد الكبير . ولذ لوسيانه كثيراً منظرُ هذه الحيوانات المخيفة الشبيهة بالإنسان ، والتى زاد الفنان فى طابعها الإنسانى . ووجدت لذة غريبة فى أن تتفقد فى كل من هذه الحيوانات مشابهات لأشخاص معروفين .

— ألا يشبه هذا خالى ؟ — هكذا صاحت بغير شفقة — ؛ وذاك أو لا يشبه م . ن تاجر الأزياء الجديدة ؟ وذلك الآخر ، وجه القسيس

س . . . ؟ وهذا ألا يحاكى . . . فلاناً . . . تماماً ؟ الواقع أن القردة هم غير المعقولين[١] الحقيقيين ، ولا أفهم إمكان استبعادهم من المجتمعات الراقية.

وهى قد قالت هذا وسط مجتمع راق ، ولم ير أحد فى هذا ضيرا . فقد تملكتهم عادة السماح لهواها بكثير من الأمور ، حتى إنهم كانوا يحتملون كل ما يصدر عنها من مخالف للآداب .

وخلال ذلك الوقت كانت أوتيلى تتحدث إلى الخطيب . وكانت تأمل أن يعود المهندس عما قليل ، وأن تخلّص مجموعاته ، وهى جادة مليئة بالذوق الجماعةَ من كل هذه القردة . وفى تلك الأثناء كانت تحادث البارون ، متنقلة بين موضوعات شتى . لكن المهندس تأخر كثيراً ، وأخيراً حينما ظهر ضاع وسط الجماعة ، دون أن يُحْضِر شيئاً ، ودون أن يبدو عليه أنه طُلب إليه شيء . فبقيت أوتيلى لحظة . . . أأقول ساخطة مُحْنقة لا تحير جوابا ؟ إنها قد توجهت إليه بسؤالها بطريقة ودية ؛ وسرها أن تهيئ للخطيب ساعة طيبة ، وقد كان يبدو عليه أنه غير راض عن مسلك لوسيانه ، على الرغم من فرط حبه لها إلى غير حد .

وأخلت القردة مكانها لأكلة خفيفة . واستمرت ألعاب الجماعة والرقص نفسه وحديث خلا من كل لذة ، والسعى الباطل وراء لذة ذاهبة ، كل هذا استمر هذه المرة ، كما هى العادة ، إلى ما بعد منتصف الليل : لأن لوسيانه

---

(١) « غير المعقولين » Incroyables هم طائفة من الشباب — إبان حكومة الإدارة فى فرنسا ١٧٩٥ — ١٧٩٩ — الذين كانوا يظهرون كثيراً من التصنع فى ثيابهم وحركاتهم وعاداتهم ولغتهم ، بحيث كانوا يحذفون منها حرف الراء . وقد جاءهم هذا اللقب من اللازمة التى كانت لهم ، وهى تكرار هذه العبارة : « هذا غير معقول ، بشرفى » C'est incroyable, ma paole, d'honneu ، يرددونها بكل مناسبة وغير مناسبة .

كانت قد اعتادت ألا تستطيع القيام ولا النيام .

ونحن لا نجد فى هذه الفترة إلا قليلا من الأحداث المسجّلة فى يوميات أوتيلى ؛ وفى مقابل هذا نرى كثيراً من الأمثال والحكم المتصلة بالحياة أو المنتزعة منها . لكن لما كان الجزء الأكبر منها لا يلوح أنه من ثمار أفكارها الخاصة ، فمن المحتمل أن يكون أحدٌ قد أعارها مخطوطاً اقتبست منه ما يلائمها . ومن السهل على المرء أن يتبين ، بواسطة الخيط الأحمر ، بعض الأفكار الخاصة ، المنتزعة من ينبوعها الباطن .

من يوميات أوتيلى

يلذ لنا أن نمتد بأبصارنا إلى المستقبل ، لأننا نريد أن ندير على هوانا — بالأمانى الخفية — مختلف الأحوال التى تسبح فى صدورنا .

من الصعب على المرء أن يجد نفسه فى جماعة حافلة دون أن يصور لنفسه أن الصدفة التى تجمع كل هؤلاء لا بد أيضاً أن تعيد إلينا أصدقاءنا .

عبثاً يحاول المرء أن يعيش فى خلوة ، فسرعان ما يصبح ، قبل أن يعرف ، مديناً أو دائناً .

لو قابلنا إنساناً يدين لنا بالشكران ، تخطر ببالنا فى الحال هذه الفكرة . لكن كم مرة يمكننا فيها أن نلتقى بهؤلاء الذين ندين لهم نحن به ، دون أن يخطر هذا ببالنا !

الإفضاء بمكنون النفس إلى الآخرين ميل طبيعى فينا ؛ وتلقى ما يفضى به إلينا على النحو الذى يقدم إلينا ، هو نوع من التهذيب .

لو عرف المرء مقدار إساءته فهم الآخرين لما أطال الحديث إليهم .

إذا كان الإنسان يبدّل كثيراً فى أقوال الآخرين حين يرددها ، فما ذلك إلا لأنه لم يفهمها .

من يستأثر فى المجلس طويلا بالحديث دون أن يتملق السامعين يُثِرْ النفور .

كل قول يُتَفوَّه به يثير الفكرة المعارِضة .

المعارضة والملق يجعل كلاهما الحديث ممجوجاً .

خير الجماعات جماعة يسود بين أعضائها التقدير الهادئ .

لا شىء فى الدنيا يُحْسن تصويرَ الناس بطبائع نفوسهم خيراً من الأشياء التى يسخرون منها .

الضْحِك ينشأ عن تباين معنوى ، مُزج على نحو لا تجرح معه الحواس .

الشهوانى يضحك غالباً حينما لا يكون ثمت للضحك مجال : فأى موضوع استثاره ، يكشف عن طيب مزاجه .

الرجل المرِح يكاد يجد فى كل شىء ما يُضحِك ، أما العاقل فيكاد أن لا يجد شيئاً .

أنكروا على رجل مُسِن مغازلته الفتيات ، فأجاب: «هذه هى الوسيلة

الوحيدة لتجديد الشباب ، وذلك أمل الكُل » .

يعرّض المرء نفسه للملام على نقائصه ، ويعرضها للعقاب ويتحمل بسببها كثيراً من الأشياء فى صبر ؛ لكنه يقلق إذا وجب عليه التخلص منها .

بعض النقائص ضرورى لوجود الفرد . وكم يسوؤنا أن نرى أصدقاءنا القدماء يتخلصون من بعض الغرائب .

يقال عمن يفعل على خلاف طبعه وعاداته : « عما قليل سيموت » .

أية نقائص يجب علينا الاحتفاظ بها ، بل وتربيتها فينا وإنماؤها ؟ تلك التى تتملق الآخرين أولى من أن تجرحهم .

ليست الوجدانات إلا فضائل أو رذائل غُولى فيها .

إن وجداناتنا طيور من الفونقس[1] حقيقية : إذا احترق القديم منها سرعان ما يولد الجديد من رماده .

الوجدانات الكبرى أمراض ميئوس منها : من يقدر على علاجها لا يفعل إلا أن يجعلها بالغة الخطورة .

الوجدان يهتاج ويهدأ بالاعتراف . ولعل الاعتدال لا يُطلب فى شىء قدر ما يطلب فى الثقة والتحفظ فى صلاتنا بمن نحبهم .

---

(١) الفونقس أوالفنقس أوعنقاء مُغرِب هو طائر خرافى يعيش دهراً طويلا فى صحراء العرب على ماورد فى الأساطير ؛ ويحرق نفسه فى شعلة نار ، ثم يُبعث من الرماد من جديد .

الفصل الخامس

على هذا النحو كانت لوسيانة تملك على أصدقائها أنفاسهم دائماً ، فكانوا يحيون فى دوامة من اللذات . وازدادت حاشيتها يوماً بعد يوم ، إما لأن حميتها كانت تستثير البعض وتغريه ، أو لأنها كانت تعرف كيف تجتذب البعض الآخر بما فيها من لطف وأريحية نفس . لقد كانت ظُهَرة بؤوحاً بما فى صدرها إلى أعلى درجة . ولما كان حنان عمتها وخطيبها قد أفرغ عليها آلاف الأشياء الجميلة الثمينة دفعة واحدة ، فقد لاحت كأنها لا تملك لنفسها شيئاً ، ولا تعرف قيمة الثروات التى تكدست من حولها . فلم تتردد لحظة واحدة فى أن تتنازل عن شال ثمين ، لتضعه على كتفى سيدة بدت فى نظرها متواضعة الملبس جداً إذا ما قورنت بالأُخْريات . وكانت تقوم بهذه الأشياء ببراعة ومرح جعلا أحداً لا يستطيع أن يرفض هداياها. وكان أحد أتباعها يحمل دائماً كيساً ، ومهمته أن يستعلم ، فى الأماكن التى يغدون إليها ، عن الأشخاص المسِنِّين والعَجَزة ، لتخفيف آلامهم ، مؤقتاً على الأقل . وعن هذا الطريق نالت فى المِنْطقة كلها شهرة بالإحسان كانت أحياناً مصدر مضايقة لها ، لأنها اجتذبت إليها جمعاً ثقيلاً من المعْوزين والمحتاجين .

لكن لم يساهم شىء فى زيادة شهرتها أكثر من سلوكها المُفْرِط نحو شاب بائس كان يتجنب المجتمع ، لأنه مع جماله وحسن تكوينه قد فقد يده اليمنى فى معركة توجته بالمجد والشرف . فأثار هذا التشويه فى نفسه يأساً بلغ حداً جعله يتألم من كون كل شخص جديد يعرفه يتساءل دائماً عن سر شقائه ، فكان يفضل الاستتار عن عيون الناس ، مُسلِماً نفسه إلى

القراءة والدرس ، قاطعاً بهذا كلَّ صلة تربط بينه وبين المجتمع .

بيد أن هذا الشاب لم يبق مجهولا لدى لوسيانه . وكان لا بد له أن يظهر أولا فى دائرة صغيرة ، ثم فى أكبر منها ، وأخيراً فى أكبر المجتمعات . وهى قد استخدمت معه من التلطف ما لم تستخدم مثله مع أحد من قبل ، فاستطاعت بفضل اجتبائها إياه أن يجد نوعاً من العذوبة والراحة فى عاهته . لقد كانت على المائدة تجلسه إلى جوارها ، وتقطع له المآكل حتى إنه لم يكن فى حاجة إلى استخدام أداة غير الشوكة وإن فصل بينها وبينه فى الجلوس أناس أكبر سنا أو أعلى مرتبة كانت تبسط أيضاً عنايتها إليه على طول المائدة ، وكان على احتفاء الخدم أن يعوّض عما لا تستطيع فعله لبُعدها . وانتهت بأن شجعته على الكتابة بيده اليسرى ، وكان عليه أن يوجه كل هذه المحاولات إليها : وهكذا كانت — عن قريب أو عن بعيد — على اتصال دائم به . فاستحال الشاب خَلقاً آخر ؛ ومن ذلك الحين دخل فعلا فى حياة جديدة .

وقد يتبادر إلى الظن أن هذا النحو من السلوك لابد أن يُسخِط الخطّيب ، لكن ما حدث كان على العكس . فقد وجد لوسيانه خليقة بكل إطراء على القيام بكل هذه الجهود . وزاد من طمأنينته بمقدار ما كان يعرف من مزاجها وميلها إلى إبعاد كل ما قد يبدو له مصدراً لأقل خطر — ميلاً لا يخلو من المبالغة . لقد كانت تحب أن تكون فى ألفة ومودّة مع الجميع ، حسبما تهواه ؛ وكان الكل معرضاً لأن يهاجم أو يضرب أو أن يشاكَس على أى نحو من جانب لوسيانه ، لكن لم يكن لأحد أن يسمح لنفسه بأن يرد عليها بالمثل ؛ بل لم يكن أحد يجرؤ على أن يلمسها ، ولا أن يستبيح لنفسه معها أقل ما تستبيحه هى لنفسها معه . وهكذا وضعت

الجميع فى أضيق حدود التواضع ، تلك الحدود التى لاح أنها هى التى كانت دائماً تخرج عنها .

وعلى العموم ، قد كان يخيّل إلى المرء أنها جعلت لنفسها كقاعدة أن تتعرض هى الأخرى للوم والمديح ، والرضا عنها والغضب . لأنها إذا كانت تشاقّ الناس بذكرها لمعايبهم ، دون أن تعفى من هذا أحدا . فإنها لم تكن تزور أحداً فى الجيرة ، ولم تكن تلقى فى أى مكان حفاوة بها وبحاشيتها فى القصور ومنازل الريف ، إلا وتكشف عند عودتها من مقدار استعدادها — بأقوالها الخالية من كل اتزان — لرؤية جميع الصلات بين الناس من جانبها المُضحك . فهؤلاء ثلاثة أخوة جاوزوا سن الزواج لا لشىء إلا لأن كلاًّ منهم رفض — من باب الأدب ليس إلا — أن يتزوج قبل أخيه ؛ وتلك فتاة صغيرة قد اقترنت بزوج عجوز يَفَن ؛ وفى مكان آخر حدث العكس: فقد اقترن شاب مَرِح بهِر كَوْلة ثقيلة ؛ وفى بيت ما لا يخطو المرء خطوة حتى يعثر بطفل ؛ وفى آخر لا نكاد نجد دَيّاراً ، على الرغم من وجود عدد وافر من الناس ، لأن الأطفال يُعوزونه ؛ وهؤلاء الأزواج ليس لهم إلا أن يُدفَنوا بسرعة ، كيما يُرى إنسان فى البيت يضحك ، إذ ليس لهم ورثة مباشرون ؛ وهذان الزوجان الآخران يحسن بهما السفر والتجوال ، لأن البيت لا يسير جيدا . ولم يقتصر حديثها على الأشخاص ، بل امتد أيضاً إلى الأشياء والأبنية والأثاث والأوانى ؛ وكانت البُسط والسجاجيد خصوصاً هى التى تثير تأملاتها الساخرة ، ابتداءً من أنعم السجاد القديم حتى أحدث الورق ، ومن أجلّ صور الأُسْرة حتى أتفه النقوش الجديدة ، كل هذا كانت تمزقه ، بل تحطمه بسخريتها القاتلة ، إلى حد أن

المرء ليدهش متسائلا : هل بقى بعد من سخريتها شيء فى كل المنطقة المحيطة على بعد خمسة أميال ؟ !

ومن العدل أن يقال إنه ربما لم يكن فى هذا الميل إلى التحقير أدنى خسة وشر ، فإن الحاجة إلى الضحك يمكن كثيراً أن تستثيره ؛ إلا أن لوسيانه قد كشفت فى علاقاتها مع أوتيلى عن شراسة حقا . فنشاط هذه الفتاة الهادئ المتصل الذى كان موضعاً للثناء والتنويه من الجميع لم يثر فى نفس بنت خالتها إلا الاحتقار ؛ ولما تحدث القوم عن العناية التى توجهها أوتيلى إلى البساتين والمشاتل بدأت لوسيانه بالسخرية منها وتظاهرت بالدهشة من عدم رؤيتها أزهاراً ولا ثمارا (ناسية أن الوقت كان منتصف الشتاء) ؛ ثم أمرت بإحضار مقدار وافر من الخضرة والأغصان التى تنمو فيها أصغر البراعم ، وأسرفت فى استهلاكها لتزيين الأبهاء والمائدة كل يوم ، إلى درجة أن البستانى وأوتيلى قد حزنا أبلغ الحزن لرؤية آمالها فى السنة الماضية وربما لوقت طويل قد تبددت .

وقليلا ما تركت لوسيانة أوتيلى تتفرغ للأعمال المنزلية التى كانت تلذها إلى حد بعيد ، بل كانت مضطرة إلى حضور أدوار الملذات ، وسباق المركبات الزاحفة ، وشهود الرقص الذى كان يقام فى الجيرة : فهى تستطيع أن تتحمل الثلج والبرد والليالى العاصفة ، ما دام الكثيرون من الناس لم يموتوا منها . غير أن الفتاة الرقيقة (أوتيلى) أصابتها من جراء هذا آلام قاسية ، دون أن تكسب لوسيانه من وراء هذا شيئا : فالواقع أنه على الرغم من أن أوتيلى كانت تلبس ثياباً بالغة البساطة ، فإنها كانت أجمل الجميع ، على الأقل فى نظر الرجال . فجاذبيتها العذبة قد جمعت الكل من حولها ، سواء أوجدت فى هذه الأبهاء الفسيحة فى المكان الأول أم الأخير منها .

بل إن الخطيب نفسه كان كثيراً ما يتحدث إليها كلما سألها النصيحة والمعونة فى مسألة تشغله .

وهو قد عقد مع المهندس معرفه وثقى فقد لخص مجموعته من الأشياء النادرة، وتحدث إليه طويلا فى تاريخ الفن ؛ وفى مناسبات أخرى ، وعلى الأخص عند زيارة الكابلة ، عرف كيف يقدر مواهبه والبازون كان شابا وكان غنيا ، وكان يهوى جمع التحف ويريد البناء ، وكان ذوقه مرهفا ومعارفه قليلة الغور ؛ فخيل إليه أنه وجد فى المهندس الرجلَ الذى يستطيع معه أن يحقق أكثر من غرض . وهو قد تحدث من قبل مع خطيبياه عن هذا المشروع ، فأيدته بحرارة ، وأعجبت أيما إعجاب بهذا الاقتراح ، ولكن لعل هذا كان بالأحرى بدافع رغبتها فى أن تسلب أوتيلى هذا الشابَ الذى خيل إليها أنها لاحظت لديه ميلاً إلى ابنة خالتها ، أولى من أن يكون من أجل الانتفاع بمواهب هذا الفنان فى تحقيق مقاصدها . والواقع أنه على الرغم من أنه ظهر مليئاً بالنشاط فى الأعياد التى اقترحتها لوسيانه، وأنه أبدى كثيراً من الجهود والذكاء فى تلك أو تلك من الاستعدادات ، كانت تعتقد هى فى داخل نفسها أنها تعرف الأشياء خيراً منه ؛ ولما كانت اختراعاتها عادية ، فإن مهارة خادم غرفة ذكى كانت كافية لتنفيذها بمقدار ما تكفى مهارة أكبر فنان . فخيالها لم يكن يستطيع أن يذهب إلى أبعد من مذبح تقوم عليه القرابين ، ومن تتويج يتم إما على رأس من الجبس أو رأس حية ، حينما تريد أن تتوجه بتحية عيد إلى أحد الناس ، إما بمناسبة عيد زواجه أو عيد ميلاده .

واستطاعت أوتيلى أن تدلى إلى الخطيب بأدق المعلومات عن الصلات القائمة بين المهندس ومضيفيه . وهى كانت تعلم أن شرلوت قد عنيت من قبل أن تهيئ له مركزا : لأنه لو لم تأت هذه الجماعة ، لكان الشاب قد

ارتحل فى الحال بعد إتمام الكابلة ، لأن كل الأبنية كان مقدراً لها أن تتوقف إبان الشتاء . فكان من المرموق إليه إذاً أن يستخدَم هذا الفنان الصَّناع ويشجع بواسطة حامٍ جديد

ولقد كانت العلاقات بين أوتيلى وبين المهندس على أتم ما يكون من البراءة . فجلس هذا الشاب المُجِدّ اللطيف قد شاق أوتيلى وسرّها ، كما لو كانت فى صحبة أخٍ أكبر . وعواطفها نحوه لم تذهب إلى أبعد من العطف الهادئ الساكن القليل الغَوْر الذى توحى به القرابة . فقلبها لم يكن فيه مكان لأحد بعدُ، لأنه كان عامراً كله بحب إدورد ، والله وحده ، العالم بكل شىء النافذ فى كل مكان ، هو الذى كان يمكن أن يشاركه فيه .

ومع هذا فإنه كلما تقدم الشتاء وازدادت العواصف وتعطلت الطرقات ، تبدى من الفتنة قضاءُ هذا الفصل المدلهم فى مثل هذه الصُّحبة البديعة . ثم إنه حدث بعد فترات قصيرة أن الزيارات قد غمرت القصر من حين إلى حين . فجاء الضباط أفواجاً من الحاميات البعيدة ؛ ومن كان منهم مهذب الطباع كان يلقى خير استقبال ؛ أما الآخرون فكانوا عبئاً على الجماعة . ولم يخل الزائرين أيضاً من أشخاص مدنيين . وأخيراً رؤى الكونت والبارونة ذات يوم قادمَين عليهم على حين غِرّة .

ولاح أن حضورهما قد أوجد نوعاً من البلاط الحقيقى . فالناس الممتازون بمكانتهم وأدبهم أحاطوا بالكونت ؛ والسيدات قد عاملن البارونة بما يليق بمقامها . ولم يطل الوقت على الدهشة من رؤيتهم معاً وسعيدين : فقد عرف القومُ أن زوج الكونت قد تُوفِّيت ، وأنه سيعقد أواصر جديدة ، طالما تسمح التقاليد والعرف بذلك . وتذكرت أوتيلى زيارتهما الأولى وكلَّ كلمة قيلت عن الزواج والطلاق ، والارتباط والانفصال ، والرجاء والانتظار

والزهد والحرمان . وهاهما هذان الشخصان اللذان لم يكن باب الرجاء أمامهما مفتوحاً قد صار الآن أمامها يلمسان السعادة المأمولة ، فلم تمالك أن زفرت من قلبها زفرة حارة .

ولم تكد لوسيانه تعلم أن الكونت يعشق الموسيقى حتى نظمت حفلة موسيقية واقترحت أن تغنى فيها بمصاحبة قيثارة ، فأجيبت إلى طلبها . وهى كانت تعزف عليها بطريقة لا بأس بها ، وكان صوتها مقبولا : أما عن الكلمات فإنها لم تكن تُفهم إلا بدرجة قليلة ، هى تلك المعتادة حينما تغنى ألمانيةٌ جميلةٌ بمسايرة قيثارة . ومع هذا فقد كان الجميع يؤكدون أنها غنّت بكثير من التعبير والتأثير . وكان فى وسعها أن تكون راضية عن التصفيقات الصاخبة التى ظفرت بها ؛ لكنها أساءت التقدير هذه المرة إلى درجة غريبة . فقد كان فى الجماعة شاعر أمّلت أن تأسره هو خصوصاً ، لأنها كانت تود منه أن يوجه إليها بعض قصائد من شعره . ورغبةً فى تحقيق هذا الأمل لم تغنِّ طوال تلك الليلة تقريبا إلا من أغانيه . وكان كغيره من الحاضرين مهذباً رقيقاً معها ، لكنها أمّلت فى أكثر من هذا ، ونبهته مراراً إلى غايتها هذه ، دون أن تستطيع الظفر منه بأكثر مما فعل . وأخيراً وقد غلبها القلق وجهت إليه واحداً من مُحبّيها كيما يعرف رأيه ، وعما إذا لم يكن قد أُخذ بسماع أغانيه الجيدة تُغنّى على هذا النحو الممتاز . « أغانىّ ؟ هكذا قال مدهوشا . اسمح لى ، سيدى ، أن أقول إننى لم أسمع إلا حروفاً صائتة ، بل وهذه أيضاً لم أسمعها كلها . لكن لا ضير . فمن واجبى أن أشهد بشكرانى على مثل هذه النية الطيبة » . فالتزم صاحبها الصمت ، واحتفظ بما سمع لنفسه ؛ وحاول الشاعر أن يخرج من المأزق ببعض من التحيات الجوفاء . غير أن لوسيانه أوضحت له رغبتها فى أن تظفر

منه أيضا ببعض الأشعار المنظومة من أجلها . ولولا ما سيكون فى الأمر من إخلال بالشرف ، لكانت قد قَدّمت إليه حروف الهجاء ليؤلف منها كما يهوى أنشودة مديح فيها على أية نغمةٍ كانت . لكن لم يقدَّر لها أن تخرج من هذه المغامرة دون أن تعانى بعض المهانة : فقد عرفت بعد قليل أن الشاعر قد نظم على لحن محبوب من أوتيلى أشعاراً عذبة جاوزت حد المجاملة .

وحاولت لوسيانه الإلقاء ، شأنها شأن لداتها من الأشخاص الذين يخلطون دائماً بين ما هو نافع لهم وما هو ضارّ . والحق أن ذاكرتها كانت قوية ، لكن إلقاءها كان خاليا من الفهم ، وفيه اندفاع من غير حماسة ولا وجدان . فألقت أغانى وأقاصيص وقطعاً أخرى صالحة للإلقاء . وهى من ناحية أخرى كانت قد اتخذت هذه العادة البائسة ، عادة مصاحبة الإلقاء بحركات وإشارات ، وعن هذا الطريق كان النوع الملْحمى والغنائى مخلوطاً بينه وبين النوع المسرحى بطريقة فاسدة بدلاً من أن يوصل ما بينه وبينهما .

واستطاع الكونت بعد قليلٍ بما له من ذكاء نافذ أن يتبين حال الجماعة : ميولها وعواطفها وأذواقها ؛ وفكر فى أن يشير على لوسيانه بنوع جديد من التمثيل يصلح لها فيما يبدو ، وهى فكرة لسنا ندرى أأخطأ فيها أم أصاب .

قال : « أرى هنا أشخاصاً عديدين حَسَنِى التكوين ، ومنهم كثيرون يعرفون من غير شك كيف يقلدون الحركات والمواقف المؤثرة المصوَّرة . ألم تحاولى يوماً أن تمثلى اللوحات المشهورة ؟ إن هذه المحاكاة تقتضى فعلاً بعضاً من الإعدادات الشاقّة ، لكن لها سحراً لا يوصف » .

وسرعان ما فطنت لوسيانه إلى أنها فى هذا النوع ستجد نفسها فى

مكانها الطبيعى . فإن لها فى قوامها الفارع و قَسماتها الجميلة ومحياها المنتظم المعبِّر معاً وغدائرها السمراء ، وجيدها الأنيق — إن لها من هذا كله ما يجعلها قد خلقت لتكون نموذجا ولو عرفت إلى جانب هذا أنها أجمل فى السكون منها فى الحركة ، لأنها فى هـذه الحالة الأخيرة كانت تصدر عنها حركات يعوزها الضبط والرشاقة ، لـكانت قد انصرفت بكل نفسها إلى هذا النوع من النحت الطبيعى .

فتفقد القوم رسوم لوحات مشهورة . فاختاروا أولا لوحة بليساريوس لفان ديك . فـكان لا بد من رجل فارع كامل التكوين متقدم فى السن لتمثيل ذلك القائد الأعلى وهو جالس ؛ وكان على المهندس أن يمثِّل المحارِب الواقف أمامه مع تعبير يدل على الحزن والعطف ، والواقع أن المهندس كان يشبهه بعض الشىء . ولوسيانه من ناحيتها قد اختارت — فى شىء من التواضع — المرأةَ الشابة الماثلة فى أعماق اللوحة وهى تعدُّ فى راحتها المنبسطة الصدقة الوفيرة التى تخرجها من صندوق نقودها ، بينما تلوح امرأة عجوز كأنها تصرفها عن فعلتها هـذه بحجة أنها ضافية المعروف جزيلة العطاء . ولم ينسوا أيضا تمثيل امرأة أخرى تتصدق على هذا الشيخ العجوز (بليساريوس) .

واستفرغ القومُ وسْعهم بكل جدٍ فى هـذه اللوحة وغيرها أيضا . وأسدى الـكونت بعض النصـائح الخاصة بالترتيبات اللازمة إلى المهندس الذى سرعان ما أقام مسرحاً لهـذا الغرض وبذل العناية اللازمة للاضاءة . وكان العمل قائماً على قدم وساق حينما تبيّن لهم أن مثل هذا العمل يقتضى نفقات باهظة وأنه يعوزهم من أجله الـكثيرُ من الأشياء الضرورية التى لا توجد فى الريف فى الشتاء . غير أن لوسيانه عملت على تذليل كل صعوبة

بأن قطّعت كل ما فى خزانة ملابسها تقريباً قطعاً قطعاً ، من أجل إيجاد الملابس المختلفة التى رسمها الفنانون على ما يتفق وأهواءهم .

وأخيراً عُرض المنظر ذات مساء أمام جمع حافل أرضاه . وشحذ من الانتظار تقديمٌ موسيقى حاد . وافتتح بليساريوس المنظر . وكانت المواقف من الدقة ، والألوان من حسن التوزيع ، والإضاءة من براعة التوجيه إلى حد جعل الحاضرين يخيَّل إليهم أنهم أُسرِى بهم إلى عالم آخر . اللهم إلا أن حضور الواقع بدلا من الظاهر قد أحدث أثراً أليماً لا يدرى المرءُ كنهه .

وأسدلت الستارة ؛ لكنها رفِعت أكثر من مرة وفقاً لطلب الحاضرين. وتخلل التمثيل فاصل موسيقى سَر الجماعة التى أُرِيد مفاجأتها بلوحة من طراز أعلى هى لوحة پوسان المشهورة : إسْتَر أمام أحشويرش . وفى هذه المرة كان دور لوسيانه بارزا . فكشفت عن كل فتنتها فى شخص المُغْمى عليها ؛ وأحسنت فى اختيار النسوة اللائى سيُحطْن بها ويُمسكن ، فاختارتهن فتيات رائعات الجمال فاتنات التكوين ، لكن لم تكن منهن واحدة يمكن أن تقارن على أى وجه بها . واستُبعدت أوتيلى من هذه اللوحة كما استبْعِدت من غيرها . ولتمثيل الملك ، وهو يشبه چوپتر ، وضعت لوسيانه على العرش الذهبى أقوى الحاضرين وأجملهم إلى حد أن هذه اللوحة قد بلغت من الكمال مرتبة لا تُدانى

واختيرت لوحة التأنيب الأبوى لترُبْرُج كلوحة ثالثة : ومن منا لا يعرف الرسم الممتاز الذى عمله رسامنا قِبله لهذه اللوحة ؟ والد ، فارس نبيل جالس ساقاً على ساق ، ويلوح أنه يوجه كلمات قاسيةً إلى ابنته الواقفة أمامه ؛ وهى فتاة ذات قوام بديع ، قد تدثرت بفُستان من السَّتان الأبيض الواسع

الثنايا ، ولا تُرى إلا من الخلف ، ومع هذا فإن وِضْعتها تؤذن بأنها تغالب نفسها . لكن التأنيب ليس حاداً ولا مُهينا : كما يبدو من وجه الوالد وحركاته . أما الامّ فيلوح أنها تخفي شيئاً من الحيرة والاضطراب ، لأنها تتأمل في زجاجة خمر كانت بسبيل تجرعها .

وفي هذه الفرصة كان لابد للوسيانه أن تظهر في كل بهائها : فغدائرها المصفوفة ، وشكل رأسها وجيدها وأكتافها كانت كلها ذات جمال لا يبلغ مداه التعبير ، وقوامها الذي كانت ثيابها العصرية ذات الاتجاه القديم تخفي منه الكثير ، هذا القوام الرشيق الفارع الخفيف كان يرتسم في الثياب ذات الطراز العتيق على خير نحو ؛ وعنى المهندس من ناحيته بترتيب ثنايا السّتان الأبيض الواسعة بأناقة طبيعية ، إلى حد أن هذه المحاكاة الحية كانت من غير شك أسمى من الأصل مما أحدث سحراً في الجميع على السواء . حتى إن القوم لم يفتروا عن طلب إعادة اللوحة ؛ وبلغت الرغبة — وهي رغبة كلها طبيعية — في رؤية مثل هذه الشخصية الجميلة حداً جعل أحد المُدَلَّهين يصيح في قلقه : « أدري ، إن سمحت ! » وهي عبارة كثيراً ما تكتب في أسفل الصفحة . ولقيت هذه الصيحة موافقة من الجميع . لكن الممثلين كانوا من العلم بعظمة ما فعلوه ، ومن صدق النفوذ إلى معنى هذه اللوحة إلى حد الرضوخ لهذه الصيحة العامة . وبقيت الفتاة — في موقف اضطراب — ساكنة ، دون أن تُرِيَ النّظارة تعبير وجهها ؛ وظل الوالد جالساً ، في موقف من يقوم بالتأنيب ، ولم ترفع الأم بصرها ولا أنفها إلى ما فوق الزجاجة الشفافة التي تظاهرت بالشرب منها دون أن ينقص ما فيها من خمر .

وكم يطول بنا الكلام كثيراً لو تحدثنا أيضاً عن التمثيليات الصغيرة التي اختيرت لها مناظر نُزُلٍ وأسواق هولندية !

وارتحل الكونت والبارونة ، واعِدَين بالعودة فى الأسابيع الأولى من زواجها القريب . وأمَلَت شرلوت ، بعد شهرين من التعب ، فى أن تتخلص من بقية الجماعة . وقد كانت على ثقة بأن ابنتها ستكون سعيدة ، حينما تهدأ النشوة التى أثارها فى نفسها كونُها خطّيبى وفتاة ، لأن الزوج يعتقد فى نفسه أنه أسعد الناس بهذا الزواج . فإلى جانب اليسار الوفير والطبع المعتدل ، بدا أنه يُزْهى كثيراً بامتلاكه زوجا لا بد أن تنال رضا الجميع . ولقد كان من خواص طبعه أنه كان يعزو كل شيء إليها ، وإلى نفسه عن طريقها هى وحدها ، حتى إنه كان يألم إذا قَدِم قادم ولم يوجه كل انتباهه إليها أولا ، أو إذا جذبته مناقب البارون — كما يحدث غالباً مع الرجال المتقدمين فى السن — فسعى لتوطيد الصلة بينه وبين البارون دون أن يحفل كثيراً بخطّيبيباه . وتم الاتفاق مع المهندس على أن يلحق بالبارون فى السنة الجديدة ويقضى معه الكرنفال فى المدينة ، حيث لوسيانه تأمل فى المتعة الكبرى باللوحات المتقنة الترتيب ، وبكثير من الأشياء الأخرى ؛ خصوصاً أن عمتها وخطيبها لاح أنهما لا يحفلان بأية نفقات تقتضيها لذاتُها .

وكان لا بد إذاً من الافتراق ، غير أن هذا لا يتيسر إتمامه بالطريقة العاديه . وتعالت صرخات السخرية الموجهة ضد شرلوت ، لأن الزاد الذى ادخرته للشتاء كان — فيما قيل — قد أوشك على النفاد . هنالك صاح السيّد الذى مَثّل بليساريوس وكان واسع الثراء ، صاح فى شيء من الرعونة وقد جذبته مفاتن لوسيانه فكان يحتفل لها منذ وقت طويل — : « هيه ، لنعمل على الطريقة البولندية ! تعالَوْا فكلوُنى بدورى ، وهكذا إلى تمام الحلْقة ! »

— ليكن كما تقول ! » بهذا أجابته لوسيانه .

وفى الغد حُـزِ مَت الأمتعة وانقض الرَّكْب على ضيعة أخرى ، وجدوا فيها المكان فسيحاً ، لكن اللذائذ والنظام لم يكونا على مايرام ، مما أحدث بعض المضايقات التى سَرّت لوسيانه فى البدء كثيراً . وصارت الحياة من يوم إلى يوم أكثر جنوناً وأعلى صَخَباً . ونظمت رحلات قَنْص بجميعى فى الثلج العميق وكل ما يمكن تخيله من صعب عزيز المنال . ولم يجروء السيدات على التهرب منها شأنهن شأن الرجال . وعلى هذا النحو ظلوا بين قَنْص وركوب على الجياد وجرى بالمنزلقات وصَخَب ورحلات ، وتنقل من قصر إلى قصر حتى بلغوا مقرّ الإمارة . هنالك أعطت أنباءُ مسرات القصر والمدينة للنفوس اتجاهاً مختلفاً ، وجَرّت لوسيانه — رغمها — هى ومن معها إلى دَوّامة جديدة ، سبقتها إليها عمتها .

من يوميـات أوتيلى

الناس يُوأخَـذون فى الدنيا بما يظهرون عليه ، لكن لا بد من الظهور على نحوٍ ما . فاحتمال الثُّقَـلاء أيسر من احتمال التافهين .

يمكن فرض كل شىء على المجتمع اللهم إلا ما له عواقب .

لا نحسن العلم بالناس إن أتوا هم إلينا ؛ بل لا بد أن نذهب نحن إليهم كيما نعلم حقيقتهم .

أرى طبيعياً أن نجد كثيراً مما يلام عليه لدى هؤلاء الذين يأتون لزيارتنا ، وأن نحكم عليهم بقليل من الرحمة حالما يرحلون : لأن لنا الحق ، على نحو ما ، فى أن نقيسهم بمقياسنا . بل إن العادلين الحكماء من الناس يشق عليهم هم أنفسهم أن يمتنعوا ، فى مثل هذه الحالة ، عن التقدير الصارم والنقد القاسى .

أما إذا كان الأمر على العكس فكنا نحن الزائرين لهم ، ورأيناهم فى محيطهم وعاداتهم ومركزهم الضرورى الذى لا مفر لهم منه ، وشاهدنا كيف يعملون فى هذا الوسط أو يتكيفون وإياه ، فإنه يكون من الجنون والخُرْق وسوء النية أن نجد مضحكا ما يجب أن يبدو محترماً من أكثر من وجه .

ما نطلق عليه اسم السلوك وحسن المعاملة يجب أن يجعلنا نظفر بما لا نستطيع الظفر به إلا بالقوة ، أو حتى لا نقوى على الحصول عليه بها .

مجالسة النساء مصدر حسن المعاملة وسراوة الأخلاق .

كيف يمكن قيام الُخلْق والعبقرية الخاصة بالإنسان إلى جانب إجادة فن السلوك مع الناس فى الحياة ؟!

يجب أن يكون الُخلْق قد سما أولاً بفضل فن السلوك . كل الناس يحبون ما يميز بشرط ألا يكون ذلك مُضْجِراً ثقيلا .

لا أحد عنده من الميزان فى الحياة عامة ، وفى العلاقات الاجتماعية أكثر مما للرجل العسكرى المصقول .

أما العسكريون الأجلاف فيظلون على الأقل فى نطاق طبعهم ، وكما أنه توجد نزعة إلى الخير دائماً تقريباً وراء القوة ، فيمكن المرء التفاهم معهم أيضاً ، حينما تقتضى الحال .

لا أحد أكثف ظلا من ثقيل مدنى (غير عسكرى) ، فالمفروض الرقة فيه ، لأنه لا يعمل فى عمل خشن غليظ .

حين نعيش فى وسط أشخاص مرهفى الإحساس بآداب اللياقة ، نتألم لهم إذا حدث ما يخالفها . وهذا هو ما أشعر به نحو شرلوت ومن أجلها ، حينما يهتز إنسان فوق كرسيه أمامها ، لأنهـا تتألم من هذا ألماً يبلغ حد الموت .

لو عرف الإنسان أن النساء يفقدن فى الحال الرغبةَ فى النظر إليه والتحدث معه إذا دخل على مجلس أُنْس وعلى أنفه عوينات ، لما فعل هذا .

المؤانسة التى تقوم مقام الاحترام هى دائماً مدعاة للضحك والسخرية . وما من إنسان سيعيد لبس قبعته حالما ينتهى من تحية الجماعة ، لو أنه عرف كيف أن هذا يبدو مضحكا .

ليس ثمت شاهد خارجى على الأدب لا يتضمن معنى أخلاقياً عميقاً . والتربية الحقة تنحصر فى إظهار الشاهد والمعنى معاً .

المعاملات مرآة يطبع فيها كُلٌّ صورتَه .

للقلب آداب على صلة وثق بالعطف . ومن هذا الينبوع تفيض أيسر آداب المعاملات .

الخضوع الإرادى أجمل حال ، وكيف يتيسر دون عطف ؟

لا نكون أكثر بُعْداً عن الغاية من رغباتنا إلا فى اللحظة التى يخيل إلينا فيها أننا امتلكنا الهدف المرغوب .

لا إنسان أسوأ عبودية من ذلك الذى يعتقد فى نفسه أنه حر دون أن يكونه .

يكفى المرء أن يصرح بأنه حر كيما يشعر فى الحال بأنه خاضع : أما إذا تجاسر المرء على التصريح بأنه خاضع فإنه لا يشعر بأنه حر .

خير وسيلة للنجاة ضد المناقب الكبرى لشخص آخر هى العطف والحنان .

ما أتعس حال رجل ممتاز يتظاهر له الحمق والجهال !

يقال إن المرء لا يكون بطلا فى نظر خادم غرفته . والعلة الوحيدة فى هذا هى أن البطل لا يمكن أن يَقدُرهُ إلا البطل . لكن من المحتمل أن يعرف خادم الغرفة كيف يقدُر مَنْ على شاكلته .

أكبر عَزاء للوضاعة والتفاهة أن العبقرى ليس خالداً .

عظماء الناس ينتسبون إلى عصرهم فى ناحية من نواحى الضعف .

الناس يُصوَّرون عادةً أخطر مما هم بالفعل .

الحمق والعقلاء كلاهما غير ضار : فالخطر أكبر مع أنصاف الحمق وأنصاف العقلاء .

الفنون أسلم طريق للانزواء عن الناس والدنيا ، وهى فى نفس الآن أسلم طريق للاتحاد وإياهم .

نحن فى حاجة إلى الفنان حتى فى أوج السعادة وفى هاوية الشقاء على السواء .

الفن يعنى بما هو صعب وجيد .

من رؤية الصعب يُنَفَّذ بيُسر ، تأتى فكرة المستحيل .

تزداد الصعوبات كلما اقتربنا من الهدف — البَـذْر أقل مشقة من الحصـاد .

الفصل السادس

كانت الزيارة التى تلقتها شرلوت مصدراً لـكثير من المضايقات ، لـكنها تعوّضت منها بما تيسر لها من الحـكم على ابنتها بكل دقة ، من حيث مقدار العون الذى ظفرت به من معرفة الدنيـا والحياة العالية . ولم تـكن هذه أولَ مرة تلتقى فيها بمثل هذا الخُـلق الفريد ، لـكنها لم تره واضحاً كما كان فى هذه المرة . بيد أن التجربة علمتها أن الحياة ومختلف الأحداث والروابط الأُسرية يمكن أن تُنمّى عنـد هؤلاء الأشخاص نضوجاً فاتناً محبوبا : فتقلّ الأثرة ، ويتخذ النشاطُ الصاخبُ اتجاها إيجابيا . وكانت شرلوت على استعدادٍ لأن ترى بعين الرضا ما عسى من الأشياء يحدث أثراً بغيضاً فى الآخرين ، شأنها شأن الأهل الذين يليق بهم دائماً أن يأملوا ، بينما القُـرباء لا يريدون إلا التمتع ، أو على الأقل لا يبغون أن يُثقل عليهم أحدٌ من الناس .

بيد أن شرلوت بعد رحيل ابنتهـا كان لديها ما يسبب ألمها على نحوٍ خاص غير مُتوقَّـع ، نظراً إلى أنها خلّـفت من ورائها آثاراً بغيضة ، لا يعود أكثرها إلى ما كان فى سلوكها مما يستحق الملام بقدر ما يعود إلى أشياء كان يمكن أن تُرىٰ جديرة بالثناء . لقد بدا أن لوسيانه قد اتخذت لنفسها كقانون أن تـكون مرحة مع المرحين ، حزينة مع الحزانى ؛ ولـكى تطلق العنان لروح المناقضة كانت أحياناً تُـحزن المرحين وتُفرح الحزانى .

فكانت فى كل أسرة تزورها تحيط خُبراً بالمرضى والعجزة الذين لا يستطيعون الظهور فى المجتمعات ، فتزورهم فى مخادعهم ، وتطبّ لهم ، وترغمهم على تناول أدوية قوية مأخوذة من صيدلية السَّفَر التى تصاحبها أينما ارتحلت . وكان العلاج — كما هو متوقع — حيناً صائب النتيجة وأخرى فاسدها ، حسبما تقضي الصدفة ويشاء الاتفاق .

وكانت تمارس هذا اللون من الإحسان فى شئ من القسوة الحقيقية ، ولم يفلح شيء فى جعلها تقلع عنه ، لأنها كانت مقتنعة تمام الاقتناع بأنها تسلك السبيل القويم . لكنها كانت سيئة الحظ فى محاولتها علاج مرض معنوى ، وكان هذا مصدراً لكثير من الهموم عند شرلوت ، لأن المسألة قد صارت ذات ذيول ومُضْغَةً فى كل الأفواه . أما هى فلم تعرف عنها شيئاً إلا بعد ارتحال لوسيانه . وكان على أوتيلى التى صحبت لوسيانه فى هذه النزهة أن تطلع شرلوت على تفاصيل هذا الحادث .

ذلك أن فتاة من أسرة محترمة شاء لها سوء طالعها أن تكون السبب فى موت أختها الصغرى ، فأثر فى نفسها هذا الحادثُ إلى حد لم تستطع معه أن تُشفى ولا أن تجد عنه العزاء . فكانت تحيا وحيدة فى مخدعها ، فى شُغُل وهدوء ، غير قادرة على احتمال رؤية أهلها ، إلا إذا جاءوا فُرادى : لأنها إن رأت جمعاً منهم سرعان ما تظن أنهم يفكرون فيما بينهم فى أمرها وحالها . أما إذا كان القادم شخصاً واحداً ، فإنها تملك نفسها وتستطيع التحدث معه طوال عدة ساعات .

عرفت لوسيانه هذه المسألة ، فأملت فى نفسها أن تأتى بمعجزة فى هذا المنزل حينما تغدو إليه ، كيما تردّ الفتاة إلى المجتمع . وسلكت فى هذه المناسبة مسلكا أكثر حيطة وحذراً من المعتاد ؛ فعرفت كيف تدخل وحدها على

المريضة ، وفيما يبدو استطاعت أن تظفر بثقتها بواسطة الموسيقى . لكنها فى النهاية أخطأت وُخدِعَتْ عن نفسها : فقد شاءت ذات مساء أن تثير انفعالا فى الخواطر ، فجرّت الفتاة الجميلة الشاحبة وأدخلتها فجأة على جماعة راقية حافلة ، بعد أن ظنت أنها هيأت الفتاة تهيئة كافية . وكان من الممكن أن تُفْلح هذه الحيلة لو لم يسلك الحاضرون ، بدافع الاستطلاع والقلق — مسلكاً ينطوى على الخُرْق والحماقة ، بأن تجمعوا حول المريضة ثم تجنبوها بعدُ ، وأثاروا فيها الهياج والاضطراب ، وهم يتهامسون ويسرون الكلام إلى الآذان . فلم تستطع أعصابها الرقيقة أن تحتمل هذا المنظر ، ففرت مذعورة وهى تصرخ صرخات مريعة ، كأنما الجزع تولاها أمام وحش رهيب يُلْقى بالوعيد والتهديد . وسرى الخوف إلى الجماعة فتشتت . وكانت أوتيلى من بين الأشخاص الذين عادوا بالفتاة إلى مخدعها وقد أصابها كامل الإغماء .

غير أن لوسيانه ، على عادتها ، وجهت لوماً عنيفاً إلى الجماعة ، دون أن تفكر مطلقاً فى أنها هى وحدها السبب فى كل هذا الشر الذى حدث ، ودون أن يحملها هذا الإخفاق وغيره على الإقلاع عن تجاربها .

ومن ذلك الحين وحال الفتاة تزداد سوءاً ؛ فقد تقدم الداء بخطوات واسعة جعلت أهلها لا يستطيعون الإبقاء على الفتاة المسكينة لديهم ، فاضطروا إلى إيداعها المستشفى . ولم يبق أمام شرلوت إلا أن تسعى لتخفيف الألم الذى سببته ابنتها لدى هذه الأسرة ، فسلكت نحوها مسلكا ينطوى على كل عطف وحنان . وهذا الحادث قد ترك فى نفس أوتيلى أثراً عميقاً . وزاد من تأثُّرها لحال تلك الفتاة المسكينة أنها كانت مقتنعة — كما قالت هذا بصراحة لشرلوت نفسها — بأن المريضة كانت ستظفر بالشفاء لو

كان الملاج قد جاء ملائماً .

ولما كان الإنسان حينما يعود بالذاكرة إلى الماضى يحلو له أن يكثر من الحديث عن الأشياء الأليمة أكثر منه عن الأشياء السارّة ، فقد انتهى حبل الكلام إلى مشاجرة خفيفة جرت بين أوتيلى والمهندس ، فى نفس المساء الذى رفض فيه أن يُبيّن مجموعته على الرغم من الرجاء الودى الذى وجهته هى إليه ، وهذا الرفض قد حملته فى قلبها باستمرار ، لسبب ليست تدريه . لكنه كان شعوراً عادلا : فما تطلبه فتاة مثلها يجب ألا يرفضه فتى كالمهندس . لكنه انتحل أعذاراً فيها بعض الوجاهة ، رداً على اللوم الخفيف الذى وجهته إليه عابرةً .

قال لها : « لو عرفتِ بأية خشونة وجلافة يعامل كثيرٌ من الناس — حتى المهذبين منهم — روائع الفن ، لبسطتِ عذرى فى عدم إظهار روائعى أمام ذلك الحشد من الناس . فما منهم أحد يعرف كيف يمسك بالمدالية من طرفها ؛ وإنهم ليتحسسون بأصابعهم أجمل النقوش وأنصع السطوح ؛ ويُرَدِّدون بين السبابة والإبهام أرقّ القِطَع . وكأن تقدير جمال الأشكال يتم على هذا النحو . وبدلا من أن يقدر الواحد منهم أن الورقة الكبيرة يجب أن تُمْسَك بكلتا اليدين ، يمسك بيد واحدةٍ الصورة التى لا تصاب لها قيمة ، والرسم الوحيد ، ومثله مَثَل السياسى المدعى الذى يمسك بالجريدة طاوياً أوراقها مبدياً مع هذا رأيه مقدماً فى الأحداث الجارية . وما من أحد يقدر أنه لو فعل عشرون شخصاً — الواحد بعد الآخر — هذه الفعلة مع أثر فنى ، فإن الشخص الحادى والعشرين لن يجد شيئاً ذا قيمة ليراه بعدُ »

— أوَلم أُبْدِ أنا نفسى إليك بعضاً من هذه المخاوف ؟ هكذا قالت له الفتاة . أولم يحدث لى أن أتلفتُ — دون وعىٍ منى — بعضاً من كنوزك ؟

— أبداً ! بهذا أجاب المهندس ، أبداً ! هذا مستحيل عليك : فإن الشعور باللياقة مغروز فى طبعك .

فأردفت قائلة : على كل حال لا ضير من إدخال فصل صريح عن الطريقة التى يجب سلوكها فى دهاليز الآثار الفنية والمتاحف ، فصل يكتب فى متون آداب السلوك بعد الفصول التى فيها آداب المائدة .

فقال : « لا شك أن فى مثل هذا ما يشجع الحراس والهواة على عرض كنوزهم » .

كانت أوتيلى قد غَفَرت له منذ زمان طويل ؛ لكن نظراً إلى أنه بدا متأثراً بهذا الملام ، ولم يَنِ عن الاحتجاج بأنه يسره كثيراً أن يعرض مجموعته وأن يجامل أصدقاءه ، فإن أوتيلى أدركت أنها جرحت رقة شعوره ، وأحست على نحو ما بأنها مدينة له . لهذا لم تستطع أن ترفض بصراحةٍ فضلا سألها إياه إثر هذا الحديث ، على الرغم من أنها وقد أفكرت فى الحال لم تعرف كيف يمكنها أن تلبى رغباته .

أما هذه الرغبات فإليك بيانَها . لقد جُرح أبلغ جُرْحٍ حينما رأى غَيْرة لوسيانه تُبْعِد ابنة خالتها عن تمثيل اللوحات ؛ كما لاحظ من ناحية أخرى — آسفاً — أن شرلوت بسبب انحراف مزاجها لم تستطع حضور هذه التسليات الرائعة إلا غِراراً . فلم يشأ هو الارتحال دون أن يقدم شاهد عرفانه بالجميل بأن نظم — لشرف الواحد ولتسلية الأخرى — حفلة تمثيلية أجمل كثيراً من الحفلات السابقة . ولعل باعثاً خفياً أن يكون قد انضاف أيضاً ، دون شعور منه : هو أنه كان يشقُّ على نفسه أن يغادر ذلك المنزل ؛ إنه لم يقو على تحمل فراق أوتيلى التى كانت نظرتها العذبة الساجية هى الشىء الوحيد الذى أشاع الحياة فى كيانه طوال تلك الأيام الأخيرة .

واقتربت حفلات عيد الميلاد ؛ وسرعان ما تبين أن هذه المحاكيات للوحات على هيئة نحت بارز إنما تعود فى أصلها إلى ما يطلق عليه اسم « البريسيپه » ومناظر التقوى التى كانت تكرس ، فى تلك الأزمان المقدسة ، للأم الإلٰهية (مريم) وابنها ، وهى تتلقى آيات الطاعة والخضوع من الرعاة أولاً والملوك من بعد .

وأدك تماماً إمكان تمثيل مثل هذه اللوحة . فظفروا بطفل جميل نضير ؛ ولم يعوزهم الرعاة ، ولا الراعيات : لكن لم يكن من الممكن عمل شىء بدون أوتيلى . فقد هيأها الفتى (المهندس) لتمثيل دور أم الإلٰه (مريم) ، فإن رفضت فلا شك فى فشل المشروع كله . حارت أوتيلى فى هذا الاقتراح ، فطلبت إليه أن يعرضه على خالتها . فأعطت شرلوت الإذن بكل ارتياح ، بل أنها هدّأت من مخاوف ابنة أُختها التى ترددت فى تمثيل هذه الشخصية المُقدسة . وواصل المهندس العمل بالليل وبالنهار ليكون كل شىء مُعَدًّا عشية ليلة الميلاد .

أجل واصل العمل بالليل والنهار ، بكل ما لهذه الكلمة من معنى . وهو لم يكن فى حاجة إلى كثير من الأشياء ، وكان حضور أوتيلى كافياً ليكون له عَزاء وسلوى . إنه كان حينما يعمل من أجلها ، لا يشعر بحاجة إلى النوم ؛ وإذا اشتغل فى سبيلها ، خُيِّل إليه كأنه يستطيع الاستغناء عن الغذاء . لهذا تم كل شىء وتهيأ لعشية العيد . كما استطاع أيضاً أن يؤلف موسيقى عذبة تعزف بآلات النفخ التى ستعزف استهلالا وتهيىء النفوس للجو المطلوب . فلما رفعت الستارة أحست شرلوت بمفاجأة حقيقية . فإن اللوحة التى عُرِضت أمامها كانت قد أُظْهِرت من قبل مراراً إلى درجة أن المرء لا يكاد ينتظر منها تأثيراً جديداً . لكن الحقيقة ، ها هنا ، كانت لها فى

الصورة مزايا خاصة . وكان المنظر كله فى الظلام أولى منه فى الأصيل ، ومع هذا فلم يَبْدُ أى جزء مختلطاً غير واضح . واستطاع الفنان أن يحقق الفكرة الرائعة ، فكرة جعل النور كله ينبعث من الطفل ، وذلك بوساطة جهاز إضاءة مبتكَر ، تستره الأشكال الموضوعة فى القسم الأمامى ، تلك التى لم تكن تتلقى غير حزَم قليلة من الضوء . وأحاطت بالطفل فتيات وفتيان يتدفق السرور من أعطافهم ، وتشرق الأضواء المنبعثة من أسفل على وجوههم الناضرة . وبجلّت الملائكة كذلك ، بيد أن بهاءهم قد غطى عليه فيما لاح بهاء الله ؛ إذ بَدت أجسامهم الأثيرية النورانية مادية قاتمة لو قورنت بجسم الله الإنسان .

وكان الطفل قد أغفى — لحسن الحظ — فى أجمل وِضْعة ، إلى حد أنه لم يكن ثمت شىء ليعكر صفو الانتباه ، حينما تتوقف النظرة عند الأم التى أزاحت — بلُطْف لا يوصف — نقاباً كيما تكشف عن الكنز المستور . وفى هذه اللحظة لاح الوجه ثابتاً غير متحرك . والشعب الذى أحاط به قد بدا — بعيون مبهورة ونفوس مشدوهة — أنه قد قام بحركة منذ لحظة ، كيما يشيح بعيونه التى بهرها الضوء ، ثم أعادها — فى استطلاع جذلان — إلى موضوع نظرها وهى تَطْرِفُ ، مُعَبِّراً بهذا عن دهشة ولذة أكثر منه عن إعجاب وإجلال : لكن هذه العواطف لم تُغْفَل أيضاً ، ووكل إلى بعض وجوه الشيوخ أن تقوم بالتعبير عنها .

أما قوام أوتيلى وحركاتها ووجهها ونظرتها فقد فاقت كل ما رسمته ريشة أى فنان . ولو رأى الذواقة من أهل العواطف هذا المنظر لكان خليقاً بأن يخشى منها أن تقوم بأية حركة ، مما من شأنه أن يُبْعد رضاه . لكن لسوء الحظ لم يكن ثمت شخص قادراً على إدراك أثر الكل . والمهندس

وحده هو خير من تذوق اللوحة ، وقد كان ماثلاً على هيئة راع ذى قوام فارع ينظر جانباً من فوق هؤلاء الذين ركعوا ، دون أن يتخذ موضع النظر الحقيقى . لكن من كان يستطيع وصف تعبير مَلِكة السماء الجديدة ؟ خشوع أوفى على الغاية ، وتواضع بلغ النهاية ، فى حِضْن مجد رفيع غير مُسْتَأهَل وسعادة لا توصف ولا تقدر ، كل هذا كان يرتسم فى قسماتها ، من حيث أنها كانت تعبر عن شعورها الخاص وعن فكرتها التى كونتها عن المنظر الذى كانت تمثّله .

تَملّتْ شرلوت بهذه اللوحة الرائعة ، وكان أجمل ما أثّر فيها منظر الطفل . ففاضت شئون الدمع من عيونها ، وأصابتها قشعريرة حادة ، حين خطر ببالها أنها تستطيع أن تأمُل فى أن تهدهد عما قليل على ركبتيها كائناً عزيزاً مثل هذا .

وأُسدل الستار ، إما لإعطاء الممثلين شيئاً من الراحة ، أو لإجراء بعض التعديلات فى اللوحة إذ خطر ببال الفنان أن يُحيل منظر الليل والخشوع إلى منظر نهار ومجد ، ومن أجل هذا أُعَدّ فى كل ناحية قدراً وفيراً من الأضواء التى أُشعلت فى فترة الاستراحة .

وكانت أوتيلى فى موقفها نصف المسرحىّ قد ظلت حتى ذلك الحين هادئة كل الهدوء ، لأنها كانت مقتنعة بأنه — فيما عدا شرلوت وبعض الأصدقاء — لم ير أحدٌ من قبل ذلك التمثيل الفنّىّ التقىّ . لهذا انتابها شىء من الاضطراب ، حينما لمحت فى الاستراحة وصول أحد الغرباء الذى استقبلته شرلوت أجمل استقبال . فمن عسى أن يكون هذا الغريب ؟ هذا ما لم يستطع أحد أن يدلها عليه . فأسلمت أمرها كيلا تحدث أى خلل واضطراب . وأُضيئت الشموع والمصابيح ، وأحاطت بها أضواء تبهر العيون . ورفعت

الستارة . يا له من منظر أخذ بألباب الحاضرين ! كانت اللوحة عامرة بالنور ، وبدلاً من الظلال التى اختفت نهائياً ، لم تبق إلا الألوان ، وكان فى حسن اختيارها ما لَطّف من بَهْرِ الأضواء . وأبصرت أوتيلى — قبل أن ترفع جفونها الطويلة — رجلا جالساً إلى جوار شرلوت . لم تتعرفه ، لكن خيل إليها أنها تميّز فيه صوت معلم المدرسة الداخلية . فاستولى عليها تأثر بالغ . فكم من أحداث مضت منذ أن لم تسمع فيها صوت هذا المعلّم المُخْلص ! ومرت أمام خاطرها مواكب مسراتها وآلامها . وساءلت نفسها : « أستجسرين على أن تقولى له كل شىء وتعترفى به ؟ كم أنتِ غير خليقة حقاً بالظهور أمامه فى هذه الصورة المقدسة ! وكم سيبدو غريباً أن يرى مُقنَّعةً تلك التى كان يراها دائماً طبيعية ! » تصارعت العاطفة والتفكير فى نفسها بسرعة ليس لها مثيل ؛ وضاق قلبها ، وامتلأت عيناها بالدموع ، بينما كانت تجاهد دائماً كيما تظهر ثابتة . وكم كان سرورها ، حينما بدأ الطفل يتحرك ! فاضطر الفنان إلى أن يشير بإسدال الستارة .

وإذا كانت العاطفة الأليمة والشعور القاسى بعدم إمكان الإسراع لاستقبال صديق موقَّر قد انضافت ، فى اللحظات الآخيرة ، إلى أحساس أوتيلى الأخرى ، فقد صارت الآن فى حالٍ من البلبال أكبر . أفيخلُق بها أن تتقدم إليه فى هذا الملبس والتزين الغريبين ؟ أم يجدر بها أن تبدل ثيابها ؟ وبدون تدبر ، سلكت المسلك الثانى ، وبذلت وسعها لتستعيد هدوءها وطورها فى تلك الأثناء ؛ لكنها لم تعد إلى نفسها تماماً إلا حين استعادت ملابسها العادية ، فاستطاعت أخيراً أن تُحيِّى القادم الجديد .

الفصل السابع

وأخيراً كان على المهندس أن يفارق سيدتيه . فحمل لهما أطيب الأمانى ، وسرّه ألا يغادرهما إلا وهما فى صحبة ذلك المعلِّم البجّل . لكنه كان يغار على توجيه كل عطف إليه ، فأحسّ بشىء من الألم وهو يشاهد بديلاً له قد حل محله سريعاً واستطاع أن يشغل مكانه كاملاً ، كما تبين لتواضعه . لقد كان متردداً حتى ذلك الحين ، أما هذا الحادث ، حادث وصول المعلّم ، فقد قطع عليه سبيل التردد فى الرحيل : فما عسى أن يألم له بهدوء وهو بعيد ، لم يشأ أن يراه عيانا وهو حاضر .

ووجد مَصْرِفاً لهذه العواطف الحزينة فى هدية قدمتها إليه السيدتان عند رحيله : كانت صُدَيْرياً مطرزاً بأيديهما . وهو قد رآهما منذ زمان طويل مشغولتين كلتيهما بهذا العمل ، ومازجه حسد مستور لهذا المجهول السعيد الذى سيملكه يوماً ما . ومثل هذه الهدية أجمل ما يظفر به رجل محب محترم : لأنه لا يستطيع التفكير فى هذه الأيدى الناعمة الخفيفة الحركة الدائبة العمل ، دون أن يمنِّى نفسه بأن القلب أيضاً قد ساهم بنصيب فى مثل هذا العمل المثابر .

والآن قد صار لدى السيدتين ضيف جديد ، تحملان له كل خير ، وتتمنيان رضاه فى ضيافتهما . إن للنسوة شوقاً خاصاً مستوراً ثابتاً ليس فى وسع شىء فى الدنيا أن يحول بينهن وبينه ؛ لكنهن فى العلاقات الاجتماعية يُسْلمن أنفسهن بارتياح وسهولة للرجل الذى يشغلهن . وسواء بالمقاومة وبالخضوع ، بالعناد وبالتساهل ، يفرض من السلطان ما لا قِبَل لأى رجل فى العالم المتمدين بتجنبه .

لقد أظهر المهندس مواهبه ومارسها وهو يبدو فى مظهر من يتابع ذوقه وهواه ، أظهرها على مرأى من صديقاته ترفيهاً عنهن وحرصاً على خدمتهن ؛ وبهذه الروح ووفقاً لهذه النظرة نظمت الأعمال ورُتِّبت الملاهى . بيد أن وصول المعلِّم أفضى إلى أسلوب فى الحياة جديد مغاير . إذ كانت موهبته الكبرى فى حسن الكلام وجمال العرض ، فى أثناء الحديث ، للملاقات المتبادَلة بين الناس ، خصوصاً فيما يمسّ تربية الشباب . وعلى هذا النحو نشأت معارضة ظاهرة ضد العادات التى اتبعت حتى ذلك الحين ، خصوصاً أن المعلم لم يكن موافقاً تمام الموافقة على الأشياء التى اقتُصِر على العناية بها من قبل وحدها .

لم يقل كلمة واحدة عن اللوحة الحية التى استقبلته لدى وصوله . وفى مقابل هذا ، لم يستطع أن يخفى رأيه ومشاعره حينما لذ للقوم أن يطلعوه على الكنيسة والكابلّة وكل ما إليها . فقال : « أما أنا فلا أحبّ هذا التقريب ، وذلك المزج بين الأشياء المقدسة وما يبهر الحواس ؛ لا أحب أن يكرّس الناسُ بعض المظاهر الخاصة ويميزوها ، ليغذوا على هذا النحو العاطفة الدينية بطريقة لا تدع مجالاً لغيرها . فما لحَـرَم كائناً ما كان ومهما تكن بساطته أن يعكر فينا صفو الشعور بالألوهية ، هذا الشعور الذى يمكن أن يصاحبنا فى كل مكان وأن يصنع من كل ناحية معبدا . وإنى لأفضل القيام بفروض العبادة داخل المنزل فى قاعة الطعام ، حيث يجتمع القوم للملذات والألعاب والرقص . إن أنبل ما فى الإنسان وأسماه لا شكل له ولا لون ، ويجب علينا أن نتفادى تصويره إلا بالأعمال النبيلة » .

وسرعان ما أدخلته شرلوت فى نطاق نشاطها ، وقد كانت على علم سابق بمشاعره ، وفى وقت قصير تعمقتها أكثر وأكثر ؛ — بأن

استعرضت أمامه فى البهو الكبير ، البستانيين الصغار الذين استعرضهم المهندس منذ قليل قبل رحيله . فتبدّوا فى أجمل مظهر وهم يرتدون بِزّتهم النظيفة الزاهية ، ويأتون حركات منتظمة وأعمالا خفيفة الحركة طبيعية . وخصهم المعلم وفقاً لمزاجه ، وبعد أسئلة ومحاورات متعددة اكتشف أخلاق هؤلاء الأطفال ومواهبهم واستعداداتهم ، وفى أقل من ساعة ومن غير أن يظهر بهذا المظهر كان قد علمهم وأفادهم إلى حد كبير .

فقالت شرلوت ، حينما انصرف الأطفال : « ماذا فعلت وكيف ؟ لقد استمعت بانتباه شديد ؛ ولم يدر السؤال إلا عن أشياء معروفة تماماً ، ومع هذا فلست أدرى ماذا أصنع كيما أعرضها بمثل هذا الترتيب ، وفى مثل هذا الوقت القصير ، خلال كل هذا الخليط من الأقوال .

— لعل من الواجب على المرء أن يجعل من فضائل مهنته ومزاياها سِرّاً ، هكذا استأنف المعلم كلامه ؛ ومع هذا فلست بمستطيع أن أكتمك المبدأ البسيط الذى يمكن بمعونته الظفر بهذه النتيجة وأكثر منها . خذى أى شئ ، مادةً أو فكرة ، كما يشاء الناس أن يسموها ؛ واحتضنيها بكل قوة ، واصنعى منها تصوراً واضحاً كل الوضوح فى جميع أجزائه : هنالك سيسهل عليك أن تتعرفى ، بالحديث مع فرقة من الأطفال ، ما يعلمون فعلاً عن ذلك الشيء ، وماذا يجب تعليمهم عنه أيضا ، والإيحاء به إليهم كذلك . ومهما تكن أجوبتهم عن أسئلتك ، فما دمت تردينهم من بعدُ إلى الفكرة أو الموضوع ، ولا تدعين نفسك تنأى عن وجهة نظرك ، فلا بد أن ينتهى الأطفال بإدراك ما يريد المعلم أن يلقنهم إياه ، وفهمه والنفوذ إليه بعقولهم ، بالطريقة التى يريد عليها أن يفهموه ويعلموه . وإنما عيبه الأكبر أن ينجر وراء تلاميذه ، وأن يعجز عن إيقافهم عند

النقطة التى يعالجها حاليا . جرِّبى هذا قريبا ، أى سيدتى ، وستجدين فيه تشويقا كبيراً ولذة .

— هذا بديع ! هكذا قالت ؛ إن التربية الجيدة هى إذاً عكس المعاملة الجيدة . ففى المجتمع يجب ألا يتوقف الإنسان عند أى شىء ، بينما فى التعليم القانون الأعلى هو محاربة كل خروج عن الموضوع واستطراد .

— التنويع بلا تشتيت هو بالنسبة إلى كل من العلم والسلوك فى الحياة أجمل قاعدة وخير مثال ، لكن هذا التوازن السعيد شاقٌ الاحتفاظُ به » .

وبعد أن أفضى بهذا الجواب ، راح المعلم يستمر فى الحديث ، حينما ألحّت عليه شرلوت فى أن ينظر مرةً أخرى إلى الأطفال ، بينما كان جمعهم يخترق الفِناء فى تلك اللحظة . فعبّر عن رضاه لإخضاعهم لزىٍّ واحد مشترك .

قال : « يجب أن يرتدى الناس الزى المشترك منذ نعومة أظفارهم ، إذ عليهم أن يتعودوا العمل مشتركين ، والاختلاط بلداتهم وأقرانهم ، والطاعة للمجموع والعمل للصالح العام . وفضلاً عن هذا ، فإن كل لون من الزى المشترك يغذّى الروح العسكرية والتربية الدقيقة الثابتة النظامية . ثم ، أليس الأطفال يولدون جميعاً جنوداً بطبعهم ؟ يكفى المرء أن يشاهدهم وهم يلعبون ويتحاربون ويتصارعون ويهجمون ويتسلّقون .

— فقالت أوتيلى : لكنك لن تلومنى على أنّى لم أُلْبِس فتياتى على هذا النحو ؟ . . . حينما أعرضهن عليك ، آمُل أن أُمْتِعك بالمزيج والتنوّع .

— أوافق على هذا تماماً ، بهذا أجاب . إن النسوة يجب أن يتنوع لباسهن إلى أبعد حد ، كلاً على هواها ، كيما تعرف كلٌّ كيف تحس بما

بلائها . وثمت سبب أهم من هذا هو أنه قد قدر عليهن أن يكنّ متوحدات ، وأن يعملن وحيدات ، طوال حياتهن .

— هذه — فيما يبدو — مفارقة غريبة ، هكذا قالت شرلوت : إننا نحن لا نكاد نحيا مطلقاً من أجل أنفسنا .

— على العكس ، بهذا أجاب المعلّم ، إنكن لا تحيين إلا من أجل أنفسكن حقاً ، بالنسبة إلى النسوة الأخريات . فلينظر الإنسان المرأة عاشقةً أو خطّيبي أو زوجاً أو أمًّا أو ربة بيت ، فسيجدها دائماً منعزلة متوحدة وتريد دائماً أن تكون كذلك . بل إن أكثرهن غروراً لعلى هذه الحال كذلك . إن كل امرأة تستبعد غيرها من النساء : هذا فى طبعها ، لأن المرء يتطلب من كل منهن كل ما يجب أن يؤديه كل جنسهن بتمامه . وليس الأمر كذلك بالنسبة إلينا معشر الرجال . فالرجل منا فى حاجة إلى الرجل ، وإذا لم يجده خلقه لنفسه ؛ أما المرأة فتستطيع أن تحيا الدهر كله ، دون أن تفكر فى إيجاد قرينتها .

— فقالت شرلوت : يكفى أن يقال الحقُّ بطريقة غريبة كيما ينتهى الغريبُ نفسه بأن يبدو حقاً هو الآخر . سنقتطف خير ما فى ملاحظاتك ، ومع هذا فنحن كنسوة سنتكاتف سوياً ، وسنعمل أيضاً معاً كيلا نترك للرجال مزايا كبرى علينا . بل اسمح لى بهذا السرور الماكر الذى سنزداد شعورا به فى المستقبل حينما نرى الرجال لا يتفقون كثيراً فيما بينهم » .

ثم درس المعلّم الفَطِنُ من بعدُ بكثير من العناية الطريقةَ التى تعامل بها أوتيلى تلميذاتها الصغيرات ، وشهد بموافقته الصريحة على ما تفعل . قال لها : « لك الحق كثيراً فى أن توجّهى اهتمام تلميذاتك إلى الأشياء التى فى المرتبة الأولى من الضرورة ، وحدها . إن النظافة تحمل البنات الصغار

على حسن تقدير أنفسهن ، وما أعظم المكسب حينما ندفعهن إلى السرور بما يفعلن والرضا عما يعملن » .

وفضلا عن هذا فقد شاهد بعين مليئة بالرضا أنه لا يوجه أى اهتمام إلى المظهر الخارجى ، بل على العكس كل شىء يعمل من أجل الباطن ومن أجل الحاجات الضرورية . ثم صاح : « ما أقل الكلمات التى نحتاج إليها لعرض نظام التربية كله ، لو كانت هناك آذان تسمع ! »

— أولا تود أن تحاول معى ؟ هكذا قالت أوتيلى بصوت هادىء .

— بكل ارتياح ، لكن لا تخونينى ! لو نشىء الأولاد ليكونوا خادمين والبنات ليكن أمهات لسار كل شىء على ما يرام .

— أمهات — هكذا قالت — ، النساء يمكنهن أن يقبلن ، لأنهن بدون أن يكن أمهات يجب عليهن دائماً أن يتأهبن ليكن مربيات أولاد ؛ لكن الشبان يعتقدون فى داخل نفوسهم أنهم أسمى كثيراً من أن يقوموا بدور الخادمين : إذ يستطيع المرء أن يلمح من مظهر كل أنهم يحسبون أنفسهم أقدر على السيادة والقيادة .

— وهذا هو السبب فى أننا نجعل لهم من هذا أمراً مستسراً وسراً ، هكذا قال المعلم . يتملق الإنسان نفسه فى مجرى الحياة ، لكن الحياة لا تتملقنا . أفيعرف الكثيرون كيف يسلمون طوعاً واختياراً بما هم ملزمون فى النهاية بالتسليم به ؟ وعلى كل حال ، فلندع هذه الأفكار الغريبة عما يشغلنا .

« إنى لأهنئك على استطاعتك استخدام منهج جيد مع تلميذاتك . وإذا كان أصغر فتياتك يتلهون بعرائسهن ، ويخطن لهن بعض القصاصات قطعة فقطعة ؛ وإذا كانت الأخوات الكبريات يعنين بالصغريات ، وإذا

كان البيت يكفل نفسه بنفسه — فإن الخطوة الباقية للدخول فى حومة الحياة ليست واسعة ، والفتاة التى تُعَدّ على هذا النحو تجد عند زوجها ما خلفته من ورائها عند أهلها .

« أما الطبقات العالية فالمهمة بالنسبة إليها معقدة كل التعقيد . إذ يجب أن نحسب حساباً لعلاقات أسمى وأدق وألطف ، خصوصاً العلاقات الاجتماعية . من أجل هذا يجب أن ننشّئ المظهر الخارجى عند تلميذاتنا . هذا ضرورى لا غنى عنه ، ويمكن أن يكون جيداً ، إذا لم يتجاوز الحد المعقول . ذلك أن التفكير فى تنشئة الأبناء من أجل دائرة أوسع يفضى إلى الزج بهم فى طريق غير محدود دون أن نتدبر حقاً فيما تقتضيه طباعهم . وتلك هى المشكلة التى يتفاوت حلها أو الإخفاق فيها بين المربين . إننا نعلّم تلميذاتنا فى المدرسة الداخلية كثيراً من الأشياء التى تدع فى نفسى قلقاً واضحاً ، لأن التجربة تدلنى على قلة استعمالهن لها فى مستقبل الحياة . لكن كم من أشياء لا تُمحى ولا تُنْسى حالما تدخل الفتاة بيتاً وتصير أُمًّا !

« ومع هذا ، وما دمتُ قد كرستُ نفسى لهذه الأعمال ، فلا أود أن أحرم نفسى الرغبةَ الصادقة فى النجاح يوماً ما ، بمعونة رفيقة مخلصة ، فى ألا أُنَمّى فى تلميذاتى من المعارف إلا ما سيحتَجْن إليه حينما يدخُلْن فى ميدان النشاط الصحيح والاستقلال ، حتى يكون فى وسعى أن أقول : إن تربيتهن ، بهذا المعنى ، قد اكتملت . ومن الحق أيضاً أن نتلوها دائماً أخرى غيرها تنشأ فى كل سنة من سنى حياتنا تقريباً ، صادرةً إن لم يكن عن أنفسنا ، فعن الظروف التى تلابسنا » .

كم تبدت هذه الملاحظة صادقة فى نظر أوتيلى ! وكم من الأشياء علمها وجدان غير متوقع ، اشتغل بها فى السنة التى انقضت ! كم من محَنٍ

رأت نفسها مهددةً بها ، حتى فيما يتصل بمستقبلها القريب جداً وحده !

وهذا الشاب (المعلّم) لم يتحدث عبثاً عن مساعِدة ورفيقة ؛ فهو على تواضعه لم يستطع أن يملك نفسه من الإشارة إلى أغراضه من طرف خفى بعيد . وثمت كثير من الظروف والأحداث التى حملته فى هذه الزيارة على أن يخطو بضع خطوات أخرى فى سبيل غرضه .

لقد كانت مديرة المدرسة متقدمة فى السن ، وكانت قد بحثت منذ زمان طويل بين المعلمين والمعلمات الذين يساعدونها عن شخص يمكن أن يكون شريكاً لها ؛ وأخيراً توجهت إلى المعلّم الذى نال كل ثقتها فاقترحت عليه أن يشاركها فى إدارة المدرســة ، وأن يشرف عليها كأنها مدرسته ، وأن يقوم مقامها بعد وفاتها ، بصفته وراثاً ومالـكاً وحيداً . وكان المهم عنده أن يجد امرأة تشاركه أفـكاره . وأوتيلى كانت تشغل قلبه سِرًّا وعقلَه ؛ لـكن تبدَّت بعض الشكوك التى وازنتها بعض الأحداث الملائمة . ذلك أن لوسيانه قد غادرت المدرسة ، ففى وسع اليتيمة (أوتيلى) إذاً أن تعود إليها كيفما شاءت ؛ أجل إن علاقاتها بإدورد قد تناقلتها بعض الألسن ؛ لـكن الأمر قد نُظِـر إليه بشىء من عدم الا كتراث ، شأنه شأن أمثاله من المغامرات ؛ بل إن هذا الحادث نفسه ليمكن أن يعمل على الإسراع بعودة أوتيلى إلى المدرسة . لـكن لم يكن ثمت ما يؤدى إلى اتخـاذ أى قرار ، ولا التقدم أية خطوه ، لولا أن زيارة مفاجئة قد أعطت المسألة دافعاً خاصاً ؛ لحضور الأشخاص البارزين فى أية جماعة لا يمكن أن يظل دون أثر ولا نتائج .

ذلك أن الـكونت والبارونة رأيا أنفسهما موضعاً للاستشارة فى قيمة المدارس الداخلية المختلفة ، لأن أولياء الأمور يكادون يحارون فى اختيار

التربية الصالحة لأبنائهم ؛ فخطر ببالها أن يستطلما أمر تلك المدرسة التى سمما عنها أخيراً إطراء كثيراً . وقد صار فى وسعهما أن يقوما بهذه الزيارة سوياً ، بعد وضعها الجديد . كما أن البارونة كانت ترمى إلى مقاصد أخرى . فقد تحدثت إلى شرلوت إبان إقامتها الأخيرة لديها حول كل ما يتصل بإدورد وأوتيلى . فأصرت البارونة على إبعاد الفتاة . وبذلت جهدها كيما تطمئن شرلوت التى كانت تخاف دائماً تهديدات إدورد . فاستعرضا الحلول الممكنة ، ولما وصلا إلى فكرة المدرسة الداخلية ، تطرق الحديث إلى غرام المعلّم — فزاد هذا من عزيمة البارونة على القيام بالزيارة المقترَحة .

قَدِمَتْ وتعرّفت إلى المعلّم وتفقدت المدرسة وتحدثت عن أوتيلى . ولذ للكونت نفسه هذا الحديثُ عنها ، لأنه ازداد معرفة بها أثناء زيارته الأخيرة . لقد اقتربت من الكونت ، وشعرت بانجذابها نحوه ، لأنها وجدت عنده ، فى حديثه الممتع المتين ، ما ظل مجهولا لديها حتى ذلك الحين . وكما كانت فى أحاديثها مع إدورد تنسى الدنيا ، فإنها فى حضرة الكونت بدت الدنيا لها مرغوباً فيها لأول مرة . كل ميل متبادَل . لقد أحس الكونت يميل إلى أوتيلى إلى حد أنه كان يلذ له أن ينظر إليها كابنة له . فى هذه المرة أيضاً كانت عقبة أمام البارونة ، أكثر مما كانت فى المرة الأولى .

ليت شعرى ماذا كانت ستفعله ضد هذه الفتاة حينما كانت لا تزال عارمة الوجدان ! هنالك كفاها أن تجعلها ، بواسطة الزواج ، أقل خطراً على البيت .

فعرفت كيف تُفهم المعلّم بلباقةٍ — لكن بنجاحٍ — أنه يجب عليه أن يعمل على القيام برحلة صغيرة إلى القصر ، ويعجّل بتحقيق أمانيه ومشروعاته التى لم يخف أمرها عن البارونة .

ومن هنا قام بهذه الرحلة ، بموافقة تامة من المديرة ، وهو يُغَذّى فى قلبه أجمل الآمال . إنه ليعلم أن تلميذته لا تكرهه ؛ وإذا كان بينهما عدم تكافؤ فى المركز الاجتماعى ، فإنه لا يلبث أن يزول بسهوله أمام الأفكار العصرية . كما أن البارونة ، من ناحية أخرى ، قد أفهمته أن تلك التى يحبها ستظل دائماً فتاة فقيرة . إن الانتساب إلى بيت غنى لا يعطى أية ميزة : فنى حالة الثروات الضخمة ، يتردد الناس فى استقطاع مبلغ كبير من هؤلاء الذين يبدو أنهم أحق بالامتلاك ، بسبب زيادة قرابتهم . والحق أنه ليس أقل من هذا غرابة أن لا ينتفع الإنسان إلا نادراً — من أجل إفادة من يحبهم — بالامتياز الكبير الذى يخوّل له أن يتصرّف فى أملاكه بعد وفاته ؛ رأن يدعو للتوريث من سيملكون ثروته من بعده ؛ حتى لو لم تكن لديه أية نية .

كان قلبه يقول له طوال رحلته إنه كفء لأوتيلى . وقوى من آماله ما لقيه من حُسْن استقبال . أجل إنه وجدها هذه المرة أقل إفضاءً له بما فى نفسها مما كانت من قبل ؛ لكنها قد صارت الآن أنمى وأفضل تكويناً ، وعلى وجه العموم يمكن أن يقال إنها أظهر لمكنون نفسها مما عرفها . ثم إنه أُطْلِع — فى ثقة كاملة — على كثير من المسائل ، خصوصاً تلك التى تتصل بحالته . لكنه كان حينما يريد الاقتراب من هدفه ، يمنعه دائماً نوع من الخوف والتهيُّب .

بيد أن شرلوت هيأت له الفرصة يوماً ، حينما قالت له فى حضرة ابنة أختها :

« الآن وقد تفقّدت جيداً كل ما يجرى فى البيت ، فقل لى رأيك فى أوتيلى . وأحسب أنك لن تتهيَّب القول فى حضرتها ؟ »

فأجاب المعلّم بكثير من الحصافة والحكمة ، وبلغة بالغة الهدوء والرزانة ، قائلا إنه قد وجدها قد تغيرت إلى أحسن فيما يتصل بيُسر المعاملة ، ولطف الحديث ، وعلو الفهم لشئون الدنيا ، مما يبدو فى أعمالها أكثر منه فى أقوالها ؛ ومع هذا فهو يعتقد أنها يمكن أن تكسب كثيراً لو أنها عادت بعضاً من الزمان إلى المدرسة ، كيما تتملك علماً ثابتاً راسخاً مرتّباً ما لا تعلمها إياه الحياةُ إلا بطريقة جزئية غير منظمة ، أدعى إلى إحداث الاضطراب منها إلى جلب الرضا ، وأحياناً ما تتأخر كثيراً . ولم يشأ أن يطيل عِنان القول فى هذا فقد كانت أوتيلى تعرف خيراً من أى إنسان آخر مقدار الدروس التى أكرهت على تركها .

لم يكن فى وسع الفتاة أن تنكر هذا ، لكنها لم تستطع أيضاً أن تصرّح عما تشعر به بإزاء هذه الكلمات ، لأنها لا تكاد تعرف ماذا تقول . إنها لم تعُد ترى فى الدنيا أى نقص عام ، حينما تفكر فى الذى تحبه ، ولم تتصور وجود أىّ انسجامٍ بدونه .

أما شرلوت فقد أجابت عن هذا الاقتراح بلطف موزون . قالت إنهما كانا يأمُلان فى عودة أوتيلى إلى المدرسة . أما الآن فلا غنى لهما عن حضور مثل هذه الصديقة العزيزة ومعونتها . لكن فى المستقبل إذا كان هذا من رأى أوتيلى فإنها لن تحول بينها وبين العوْد إلى المدرسة ، لإتمام دراساتها التى ابتدأتها ، وتمثُّل كل المعارف التى توقفت عن تحصيلها .

فتلقى المعلّم هذه العروض بسرور . ولم تستطع تلميذته أن تعترض بشىء ، على الرغم من أن هذه الفكرة قد أثارت فى نفسها القشعريرة والاضطراب . وشرلوت من ناحيتها أفكرت فى كسب الوقت . إذ كانت

تأمُـل أن يكون فى صيرورة إدورد والداً ما يعيد رشده إليه ويرده إليها ؛ وكانت واثقة من أن كل شيء بعد هذا سينظم ، وأن مصير أوتيلى سيقرر ويرتب على نحوٍ ما .

كل حديث جِدّى يساهم فيه المتحاورون كلٌّ برأيه الخاص يُـتلَى غالباً بوقفة يلوح أنها تدل على نوع من الضيق مشترك . لقد كانوا يغدون ويجيئون فى غرفة الاستقبال ؛ وتصفّح المعلّم بعض الكتب ؛ وأخيراً وقع فى يده كتاب ظل فى ذلك المكان منذ أيام لوسيانه . فلما رأى أن هذا الكتاب لا يشتمل إلا على رسوم قِردة ، أقفله فى التوّ . لكن يلوح أن هذا الحادث قد أفضى إلى حديث ، إذ نرى أثراً له فى « اليوميات » التى نحن بسبيل الاقتباس منها الآن أيضا .

من يوميات أوتيلى

كيف يأخذ المرء على عاتقه أن يرسم قردة حقيرة بكل هذه العنـاية ! إنه نوع من الانحطاط مجرد حسبانها حيوانات : لـكنه شاهد على الخبث حقاً أن يُسلم المرء نفسه للذة نشدان أناس معروفين تحت قناع هذه الرسوم .

لا بد من وجود نوع من الضلال فى الروح عند من يلذ له أن يشتغل بالرسوم الهزلية والغريبة . إننى أدين لمعلمنا النبيل بفضل عدم انشغالى بالتاريخ الطبيعى : إذ لا يسعنى مطلقاً أن أشعر بالعطف نحو الدود والجِـعْلان (الخنافس) .

فى هذه المرة اعترف لى بأنه يشعر مثلى ، قال : « يجب ألا نعرف من الطبيعة إلا الأشياء التى تعيش من حولنا وبالقرب منّا » . إن لنا صلة

حقيقية بالأشجار التى تخضرّ وتزهر وتثمر من حوالنا ؛ بالشجيرة التى نمرّ بالقرب منها ؛ بكل عود من العشب نطؤه بأقدامنا : إنهم شركاؤنا فى الوطن حقاً وأبناء جَلْدتنا . والطيور التى تتواثب على غصون أشجارنا ، وتغنّى فى أيكتنا ، تنتسب إلينا ؛ إنها منحدرة إلينا منذ نعومة أظفارنا ، وتعلمنا كيف نفهم لغتها . وليسأل المرءُ نفسه عما إذا لم يكن كل مخلوق غريب ينتزع من وسطه يحدث فى نفوسنا آثاراً أليمة لا تهدأ إلا بالتعود . ولا بد للمرء أن يحيا حياةً مشتتة صاخبة ، كيما يحتمل إلى جواره القردة والببغاوات والزنوج .

حينما تأخذنى الرغبة أحياناً فى مشاهدة هذه الكائنات الغريبة ، أحسد الرحالة الذى يشاهد هذه العجائب فى صلات حية مستمرة بعجائب أخرى . لكنه هو نفسه يستحيل خَلْقاً آخر : فما من أحد يستطيع أن يتجول تحت النخيل دون أن يتأثر ، وأفكارنا تتغير من غير شك فى وطن يكون فيه الفيلة والنمرة فى مكانها الأصلى .

لا عالم طبيعاً جدير بالاحترام إلا ذلك الذى يعرف كيف يصور لنا ويمثل أغرب الكائنات وأعجبها فى داخل بيئته وكما هو فى محيطه ، وفى وسطه . كم يحلو لى أن أسمع همبولت(١) ، ولو مرة واحدة ، يقص رحلاته !

---

(١) هو فريدرش هينرش ألكسندر فون همبولت (سنة ١٧٦٩ — سنة ١٨٥٩) : عالم بالتاريخ الطبيعى ألمانى ، ورحالة مشهور . رحل إلى الرين فى سنة ١٧٩٢ فكتب كتابه الأول بعنوان : «ملاحظات على بازلت الرين» . ثم درس فى فريبورج ، حيث قام بعدة تجارب على الكهربا الكلفانية . وخلال السنوات من سنة ١٧٩٧ — سنة ١٨٠٤ قام برحلات إلى أمريكا الجنوبية والمكسيك والولايات المتحدة ، وعاد منها مزوداً بكنز من المعلومات فى كل فروع التاريخ الطبيعى . ومن =

إن مكتب التاريخ الطبيعي يمكن أن يبدو لنا على هيئة ضريح مصرى ، ترى فيه الحيوانات والنباتات المختلفة مرتبة ومحنطة . ويليق حقاً بطبقة كهنوت أن تشتغل بها فى ضوء ضعيف مُستَتَسِرّ . لكن هذه الأشياء يجب ألا تشغل مكاناً فى التعليم العام خصوصاً بقدر ما هى من شأنها أن تطرد ما هو أنفع منها وأقرب إلينا .

إن المعلم الذى يستطيع أن يُشعرنا بعمل نبيل أو قصيدة جيدة ليؤدى خيراً أكبر من ذلك الذى يعرض لنا أصنافاً كاملة من الإنتاجات الطبيعية بكل ما لها من أشكال وأسماء ؛ لأن النتيجة كلها (ونستطيع أن نعرفها بطريقة أخرى) هى أن الإنسان يحمل فى نفسه — بنوع من السمو والامتياز الخاص — صورة الألوهية .

لندع لكلٍّ الحريةَ فى الانصراف إلى ما يجذبه ويغريه ويبدو له مفيدا : لكن الدراسة الجوهرية للإنسانية هى دراسة الإنسان نفسه .

الفصل الثامن

قليل من الناس يعرفون كيف ينشغلون بالماضى القريب كل القرب . فنحن بين خَصلتين : فإما أن نكون أسارى الحاضر ، وإما أن نضلّ فى بيداء الماضى البعيد ، ونسمى قدر استطاعتنا لاستعادة ما ضاع إلى غير رجعة .

= سنة ١٨٠٨ — سنة ١٨٢٧ أقام فى باريس واشتغل مع جى لوساك فى إقامة التجارب الكيميائية . وبرعاية القيصر نقولا قام فى سنة ١٨٢٩ برحلة استكشافيه إلى آسيا الشمالية والوسطى ، فزاد من العلم بسلاسل الجبال وعلم المناخات المقارن . وتفرغ بعدها لوضع كتابه « الكون » الذى يعد من أعظم الأسفار فى فلسفة العلم .

بل إن العادة حتى فى الأسر الكبيرة الموسرة التى تدين بالكثير لأجدادها ، قد جرت بالتفكير فى الجد الأعلى أكثر منها فى الأب .

انساق معلمنا إلى هذه الخواطر يوماً من تلك الأيام الجميلة التى يقدّم لنا فيها الشتاء الراحل صورةً خادعة للربيع ، بينما كان فى طريقه إلى التريض فى البستان الفسيح العتيق الخاص بالقصر ، وكان يعجبه فيه زخارف الزيزفون العالية ، والمفروشات المنتظمة التى تعود إلى أيام والد إدورد . وقد نجحت نجاحاً باهراً وفقاً لفكرة من غرسها ، والآن وقد تبدى هذا النجاح وأمكن التمتع به ، لم يَعدْ أحدٌ يتحدث عنه ، ولا يكاد أحد يزورها ؛ فالهوى والإسراف قد اتخذا اتجاهاً آخر وانتقلا بعيداً إلى مجمعات الريف .

ولما عاد المعلّم إلى القصر ، أبدى هذه الملاحظة لشرلوت ، فتلقتها بشىء غير قليل من الارتياح . وأجابت : « إن الحياة تسوقنا ، ويخيَّل إلينا أننا نعمل من تلقاء أنفسنا ، ونختار أعمالنا وملذاتنا ؛ والواقع أن ذوق العصر وتقويماته هى التى تفرض علينا اتّباعها .

— بدون شك ، هكذا استأنف المعلم ؛ ومن ذا الذى يقاوم سيل الحوادث ؟ إن الزمان ليجرى سائقاً العواطف والآراء والأفكار السابقة والأذواق . فلو أمضى الابنُ شبابَه فى زمن الثورة ، فمن المؤكد أنه لن يشبه أباه فى شىء . ولو عاش الأب فى عصر يميل الناس فيه إلى الامتلاك الخاص والتحديد والتضييق على الأشياء ، والتمتع بالملذات القوية وحيداً بعيداً عن الناس ، فإن الابن لن يقصِّر فى السعى لبسط ما قَصَره الأب ونشره والتوسع فيه وبذله للآخرين .

— فقالت شرلوت : والعصور الكاملة تشبه هذا الوالد وذلك الابن

اللذين تصفهما . فنحن لا نكاد نستطيع أن نكوّن فكرة عن تلك الأزمنة التي كان لا بد لكل مدينة فيها من خنادق وأسوار لها خاصة ؛ حين كان يُبنى بيت النبيل فى حَمْأة ، وكانت أقل القصور لا يمكن الوصول إليها إلا بواسطة جَسر متحرك يُرْفع ويُنزَل . أما اليوم فالمدنُ الكبرى نفسها تَدُكُّ أسوارَها ؛ والخنادق حول قصور الأمراء قد ملئت ؛ والمدن لا تبدو اليوم إلا كمساحات منبسطة واسعة : وإن الرحالة الذى يشاهد هذه التغيرات لا بد له أن يعتقد أن السِّلْم العالمى قد صار مكفولاً ، وأن العصر الذهبى على الأبواب . لم يعد يلذ للواحد منا أن يرى بستاناً إلا إذا كان مشابهاً للريف المنبسط ؛ ولا شيء يجب أن يذكر بالصنعة والضيق ؛ إننا نريد أن ننعم بكل يُسر وحرية . فهل عندك فكرة ، ياصديق ، عن إمكان الرجوع عن هذه الحالة إلى أخرى ، إلى تلك التي سبقتها ؟

— ولِمَ لا ؟ هكذا قال ؛ إن لكل موقف مساوئه ، سواء المقيّد والمتحرر . إن هذا الأخير يفترض الوفرة ويفضى إلى الإسراف . فلنقف عند المثل الذى سُقته : فهو بارز يستلفت النظر . فحالما يشعر الناس بالحاجة يعودون إلى الاعتدال . فالناس المضطرون لاستغلال أراضيهم يحيطون حدائقهم بالأسوار من جديد ، كيما يكونوا على ثقة بالمنتجات . وعن هذا الطريق تأخذ الأمور مظهراً آخر شيئاً فشيئا . فتكون السيادة لما هو نافع ، وأخيراً يعتقد الغنىُّ أنه يجب عليه أن يستغلّ كلَّ شيء . صدقينى أنه من الممكن أن يهمل ابنك كل تجميلات البستان ، وينحاز من جديد خلف الأسوار الكابية وتحت الزيزفون العالى الذى غرسه جده » .

وأحست شرلوت بسرور خفى حينما سمعت ببشرى ابنها ، مما جعلها

تغتفر النبوءة المضايقة التى قال بها المعلم ، فيما يتصل بالمصير الذى يمكن أن يلقاه بستانها الجميلُ يوماً ما ، بستانها الحبيب . وأجابت بلطف كامل :

« لسنا كلانا فى السن التى تجعلنا مرات كثيرة شهوداً على أمثال هذه المناقضات ؛ لكن إذا عدنا إلى زمان الشباب الأول ، وتذكرنا شكاة الشيوخ ، ولاحظنا المدن والأرياف ، فلعلنا لن نجد شيئاً نجيب به عن ملاحظاتك . لكن ، أفلا يسعنا أن نعترض هذا السير الطبيعى أى اعتراض ؟ أفلا نستطيع أن نوفق بين الأب والابن ؟ لقد تلطفت فتنبأت لى بولد : فهل من الضرورى قطعاً أن نكون وإياه على طرفى نقيض ؟ وأن يهدم ما كان أهله قد بنوه ، بدلا من إتمامه وإكماله وإنمائه ، بأن يستمر عاملا بنفس الروح ؟

فأجاب المعلم : لعل هناك وسيلة ناجعة ، لكن الناس نادراً ما يستخدمونها ، فلينشِّئ الوالد ولده على أنه شريك له ؛ وليدعه يبنى ويغرس معه ، وليسمح له ، كما سمح لنفسه ، بحرية بريئة . إن فى الوسع إيلاجَ نشاط فى آخر ؛ لكن لا يمكن ضم الواحدة إلى الثانية ؛ فالغصن الصغير يتحد بسهولة وارتياح مع الساق العتيق الذى لا يمكن أن يطعَّم عليه بعدُ فرعٌ كبير » .

واغتبط المعلم لأنه وجد الفرصة لكى يقول لشرلوت كلاماً طيباً ، وأن يستجلب عطفها ورضاها من جديد ، فى اللحظة التى رأى نفسه فيها مضطراً إلى توديعها . لقد طالت غيبته عن منزله ، ومع هذا فإنه لم يقدر أن يعقد العزم على الرحيل إلا بعد أن اقتنع تمام الاقتناع أنه لا يمكنه الأمل فى قرار نهائى أيًّا كان فيما يتصل بأوتيلى قبل أن تضع شرلوت . فأسلم أمره واستسلم للظروف ، وعاد بهذا الأمل والرجاء إلى المديرة .

واقترب ميعاد وضع شرلوت . فازداد حرصها على التزام مخدعها وعدم الخروج . وكانت النسوة اللائى اجتمعن حولها صحبتها الوحيدة فى تلك العزلة وذلك الاعتكاف . ووقع عبء الشئون المنزلية على أوتيلى دون أن تكاد تفكر فى الدور الذى تلعبه . والواقع أنها قد لاذت بالتسليم الكامل ؛ ورغبت فى أن تكرّس نفسها دائماً وبكل إخلاص وتفانٍ لخدمة شرلوت ، وابنها وإدورد ، لكنها ما كانت لتتبين كيف يمكن هذا أن يكون . ولم ينقذها من هذا البلبال التام ، إلا انكبابها على أداء واجبها كل يوم .

ومن ميمون جَد البارونة أنها وضعت غلاماً ذكراً ، واتفق النسوة على التصريح بأنه صورة كاملة من أبيه : أما أوتيلى فقد حملت فى نفسها كلماً آخر ، حينما غدت تهنىء الواضع ، وتضم إليها الوليد الجديد بكل لطف ورقة . إن شرلوت حينما كانت تهيىء الترتيبات اللازمة لزواج ابنتها ، كان وقع غياب زوجها أليماً كل الألم فى نفسها ، والآن لم يكن للأب أن يشاهد ميلاد ابنه ، ولم يكن له أن يحدد أى اسم سيختاره له !

وأول الأصدقاء الذين أقبلوا لتقديم التهانى كان متلر الذى كان قد وضع رقباء لإخباره بهذا الحادث من دون تأخير . أقبل وكان موفور السرور . ولم يستطع أن يخفى انتصاره فى حضرة أوتيلى ؛ وعبّر عن نفسه بصوت جَهْوَرى أمام شرلوت ، وكان رجلا قادراً على تبديد كل بلبال ، وإزالة كل عقبة ؛ فلم يكن من الواجب تأجيل التغطيس . والقُسّ الشيخ الذى كانت إحدى قدميه فى القبر سيوحِّد بتبريكه بين الماضى والمستقبل ؛ وسيدعى الطفل باسم أوتّو : فليس له أن يحمل اسماً آخر غير اسم الأب والصديق .

وكان لا بد من حزم هذا الرجل وإصراره كيما يتيسر إزالة آلاف الصعوبات والاعتراضات وألوان التباطؤ والتردد ، والأفكار الأنسب ،

والآراء المتفاوتة ؛ والشكوك ، والأقوال والردود ونقائض الأقوال : إذ العادة فى هذه الأحوال أن إزالة صعوبة يؤذن بميلاد أخرى جديدة ، وأن بعضاً من أنواع اللياقة يخالفه المرء وهو يحاول أن يراعيها كلها .

وكتب متلر بنفسه كل وسائل التعريف بالحادث السعيد . وكان لا بد من إرسالها بدون إبطاء ، لأنه كان هو نفسه يودُّ من أعماق قلبه أن يُبلغ العالم — الراغب فى الإساءة والثَلْم أحياناً — نبأ الحادث السعيد الذى كان يَعُدُّه على جانب كبير من الأهمية بالنسبة إلى الأسرة . والواقع أن العواصف التى أثارتها العواطف حتى ذلك الحين لم يَخْفَ أمرها على الجمهور ، هذا الجمهور الذى يعتقد أن كل ما يحدث إنما يحدث لسبب واحد هو أن يكون لديه شىء يقوله ويذيعه ويتحدث عنه !

وجرى الاحتفال بالتغطيس مهيباً رائعاً ، لكنه كان على هذا قصيراً مقصوراً على الأهل والأصدقاء الذين التأم جمعهم . وكان مقدراً أن يقدّم متلرُ وأوتيلى الطفلَ على أنهما عرّاباه ؛ فتقدم القسُّ الراعى الشيخ مستنداً إلى البوّاب بخُطى بطيئة . ثم انتهت الصلاة ، ووضع الطفل على ذراعى أوتيلى ، ولما انحنت نحوه بلطف وحنان ، انتابها فزع غير قليل وهى تنظر فى عينيه المفتوحتين ، لأنها خُيِّل إليها أنها ترى فيهما عينيها هى . وكان مثل هذا التشابه خليقاً باسترعاء نظر الكُل . ومتلر من ناحيته حينما تلقى الطفل بعدها دُهِشَ كذلك حينما وجد فى قَسَماته مُشابَهةً واضحة بالكابتن ، لم يرَ من قبل لها مثيلا .

بيد أن ضعف القس الشيخ الطيب قد حال بينه وبين أن يضيف فى هذا الاحتفال شيئاً إلى الليتورجية العادية . هنالك تذكر متلر — وقد امتلأ بموضوعه — مهنته القديمة ، وما اعتاده عادةً من التفكير وفقاً لما

يتيح الكلام والتعبير . وفى هذه المرة قلل من إحجامه أنه لم ير حوله إلا جمعاً صغيراً من الأصدقاء . لهذا فإنه عند ختام الحفل قام مقام القس ؛ وفى خطاب حىّ عرض واجباته كعرّاب وما يجيش فى صدره من آمال توقف عندها طويلاً ، معتقداً أن شرلوت مغتبطة بما يقول ، كما يبدو على محياها .

وكان يود الشيخ الطيب أن يجلس ، لكن الخطيب القوىّ لم يتنبه إلى هذا ، كما لم يخطر بباله أنه بسبيل إحداث ضرر أكبر ؛ لأنه بعد أن عبّر بقوة عن صلات كلٍّ من الحاضرين بالطفل ، ووضع تجلد أوتيلى فى محنة قاسية ، اتجه إلى الشيخ ووجه إليه هذه الكلمات : « أما أنت ، أيها الأب الجليل ، فنى استطاعتك بعدُ أن تقول مع سمعان : « ربى ، دع عبدك يذهب فى سلام ، لأن عينىّ أبصرتا منقذ هذا البيت » .

وكان متلر بسبيل ختم خطابه بطريقة براقة ، حينما لاحظ فجأة أن الشيخ — وقد قَدّم إليه الطفلَ — لاح فى البدء أنه يميل عليه ، لكنه سقط فى الحال إلى الخلف . ولم يكد يُنْهَض من كبوته حتى وُضع على كرسى ، وبالرغم من كل الإسعافات السريعة ، مات حقاً .

إن رؤية الميلاد والموت يتواليان ، والمهد واللحد يتجاوران ، ولا ينفصلان ، وإدراك هذه النقائض الرهيبة لا بالفكر فحسب ، بل وبالعين أيضاً — كل هذا كان ذا وقع بالغ فى نفوس الحاضرين ، وزاد من روعته مفاجأتُه . أما أوتيلى فكانت وحدها التى تأملت الشيخ بعين الحسد ، الشيخ الراقد محتفظاً بسيمائه الأنيقة اللطيفة . لقد قُضى على حياة النفس ، فلماذا يبقى البدن ؟ !

وإذا كانت الأحداث الحزينة فى ذلك اليوم قد حملتها على التفكير فى تفاهة الشئون الإنسانية ، وفى الانفصال والخسران ، فقد جاءها العزاء من

جانب رؤى ليلية أكّدت لها وجود حبيبها ، مما زاد فى إنعاش وجودها هى وإشاعة القوة فيه . فقد لاح لهـا وهى راقدة فى فراشها تهـدهدها الأَحْساس العذبة ، بين النوم واليقظة ، أن نظراتها تنفذ إلى مكان أكمل أضاءه نور هادئ رقيق . ورأت فيه إدورد بكل وضوح ، فى ملبس لم تره عليه من قبل ، ملبس الجندى ، وكل مرة فى وِضْعة جديدة ، ومع هذا فهو بطبيعته تماماً ليس فيها أى شىء خيالى ، أحياناً واقفاً وأخرى سائراً ، أوراقداً أو ممتطياً جواداً . وكانت الرؤيا كاملة فى كل تفاصيلها ، تتحرك من تلقاء نفسها أمامها ، دون أن تكون الفتاة فى حاجة إلى أى فعل إرادى ، أو جهد يبذله خيالها . وآونة كانت تراه محوطاً بمختلف الأشكال المتحركة ، ذات اللون الكابى أكثر من الخلفية المنيرة ؛ بيد أنها تبينت بصعوبةٍ خيالات لاحت لها من حين إلى حين على هيئة رسوم لأناس وخيول وأشجار وجبال . ثم نامت وسط هذه الرؤيا ، وحينما استيقظت فى الصباح بعد ليلة هادئة ، سرى إليها الانتعاش وشاع فى نفسها العزاء والسُلْوَان ؛ لقـد أحست باقتناعها أن إدورد لايزال حياً وأنها هى لاتزال وإياه فى أجمل اتحاد .

الفصل التاسع

وافى الربيع أخيراً فاتناً جَذِلاً ، فأبصرَتْ فيه أوتيلى نواياها : الزرع يخضَرُّ فى البستان مزدهراً ، فى أنسب الوقت مغموراً بأزهار ؛ ووفرةٌ من نبات ظل محتبساً ، بمِعْبر محكم التشييد مفروس ، قد صار فى الجو تحت الشمس منتعشاً ؛ وكل ما كان من همٍّ ومن عملٍ ، ما عاد من نَصَبٍ يغرى به أملٌ ، بل صار حقاً متاعاً مونقاً بَهِجاً .

ومع هذا فكان عليها أن تعزى البستانى عن أنواع الاضطراب التى أحدثها لوسيانه فى أزهار الأوانى ، وعن ضياع التماثل فى تيجان كثير من الشجيرات . وقالت له إن هذا كله سيُصلَح من شأنه عما قريب ؛ ولقد كان ذا شعور عميق وفكرة صافية عن مهنته ، بحيث يتأثر بهذه التعازى . وكلما أبعد البستانى عن نفسه ما يصرفه عن ذوقه وميوله ، استمر السير الهادئ الذى يتبعه النبات كيما يصل إلى كماله الثابت العابر . إن النبات يشبه أصحاب الأهواء من بنى الإنسان الذين يمكن المرءَ أن يحصل منهم على كل شىء ، إذا عاملهم وفق ما تقتضيه طبائعُهم . وما من إنسان كالبستانى يُطلب منه السهر بعين هادئة ، والانتباه الساكن المتصل من أجل عمل كل ما يلائم فى كل فصل وفى كل ساعة .

والرجل كان يملك هذه الصفات إلى أعلى درجة ؛ لهذا كان يلذ لأوتيلى أن تشتغل معه . بيد أنه منذ زمان لم يعد بعدُ يستطيع أن يمارس موهبته الخاصة بلذة وشغف . فهو إن كان يفهم جيداً كلَّ ما يتصل بالبستان ذى الثمار والمبقلة ، وكل ما تتطلبه حديقة من الطراز العتيق (لأن هذا الجزء أو ذاك يصلح أكثر من الآخر لهذا دون ذاك) ؛ وإن كان يحسن الإشراف على بستان برتقال والعناية بالأبصال ذات الأزهار ، والقَرَنْفُل وآذان الضبع إلى حد أنه يتيسر له أن يتحدى الطبيعة نفسها — فإن الأزهار العصرية وأشجار الزينة الجديدةَ ظلت غريبةً عنه بعض الشىء ؛ فإن ميدان علم النبات ، وهو يتسع باستمرار ، والأسماء الغريبة التى كانت تطن وترن فى أذنيه كانت تحدث فى نفسه نوعاً من الجزع والخوف . شاع الحزن فى نفسه ولاح له أن ما بدأه سادته فى العام الماضى من أعمال كأنه إنفاق فى غير طائل وإسراف ، خصوصاً وقد رأى أن عدداً كبيراً من النباتات الثمينة لا يزال

ناقصاً ، حتى إنه لم يكن على وفاق كبير مع القائمين على المثابر لأنهم فيما يرى لم يكونوا يخدمونه بإخلاص ظاهر

هنالك ، وبعد محاولات عدة ، وضع تصميما شجعته أوتيلى على الاستمرار فيه ، لأنه أقيم على أساس عودة إدورد ، الذى كان غيابه ، فى هذه المسألة وفى كثير غيرها ، يزداد سوء نتائجه يوماً بعد يوم .

وكلما زادت جذورُ النباتات والأغصانُ ، ازداد شعور أوتيلى بارتباطها بهذا المكان . لقد مضى عام كامل على مجيئها إليه فى هيئةِ أجنبية غريبة ، وشخص لا قيمة له : لكن كم أحرزت منذ تلك اللحظة ! إنها لم تكن يوماً أكبر ثراء ولا أشد فقراً منها فى ذلك اليوم ؛ وتوالت هذه المواطف فى غير انقطاع ، وتجوّلت فى فؤادها ؛ ولم تجد لها دواءً خيراً من الانكباب على واجبات اللحظة الحاضرة بكل شوق وحماسة .

أما أن الأشياء التى تشوق إدورد أكثر من غيرها كانت موضوع عنايتها ، فهذا من الميسور تصوُّره ؛ ولماذا لا تأمل فى عودته عما قريب ، حتى إذا ما حضر استطاع أن يلاحظ ، شاكراً ممتناً ، ما أدته هى من خدمات خالصة نحو الغائب النازح ؟

ثم إنها بذلت نفسها لخدمته بطريقة أخرى كذلك . فقد أخذت على عاتقها العناية بالطفل ، خصوصاً أنه لم يُعطَ ظِئْراً ، كما تقرر تغذيته بلبن مخلوط بشىء من الماء . وشاءوا فى هذا الفصل أن يجعلوه يستنشق الهواء الطلق الصافى ؛ فكان يلذ لها خصوصاً أن تحمله إلى خارج البيت وتتريض به ، وهو نائم لا يأبه لكل ما يحيط به ، وسط النباتات ذوات الأزهار التى سيقدر لها يوماً أن تبتسم لطفولته ، وبين الشجيرات الغضة التى لاح أنها قُدِّر لها أن تنمو وإياه . وحينما كانت تجيل بصرها فيما

حواليها ، كانت تقدر جلال الشأن والغنى اللذين ولد فيهما هذا الطفل : فكل ما تبدى أمام نواظرها لا بد يوماً أن يدخل فى حوزة ابن شرلوت . فكم كان مرغوباً فيه إذاً أن ينمو تحت عينى أبيه وأمّه ، وأن يقوّى اتحادهما وقد تجدد لحسن الحظ !

أحست أوتيلى بكلّ هـذا على نحوٍ من الوضوح جعلها تتصور الأمر كأنه واقع ، ونسيت نفسها تمـاماً . وتحت هذه السماء الجميلة ، وعلى ضوء تلك الشمس الباهرة النور ، لاح لها واضحاً فى الحال أن حبها لابد له ، كيما يبلغ الـكمال ، من أن يتحلل من كل نظرة نفعية ، وفى بعض اللحظات كانت تعتقد أنها بلغت فعلاً تلك الأعالى . إنها لم تـكن تأمل فى غير سعادة صديقها ؛ واعتقدت أنها قادرة على العزوف عنه والزهد فيه ، بل وأن تفارقه إلى الأبد ، لو عرفت أنه سعيد . لـكن عزمها قد انعقد تماماً على ألا تنتسب هى إلى أى فردٍ آخر .

وبذلت العناية اللازمة كيما يكون الخريف رائعاً روعة الربيع . فـكل أزهار الصيف ، وكل تلك التى تنمو بدون توقف إبان الخريف ، وتزكو تماماً عند اقتراب زمان الصقيع ، والأسطير من كل الألوان ، كلها قد بُذِرت بوفرة وغزارة ، ثم نقلت إلى كل موضع ، فمثلت على الأرض كأنها سماء مزينة بأبهى النجوم .

من يوميات أوتيلى

يلذ لنا أن نسجل فى يومياتنا فـكرة جيدة قرأناها ، أو كلمة بارزة سمعناها ، بيد أننا لو عنينا أيضا بتدوين الملاحظات الخاصة ، والنظرات الطريفة والـكلمات الحاذقة التى نجدها متناثرة فى رسائل أصدقائنا ، لوفعلنا

هذا لصرنا أثرياء بعد حين . إننا لنحتفظ أحيانا برسائل لا نقرأها من بعدُ أبدا ؛ ثم نمزّقها أخيراً من باب الاحتياط ؛ وعلى هذا النحو يذهب إلى غير رجعة — بالنسبة إلينا وإلى الآخرين — أجمل صفحة حياتم وألصقها بأعماق النفس . لذا أقترح إصلاح هذا الإهمال .

أهكذا أيضا قدر لنا أن نرى العام يستأنف تاريخه مرة أخرى ! وها نحن أولاء ، بحمد الله ، قد عُدْنا إلى أجمل فصل فيــه . والبنفسج وزنبق الوادى هما بالنسبة إليه كالصورة الأمامية أو التوشية الاستهلالية . وإننا لنشعر بإحساس لذيذ حينما نراها من جديد ، ونحن نفتح كتاب الحياة .

إنّنا لنزجر الفقراء ، خصوصاً الأطفال منهم ، الذين يتجولون ويتسولون على طول الطريق : أفلا نلاحظ أنهم يَعملون ، حالمـا يكون هناك مجال للعمل ؟ لا تكاد الطبيعة تَفـُضُّ كنوزها الجميلة ، حتى يُقبل الأطفال ليجعلوا منها صناعة : فلا يتسول أحدٌ بعد ؛ ويقدم كلٌّ منهم إليك باقة . لقد اقتطفها هو نفسه قبل استيقاظ الآخرين ، ويبسم لك طالبُ الإحسان كما تبسِم الهدية التى يقدمها إليك . لا يتقدم وفى وجهه المسكنة من يشعر بأن له حقاً فى السؤال .

لـماذا يكون العام حيناً قصيراً وآخر طويلا ؟ لماذا يلوح هكذا قصيراً وطويلاً فى الذكرى ؟ هكذا تبدّى لى العام الماضى : ولم أتأثر فى أى مكان قدر ما تأثرت فى البستان من رؤية الفانى والخالد مترابطين . ومع هذا فلا عابر مهما يكن يمر دون أن يترك أثراً ، دون أن يخلف عِدْله ونظيره .

فى الشتاء أيضاً نوع من السحر . إذ يخيل إلينا أننا نفرّج عن نفوسنا

ونمتد بهـا بحرية أكبر ، حينما يمتد نظرنا خلال الأشجار المرآة . إنها قد صارت نوعاً من العدم ، لـكنها أيضاً لا تخفى شيئاً . أما حين تظهر البراعم والأزهار ، فإن المرء لايصبر على رؤية الأوراق تزكو ، والمنظر يتخذ كامل كيانه ، والشجرةُ صورةً تقف دوننا .

كل ما هو كامل فى نوعه يجب أن يتسامى إلى مافوق هـذا النوع ، يجب أن يصير شيئاً مغايراً لاعِدْل له ولامثيل . إن البلبل فى بعض أهازيجه لايزال طائراً ، ثم لا يلبث أن يرتفع فوق صنفه ، ويلوح كأنما يريد أن يُرِى جميع سكان الهواء ما هو الغناء حقاً .

إن الحياة بلا حب ، بالقرب من المحبوب ، ليست إلا مسرحية هزلية متنافرة الفصول رديئة ، يُفتَح الواحد منهـا بعد الآخر ، ويُغلَق ليُنْتقل إلى التالى . فـكل ما يحدث من سعيد وخطير ضعيف الوشيجة موهون الرابطة . ويجب دائماً البدء بالبـداية ، ويود المرء دائماً أن يبلغ النهاية .

الفصل العاشر

اطمأنت بشرلوت الحال وأضحت مسرورة البال ، تجد نعيمها فى الطفل المرير الوسيم الذى كان محياه الملئ بالآمال شغلاً شاغلا لعينيها وفؤادها . فعن طريقه دخلت فى صلات جديدة مع الدنيا ومع امتلاك الثروات ؛ فتنبه نشاطها القديم ؛ وأينما تولت بعينها ، رأت أن الـكثير قد أنجز فى العام الماضى ، فاغتبطت لمـاتم . وكانت تصعد ، متأثرة بشعور خاص ، إلى كوخ الطحلب مع أوتيلى والطفل ، وحينما تضعه على المنضدة الصغيرة ، وكأنها

مذبح منزلى ، كانت ترى أن ثمت مكانين خاليين ؛ فتطوف بها ذكرى الماضى ، وترفُّ أمامها وأمام أوتيلى آمالٌ جديدة .

ولعل الفتيات إذ يلقين عادةً نظرات خفرات إلى هذا الشاب أو ذاك ، متسائلات سرًّا عما إذ كُنَّ يأمُلن فيه كزوج ؛ أما الرجل الذى يعنى بأمر ابنته أو من يلى أمرها فيمتد ببصره إلى آفاق أبعد . وهذا هو أيضاً ما حدث فى تلك اللحظة لشرلوت ، التى لم تر مستحيلا أن تربط بين ابنة أختها والكابتن ، وقد رأتهما جالسين الواحد إلى جوار الآخر فى هذا الكوخ . ولم تكن تجهل أن الأمل فى الظفر بزواجٍ موفَّق قد تبدد وانقضى .

وتابعت شرلوت نزهتها . وكانت أوتيلى تحمل الطفل ، بينما انساقت البارونة وراء أحلامها وتأملاتها . إن للأرض اليابسة أيضاً أنواعاً من الغَرَق خاصة : ومن الجميل المحمود أن ينجو الإنسان بأسرع ما يمكن . وعلى كل حال فليست الحياة إلا سلسلة من المكاسب والخسائر . ومن لم يضع تصميما ولم يره نهباً للاضطراب والفقدان ! وكم مرة لا نتخذ طريقا ثم نُصْرَف عنه ! كم مرة أُرْغِمْنَا إلى بلوغ غاية أسمى ، فشغلنا عن تلك التى تعهدناها بعيوننا ؟ إن المسافر يرى — والأسف يملأ نفسه — إحدى عجلاته قد تحطمت ؛ وعن طريق هذا الحادث السار يتفق له أن يظفر بمعارف وصلات ما أسعدها وما أشد أثرها فى حياته كلها . إن القدر يحقق أمانينا ، لكن على طريقته الخاصة ، كيما يستطع أن يعطينا أشياء فوق أمانينا .

وسط هذه الخواطر وما إليها بلغت شرلوت الأعالى عند البناء الجديد ، هنالك تأيدت هذه الخواطر كلها أبلغ تأييد : فالمنطقة المجاورة كانت أجمل مما يظن ؛ وكل ما كان من شأنه إفساد الأثر ، وكل الأشياء الصغيرة كانت بعيدة ؛ وجمال الريف كله ، وما أحدثته الطبيعة وأجراه الزمان تبدى

فى كل صفائه وأعشى العيون ؛ والمغارس الفنية التى قصد بها إلى إكمال ما تعرى وضم الأجزاء المختلفة علتها الخضرة وتملكتها النَّضرة .

وكان البيت نفسه صالحاً للسكنى ؛ والمنظر الذى يشرف عليه ، خصوصاً من الطوابق العليا ، متعدد الألوان إلى أبعد حد . وكلما اتجه البصر حوله ، اكتشف مفاتن جديدة . وكم من آثار بديعة لا بد أن تحدثها هنا ساعات النهار المختلفة والنور والقمر والشمس ! كل ما فيه يوحى بالرغبة فى سكناه ؛ فاستيقظت فى قلب شرلوت الرغبة فى البناء والإنشاء ، وقد رأت كل الأعمال الرئيسية قد كملت . نجار ، صاحب أبسطة ، رسام يحسن العمل وفقا للنماذج ووضع صبغة خفيفة : هذا كل ما كان مطلوباً ، كيما يكون المنزل مهيئاً فى وقت قليل . وأصلح السرداب والمطبخ تواً : لأن البعد عن القصر القديم يحتم جمع كل الأشياء الضرورية فى المنزل . وجلست السيدتان والطفل على الرابية ؛ ومن هذا المسكن تجلت أمامهما مواضع للنزهات غير منتظرة ، وكأنهما بإزاء قاعدة للنظر جديدة ؛ وفى الجِواء الجميلة يتمتعان فى رفقٍ من هذا الموضع العالى بهواء أكبر إنعاشا ولطفا .

والنزهة المحبوبة عند أوتيلى — وحدها ، أو مع الطفل ، — كانت أن تهبط إلى الدُّلْب بواسطة شِعب مريح يفضى من بعد إلى النقطة التى يرسو عندها أحد زوارق العبور . وكان يلذ لها أحياناً أن تتريض فوق الماء ، لكن بدون الطفل ، لأن شرلوت أبدت بعض المخاوف من هذه الناحية ؛ غير أن أوتيلى لم تتخلف عن زيارة البستانى كلّ يومٍ فى حديقة القصر ، وأن تشارك — بحرص لطيف — فى عنايته بتلاميذه ، هذه النباتات العديدة التى تحيا الآن فى الهواء الطلق .

وخلال هذا الفصل الجميل ظفرت شرلوت بزيارة موفَّقة كل التوفيق

من جانب إنجليزى عرف إدورد إبان رحلاته ، والتقى به عدة مرات ، وتمنى رؤية المآثر الجميلة التى أُشيد بها أمامه كثيراً . وكان يحمل رسالة توصية من الكونت ، وقدّم رجلاً هادئاً كل الهدوء ، لكنه لطيف المعاشرة جداً ، بوصفه رفيقه فى السفر والطريق . وتجوّل فى المنطقة المجاورة ، أحياناً بصحبة السيدتين ، وأخرى مع البستانيين والقناصين ، ومراراً عدة مع صديقه المرافق ، وبعض الأحيان وحيداً ، وكانت له ملاحظات تدل على أنه خبير بهذه الأعمال والمنشئات وما وراءها . وهو نفسه قد أمر بالقيام بكثير من نوعها فى أراضيه . وكان متقدماً فى السن ، ومع هذا فقد كان يشارك مشاركة طيبة فى كل ما يزيد فى جمال الحياة ويُضفى عليها بهجة التشويق .

وفى صحبته نعمت السيدتان أخيراً بكل ما تحتويه المنطقة المجاورة . إذ كانت عينه المتمرنة تدرك كل الآثار ، وكانت لهذه المُبدعات فى عينه لذة أكبر لأنه لم ير الإقليم من قبل ، ولم يكن يعرف كيف يميز بين ما كان من صنع الطبيعة وما أضافوه هم إليها .

ويمكن أن يقال إن لملاحظاته الفضلَ فى توسيع البستان وإغنائه . فقد كان يعرف مقدماً ما عسى أن تَعِدَ به الأغراس الناشئة . ولم ينس أنه بقعة يمكن أن تضاف إليها فتنة جديدة أو تحظى بجمال خاص . فكان يلفت النظر إلى ينبوع ، هنا ، يبشّر حينما يطهَّر بأن يصير زينة لشطر كبير من الغابة ؛ وإلى كهف ، هناك ، لو أزيلت عنه الأنقاض ووُسِّع لكان مقاماً مريحاً فاتناً : ويكفى اقتلاع بضع أشجار لرؤية كتل هائلة من الصخر تتبدى هناك . وهنأ السادةَ على أنه لا يزال أمامهم الكثير ليعملوه ، وأوصاهم بعدم العجلة ، والاحتفاظ بلذة الترتيب والإنشاء للسنوات التالية .

يضاف إلى هذا أنه لم يكن ليشغلهم كثيراً أو قليلاً — فيما عدا الساعات التى تقضى فى الاجتماع سويا ، لأنه شُغِل ، النهار كله تقريبا ، برسم الأوضاع الجميلة للبستان فى غرفة مظلمة تحمل فى اليد ، جامعاً بهذا — لنفسه وللآخرين — ثماراً لرحلاته جميلة . وكانت عنايته بهذه الناحية منذ عدة سنوات فى كل الأماكن الرائعة التى زارها ، وعلى هذا النحو ظفر بمجموعة بالغة الحُسْن والتشويق . وأرى السيدتين حافظة أوراق كبيرة كان يحملها معه دائماً ؛ وأثار شوقهم إما بالرسومات أو بالشرح والتفسيرات . ولذ لهما أن يجتابا العالم هكذا برفق وسهولة وهما قابعتان فى وُحدتهما ، وأن يريا الشواطئ والمرافئ والجبال والبحيرات والأنهار والمدن ، والقصور والكثير غيرها من الأماكن التى تحمل اسماً فى التاريخ وهى تمر أمام نواظرهما .

ولكل من السيدتين فى هذا لذةٌ مختلفة عن لذة الأخرى : فشرلوت كانت تتعلق خصوصاً عما هو عام ، بالأماكن ذات الذكرى والصيت ؛ أما أوتيلى فكانت تفضل البلاد التى أكثر إدورد من الحديث عنها ، أو أقام بها سعيداً ، أو تردد عليها مرارا . فلكل إنسان أقاليم — غريبة أو نائية — تجتذبه وتلائم مزاجه الخاص ، بسبب الأثر الأول الذى كان لها فى نفسه أو بسبب بعض الظروف والملابسات ، أو بحكم العادة وطول الإلف .

وأفضى هذا بأوتيلى إلى سؤال اللورد عن أى الأماكن أحب إليه ، وأيها يود أن يستقر به لو كان له الاختيار . هنالك أشار إلى كثير من الأقاليم الجميلة ، وقصَّ عليها بطريقة رقيقة عذبه ، فى فرنسية غريبة النبرة ، ما جرى له فى كل منها وجعلها حبيبة إلى فؤادها .

لـكنه حينما سُئِل عن المـكان الذى يكثر المـكث به عادة ، والذى يود التردد إليه كثيراً ، أجاب بصراحة كاملة وعلى نحوٍ أثار دهشة السيدتين :

تعودتُ الشعور بأننى فى بيتى فى كل مكان أَحِـلُّ به ؛ وبالجملة يلذ لى أن يبنى الآخرون ويغرسون ويقومون بشئون المنزل من أجلى . ولست مستشعراً رغبة فى العود إلى أملاكى الخاصة ، لأسباب سياسية ، ثم خصوصاً لأن ابنى الذى عملت من أجله كلَّ شئ وهيأت له كل أمره وقدرت أن أورِّثه كل شىء ، لا يجد لذة فى أى شىء من هذا ، وقد ارتحل إلى بلاد الهند ، شأنه شأن كثيرين غيره ، كيما يستخدم مواهبه وحياته على نحوٍ أحسن أو يبددها ويُفْـنيها .

« الحق أننا نقوم بكثير من الاستعدادات للحياة . فبدلاً من أن نرضى بمركز متواضع ، نطمع فى الـكثير كيما نزيد فى متاعبنا . فمن ذا الذى ينعم الآن بمنشئاتى وبستانى وحدائقى ؟ لست أنا الذى أنعم ، وليس أهلى وحدهم : إنهم الضيوف الغرباء والشغوفون بالاستطلاع والرحالة القَـلِقون .

« بل بالرغم من وجود الـكثير من الموارد ، لا نشعر مطلقاً بأننا مرتاحون إلا نصف ارتياح ، خصوصاً فى الريف ، حيث يعوزنا الـكثير مما تعودناه فى المدينة . فالـكتاب الذى نحتاج إليه أكبر احتياج لا نجده فى متناول أيدينا ، وما هو ألزم إلينا ينسى ويُغْـفل . وإنا لنهيأ دائماً للانتقال من جديد ، وإذا لم يكن هذا من أثر إرادتنا وهوانا ، فإنه نتيجة صِلاتنا وعواطفنا ، والأحداث والضرورة ، وليت شعرى أى شىء آخر أيضا ! »

ولم يقدر اللورد ما لحديثه هذا من أثر عميق فى نفوس السيدتين . وكم

من مرة يتعرض المرء لهذا الخطر ، حينما يستسلم لخواطر عامة ، حتى فى جماعة يعرف المرء علائقها ! ولم يكن جديداً على شرلوت أن ترى نفسها قد جُرِحَت هكذا عَرضا ، حتى من جانب أشخاص أصدقاء طيبى النفوس . وفضلاً عن هذا فإن العالم قد انبسط بوضوح أمام عينيها ، فلم تعد تشعر بأى ألم خاص ، حتى لو اضطرها أحدهم — إن طيشاً أو سهواً — إلى التوجه ببصرها تلك الناحية أو هذه مما يؤلمها من الأماكن . أما أوتيلى فكانت على العكس من هذا ، بحكم شبابها الفقير فى التجربة ، تحدِس أكثر مما ترى ، وكان من حقها ، بل من واجبها أن تصرف نظرها عن كل ما لا تريد ومالا يجب عليها أن تراه ، فارتمت بواسطة هذه الاعترافات فى أسوأ حال ؛ إذ تمزق القناع الجميل بعنفٍ أمامها ، ولاح لها أن كل ما تم حتى الآن فيما يتصل بالبيت وملحقاته ، والحديقة والبستان وما حواليها ، كل هذا كان عبثاً لا طائل تحته إطلاقاً ، لأن الشخص الذى ينتسب إليه هذا كله لا يتمتع به ، وكانت حاله كحال الضيف الموجود آنذاك بالقصر (اللورد) إذ اضطر بواسطة أهله وأقاربه ، وأعز أصدقائه ، أن يحيا فى العالم حياة جوّالة شاردة ، مليئة بالأخطار . لقد كان ديدنها أن تُصغِى وتسكت ، أما هذه المرة فقد استشعرت أبشع القلق وأشد الجزع ، مما زاد ضراوةً وعَرامة كلما أوغل الغريب (اللورد) فى أحاديثه ببهجة مستطرفة متحفِّظة .

قال : « أحسبنى الآن فى الطريق السوىّ ، وأرانى رحالة يعزف عن كثير من الأشياء لينعم بأخرى كثيرة . لقد اعتدت التغيير . بل صار حاجة عندى ، ومثل هذا مثل ما يحدث فى الأوبرا حينما ينتظر المرء تزييناً ومناظر جديدة باستمرار ، لا لشىء إلا لأنه ظهر قبلها الكثير . إنى أعرف ماذا على أن أتوقعه من أحسن النزُل ومن أسوئها . وسواء أكان جيداً

أم كريهاً ، فلست أجد عاداتى : وعلى كل حال فالنتيجة واحدة سواء أكان المرء أسير عادة ضرورية أو عبداً للصدفة ذات النزوات والأهواء . وأقل مافى الأمر أننى لا أستشعر الآن الحزن لرؤية هذا أو ذاك مفقودا ، أو رؤية غرفتى المعتادة قد صارت غير قابلة للإقامة فيهـا بسبب الإصلاحات الضرورية ، أو مشاهدة فنجانى المألوف مكسوراً ، إلى حد أنى لا أجد لذة فى غيره . لقد تخلصت من كل هذه المتاعب . فإن بدأ المسكن فى الاحتراق من فوق رأسى ، حزم أتباعى حقائبى بهدوء ، وجلونا عن المنزل والمدينة . وإلى جانب كل هذه المزايا ، فإنى إذا أجدت الحساب رأيتنى فى نهاية العام لم أنفـق أكثر مما لو كنت أفعل فى منزلى الخاص » .

فى هـذه اللوحة التى رسمها اللورد لم تر أوتيلى غير صورة إدورد ماثلة أمامها ؛ تبدى لها وسط المتاعب وألوان الحرمان ، وهو يجتابُ الطرقات التى لم يسلـكها إنسان ، وينام فوق العشب فى الريف المنبسط محوطاً بالأفـكار والآلام ، وخلال هذه الأطوار والأقدار يعتاد العيش بدون مأوى ولا أصدقاء ، والحرمان من كل شىء ، من أجل ألا يفقد شيئا . ولحسن الحظ أن الجمع الصغير قد انفض شمله لحين : فوجدت الحرية لـكى تبكى وحدها على انفراد . وما من ألم مستور أثر فيها بعنف كهذا الذى رأته ، واستزادته إيضاحاً ، بحكم العادة التى تلازمنا وتقضى علينا بأن نزيد فى تعذيب نفوسنا إذا ما سلـكنا ذلك السبيل الرهيب . وتمثلت إدورد فى حال بائسة جديرة بكل رثاء ، حتى إنهـا عقدت عزمها على أن تعمل كل شىء لإعادته إلى شرلوت مهما كلفها هـذا من ثمن ، وأن تخفى ألمها وغرامها فى أعماق كهف ما من الـكهوف ، وأن تخدع هذه العواطف بواسطة حياة مليئة بالأعمال والأشغال .

بيد أن رفيق اللورد ، وهو رجل حكيم متزن جيد الملاحظة ، تنبه إلى غفلة صديقه ، وكشف له عن تشابه الموقفين . وكان اللورد يجهل الأسرة ؛ لكن صديقه الذى لم يكن يشوقه شيء قدر الأحداث الغريبة التى تنشأ عن العلاقات الطبيعية والصناعية ، والنزاع بين القانون والعصيان ، والروح والعقل ، والوجدان والأفكار السابقة المتواضع عملها — هذا الصديق قد استطلع الأمر من قبل ، وأحاط به خبراً بعد وصوله القصر ، فاستبطن كُنه كلّ ما حدث ومالا يزال جاريا .

فاغتم اللورد ، لكنه لم يضطرب ولم يَحَرْ . وإن من الواجب على المرء مِنّا أن يعتصم بالصمت المطلق فى المجتمع أحياناً ، كيلا يجد نفسه مرةً فى هذه الحال ؛ ذلك أن الملاحظات والأفكار التافهة شأنها شأن الملاحظات الهامة يمكن أن تؤدى إلى نشاز وتنافر مع مصلحة الأشخاص الحاضرين .

« سنصلح الأمر هذا المساء ، هكذا قال اللورد ، وسنتجنب المسائل العامة والأقوال الكلية . فارْوِ للجماعة بعضاً من النوادر العديدة والأقاصيص اللطيفة الشائقة ، التى أغنيت بها فى رحلاتك حافظةَ أوراقك وذاكرتك » .

ومع هذا ، وبالرغم من أطيب النوايا ، لم يفلح الضيفان هذه المرة أيضاً فى صرف عقول السيدات بواسطة حديث لا ينطوى على أية مكيدة . فبعد أن أثار رفيقُ السفر الانتباه والعطف إلى أبعد حدٍ بواسطة الأخبار الغريبة والرائعة والمرحة والمؤثرة والرهيبة ، رأى من واجبه أن يختم قصّة بمغامرة غريبة فريدة حقاً ، لكنها ذات طابع أرق وأهدأ ، ولم يقدر إلى أى مدى تمس هذه الرواية سامعيه عن قُرْب .

الجاران الصغيران العجيبان

(أقصوصة)

طفلان من عِلْية القوم : غلام وفتاة ، كانا جارين ؛ وكان تقارب عمرهما يدعو إلى التفكير فى الربط بينهما يوماً ما ، فَتُركا ينموان سوياً فى ظلال هذا الأمل الجميل ؛ ومن كلا الجانبين كان الأهل ناعمين بفكرة هذا الارتباط فى المستقبل . بيد أنه لوحظ عما قليل أن هذا المشروع لا يحمل أى سيماء للنجاح ، لأنه حدث بين هاتين الطبيعتين الممتازتين نفور غريب . ولعل هذا أن يعود إلى وجود تشابه كبير فيما بينهما . وكان كلاهما منطوياً على نفسه ، يعرف جيداً ماذا يريد ، ثابتاً فى نواياه ، مقدّراً معززاً من لدات طفولته ، وكانا يتنازعان دائماً حينما يجتمعان معاً ، كل يبنى نفسه ، ويهدم للآخر ما بناه حينما يتلاقيان ؛ ولم يكونا يتنافسان فى السير نحو غرض ما ، لكنهما كانا دائماً يتنازعان حول الغرض الواحد ؛ وكلاهما طبع على الخير والمعروف لا يحمل لأحد حقداً ولا يضمر له شراً ، اللهم إلا بالنسبة إلى بعضهما البعض .

وهذا الطبع الغريب تبدى أولاً فى ألعابهما الطفولية ؛ ونما بتقدم السنين . ولما كان الأولاد يلعبون دائماً لعبة الحرب ، فينقسمون إلى معسكرات ويديرون المعارك ، فقد قامت الفتاة الصغيرة الشُّجاعة الأَنوف على رأس جيش حارب ضد الآخر بعنف وعناد حتى إن الفريق الآخر كان لا بد له من الفرار مسربلاً بالعار ، لولا أن العدو الخاص بالفتاة الصغيرة قد قاوم بكل شجاعة وبسالة حتى استطاع أخيراً أن يجردها من سلاحها

ويأخذها أسيرة . بيد أنها دافعت عن نفسها بجرأة ورِباطة جأش ، حتى إن الفتى الصغير اضطر — كيما يحفظ عيونها ولا يجرح عدوته — إلى خلع رباط رقبته وربط يديها خلف ظهرها .

لم تغتفر له هذا أبداً ؛ بل دبرت له سِراً أعمالا ومحاولات ومكائد بلغت حداً جعل الأهل — وقد كانوا يلاحظون منذ زمانٍ هذه العواطف الغريبة — يَشْتَوِرون ويقررون الفصل بين هاتين الطبيعتين غير المتوافقتين ، وأن يتخلوا عن أعذب أمانيهم .

وسرعان ما بَرّز الفتى فى موقفه الجديد . فقد وفِّق فى كل دراساته ودعاه حُماته وميوله إلى الانخراط فى سلك الجندية . وأينما وجد ، شُمِل بالحب والتقدير ؛ ولاح أن طبيعته الممتازة ما كانت لتعمل إلا من أجل لذة الآخرين وسعادتهم ؛ ودون ما شعور واضح ، كان سعيداً لأنه تخلص من الخصم الوحيد الذى وجهته الطبيعية ضده .

والفتاة من جانبها قد سلكت فى الحياة سبيلا جديدة . فتقدم السن والتربية — وأكثر من هذا ، عاطفة لا ندرى لها اسماً — كل هذا قد جعلها تتجنب الألعاب العنيفة التى كانت تمارسها حتى ذلك الحين فى جماعة الفتيان . وبالجملة لاح أن شيئاً ما يعوزها ؛ ولم يكن ثمت من حولها ما يستحق أن يستثير كراهيتها ؛ كما لم تجد أيضاً من يليق بغرامها .

ولكن فتى أكبر سناً من الجار — خصمها القديم — ، طيب الأعراق وافر الثراء ممتاز الصفات محبوب من الناس ، مرغوب من النساء — قد كرّس لها كل عواطفه . وكانت هذه أولَ مرة أحاطها فيها صديق عاشق بعواطفه واحترامه . فتملقها هذا التفضيلُ لها على كثير من الفتيات اللائى يفقنها فى التنشئة والمظهر ولهن ادعاءات أعرض . وأثر

فى نفسها ما أبداه نحوها من اهتمام متصل بغير إثقال عليها ، ومن معونة صادقة فى ظروف سيئة مختلفة ، ومساعٍ لدى أهلها ، كانت على صراحتها هادئة لا تعبّر إلا عن آمال ، لأن الفتاة كانت لا تزال فى طراءة سِنّها . ثم ساهمت العادةُ والصلات الصريحة التى أصبح معترفاً بها من الناس فى جعلها تعقد عزمها . لقد كان يطلق عليها مراراً لقب الخطّيبى حتى إنها انتهت بأن تعتقد فى نفسها بأنها خِطّيبى حقاً ؛ ولم تفكر مطلقاً كما لم يفكر أحد فى أنه كان لا بد من امتحان جديد ، حينما تبادلت خاتم الخطبة مع من عُدّ منذ زمان طويل زوجها المقبل .

كذلك لم يُعجّل بالسير الهادئ الذى اتبعته المسألة كلها بواسطة هذه الخطبة . بل أبقى الطرفان الأمور تسير على نفس المنوال ؛ وكانا سعيدين سوياً ، كما رغبا فى التمتع بالفصل الجميل ، بوصفه ربيعاً سيستهل حياةً أكثر جِداً وهموماً .

وفى تلك الأثناء كان الغائب (الجارُ) قد نُشِّئ خير تنشئة ؛ فقد تقدمت به مواهبه فى الفن الذى اختاره ، وأتى فى إجازة لزيارة أهله . فلما صار من جديد فى حضرة جارته الجميلة ، أصبحت معاملاته معها طبيعية جداً ، ومع هذا غريبة . إنها لم تُنَمّ فى نفسها إبان الأيام الأخيرة إلا العواطف الرقيقة ، عواطف البنت والخطّيبى ؛ وكانت على وفاق مع كل ما حولها ؛ واعتقدت أنها سعيدة ، وهى كانت كذلك على نحوٍ ما . لكنها وللمرة الأولى منذ عهد بعيد لقيت مقاومة من جديد . ولم يكن هذا شيئاً يستثير البُغض ، لأنها أصبحت غير قادرة على الكراهية ؛ بل إن تلك الكراهية الطفولية التى لم تكن فى الواقع إلا اعترافا بالفضل غامضاً ، قد تجلت منذ الآن على هيئة دهشة سارة ، وتأمّل عطوف ، وتسامح وُدّى ،

وتقابل وتوفيق نصفه إرادى والآخر غير إرادى ، وهو مع هذا ضرورى . وكل هذا بالتبادل . وأدى الفراق الطويل إلى حديث طويل . وها هما وقد صارا عاقلين يجدان موضوعاً للمزاح فى ذكرى حماقات الطفولة : ولاح أنهما يريدان على الأقل أن يتناسيا تلك العداوة الماكرة بواسطة حسن المعاملة وطيبها ؛ وكأنه قد صار من واجبهما أن يعترفا صراحة بفضل أنكراه من قبل بإصرار وعناد .

ومن جانب الشاب ، بقى كل شيء فى وضع مقبول معقول : فخاله وصلاته وآراؤه الطامحة كانت تشغله إلى حد أنه تلقى دون تأثرٍ شواهدَ الصداقة من جانب الخطيبي الجميلة ، كأنها تسلية لذيذة كان عليه أن يتأثر لها دون عود على نفسه ودون أن يحسد الخطّيب على خطّيباه ، وقد كان وهذا الخطّيبَ على أتم وفاق .

أما لديها ، فقد جرت الأمور على نحو آخر . لقد اعتقدت أنها تستيقظ من حُلْم . ولقد كان صراعها مع جارها الفتى وجدانَها الأول ، ولم يكن هذا الصراع العنيف فى جوهره — على هيئة مقاومةٍ — إلا ميلا إليه عنيفاً يمكن أن يقال إنه فطرى مغروز فى طبعها . ولم تقل لها ذكرياتها شيئاً آخر إلا أنها كانت تحبه دائماً . وتبسمت لتلك التحديات التى كانت توجهها إليه وسلاحها فى يدها ؛ وزعمت أنها تذكر أنها استشعرت أجمل عاطفة حينما جرّدها من سلاحها ؛ وخُيِّل إليها أنها أحست بأكبر متعة حينما قيدها بالوثاق ، وكل ما فعله لإغضابها وإيذائها لم يَبْدُ لها إلا كوسيلة بريئة لجذب اهتمامها إليه . ولعنت تلك القطيعة التى وقعت بينهما ؛ وناحت شاكية من الرقاد الذى تردّت فيه ؛ وأبغضت العادة الرخيّة الخداعة التى استطاعت أن تفرض عليها خطيباً عارياً من الفضل والناقب . أجل ، لقد

وجدت نفسها قد تغيّرت ، تغيُّراً مضاعفاً ، قد عادت إلى حالها القديم ، أو صارت خَلْقاً آخر ، على أى نحوٍ شاء المرء أن يسمى ما حدث لها . ولو استطاع إنسان أن يكشف عن عواطفها ، التى أبقت عليها مستورة تماماً ، واشتور معها بشأنها ، لما لامها وعَرَّض لها بالنكير : لأنه لو رأى الشابين الواحد بجوار الآخر لأدرك أن الخطيب ليس من أكفاء الجار ولا يُدْرِك للجار شأوْا . فإن كان المرء يستطيع إلى حدٍ ما أن يثق بالواحد (الخطيب) بعض الثقة ، فإن الآخر (الجار) يوحى إليه بكامل الثقة والاسترسال ؛ وإذا كانت صحبة أحدهما مقبولة ، فالآخر يأمُل الإنسان فى صداقته وملازمته ؛ وإذا أفْكَر المرء فى تعاطف من طرازٍ أعلى وعواطف خارقة ، فإن أحدهما لعله أن يثير بعض الشكوك ، أما الآخر فالمرء يسلم إليه كل زمام نفسه . وإن للنساء لإحساساً مرهفاً طيباً بهذه الأمور ، ولديهن الفرص لممارستها .

ولما كانت الخطيبى الجميلة تغذى هذه العواطف فى أعماق سرّها ، ولم يكن أحد يجد مجالا ليصوِّر لها ما يمكن أن يقال فى صالح الخطيب وما يبدو أن القواعد الموضوعة والواجب يشير به ويحتِّمه ، وما يلوح أن الضرورة اللازمة تصرِّح بأنه لا مفر منه — لما كانت الحال على هذا النحو ، فإن ذلك القلب النبيل كان يزداد مناغاة لأهوائه ومشاعره . ثم لما كانت هى قد ارتبطت بروابط لا تنفصم من جانب الناس والأسرة والخطِّيب وموافقتها هى الخاصة ، بينما الشاب من ناحية أخرى ، وقد حلَّق وتجل ، لم يكتم عواطفه وآراءه ونواياه ؛ وتبدى للفتاة فى مظهر الأخ ، الأكثر إخلاصاً منه ورقة وحناناً ، وجرى الحديث حول رحيله الوشيك — فإن الروح التى شاعت فى الفتاة إبان طفولتها لاح أنها تستيقظ ، بكل حيلها ومكائدها وعنفها ، وتتأهب لكى تحدث ، فى دائرة أعلى شأناً ، آثاراً أشد خطراً

وأبلغ إيذاء . فقرّ عزمها على الموت ، كيما تعاقب بعدم اكتراثها ذلك الذى أبغضته من قبل ، وهى اليوم تحبُّـه بكل جوارحها . إنها لا تستطيع الظفر به ، ولهذا أرادت على الأقل أن تشغل خياله و نَدَمَـه أبداً . إذ لن يكون فى وسعه أبداً أن يتخلص من شبحها الرهيب ؛ وسينثنى على نفسه بأشنع اللام والتثريب الأبدى لأنه لم يعترف بعواطفها ولم يراعهـا ولم يَقدُرْها حق قدرها .

وطاردها هذا الهذيانُ الغريب فى كل مكان ؛ فـكانت تخفيه تحت صور لا نهاية لها ؛ وعلى الرغم من أن الناس قد استرعتهم غرابتُـها ، فإنه لم يكن ثمت أحد له من الانتباه والحصافة ما يسمح له باكتشاف العلة الحقيقية .

بيد أن الأصدقاء والأهل والمعارف استنفدوا كل ما فى وسعهم لإقامة حفلات من كل نوع ، فلا يكاد يمرّ يوم دون تنظيم مفاجأة جديدة ؛ ولم يكن ثمت مكان جميل فى الإقليم لم يُزَيَّن ويُهَيأ لاستقبال حفل من الأصدقاء الجُذْلان . وأراد ضابطنا الشاب أن يقيم حفلة قبل رحيله ، فدعا الخطيبين مع عدد صغير من الأهل والأقارب إلى نزهة فوق المـاء ، فركبوا زورقاً كبيراً جميلاً رائع الزينة ، من هذه اليختات ذوات البهو الصغير المحوط بالغُرَف والتى تهيئ للراكبين على الماء مسرات البرّ .

ومضى الزورق فى النهر على صوت الأغانى ، والمثانى ؛ وخلال القيظ كان الجمع فى البهو يُسلّى بالملاهى ، وبألاعيب حظوظ وذكاء . ولم يحتمل الداعى أن يظل متعطلاً فجلس ممسكاً مِقْبَض الدّفة ليحل محل المَلّاح العجوز الراقد إلى جواره ؛ وسرعان ما كان فى حاجة إلى استجماع كل فطنته ، لأنه اقترب من مكان تضيّق فيه جزيرتان مجرى النهر بما لهما من شطئان واطئة كثيرة الحصباء تتقدم فى النهر ، مما يجعل المرور خَطِرا . فلمـا

قَلِقَ الملاحُ بعينه الساهرة كان بسبيل إيقاظ الرُّبّان ، لكنه تجاسر وقاد الزورق فى الممرّ الضيق . فى تلك اللحظة ظهرت عدوته الجميلة فوق سَطح الزورق مزّينةً بتاج من الأزهار ، خلعته وألقت به إلى الملاح الشاب (الجار) ، وصاحت :

« خذه تذكاراً » !

— لا تشوّشى علىّ عملى ، هكذا قال لها وهو يأخذ التاج ؛ إننى فى حاجة إلى كل قواى وحشد كل انتباهى .

— لن أشوّش عليك بعدُ ، هكذا أجابته ، فلن ترانى عوضُ » .

وما تفوهت بهذه الكلمات حتى هُرِعَت إلى جؤجؤ الزورق ، ومن فوقه قذفت بنفسها فى الأمواج . فارتفعت بعض الأصوات بالصراخ :

« أنقذوها ! أنقذوها ! إنها تَغْرَق » .

فكان فى أبشع حيرة . واستيقظ الملاح العجوز على هذه الجلبة ؛ وأراد أن يمسك بالدفة ، وأراد الشاب أن يُسلِمَها إليه ، لكن لم يكن لديهما وقت لهذا التبادل : فغرق الزورق ، وفى الحال خلع الضابط ملابسه المضايقة وألقى بنفسه فى النهر .

الماء عنصرٌ مؤاتٍ لمن يَعرفه ويعلم كيف يسوسه . لقد حمل السّباح الماهر الذى عرف كيف يُخْضعه ، وسرعان ما بلغ الجميلة المحمولة أمامه ، وأمسك بها ، واستطاع أن ينتشلها ويحملها . وفى البدء جرفهما التيار سوياً بعنفٍ ، وأخيراً تركا الجزر والرمال بعيدة من خلفهما ؛ وبدأ النهر فى مجراه الواسع يسير برفق وهدوء . هنالك استعاد الضابط الشاب ثقَته وأفاق من اضطرابه الأول الذى كان فيه يعمل من غير تفكير ، بطريقة آلية خالصة . رفع رأسه ، ونظر حواليه وسبحَ بكل قواه نحوِ ساحل مستوٍ ظليل يفنى

برقة فى النهر ويبدو سهل المدخل . وإلى هناك حمل غنيمته الثمينة إلى البر . لكن الفتاة لم تبدُ عليها أية علامة على الحياة . وكان قد استولى عليه القنوط حينما أبصر طريقاً يسير خلال الشجيرات . فاستأنف حَمْلَ حِمْلِه العزيز ؛ وتبين بعد قليل مسكنا وحيداً ، فهُرِع إليه . هناك كان يقطن أناس طيِّبون ، كانوا زوجاً وزوجة . وسرعان ما تبين الشقاء والمحنة أمامهما . وما طلبه ، بعد تفكير قليل ، أجيب إليه . فأشعلت نار واضحة ؛ ومُدّت أغطية من الصوف فوق الفراش ؛ وأحضرت سريعاً قطع من الجلد والفراء وكل ما يعطى حرارة ؛ لقد تغلبت الرغبة فى إنقاذ الفتاة على كل اعتبار آخر . ولم يترك شيء لم يعمل من أجل إعادة الحياة إلى هذه الأعضاء الجميلة التى كادت أن تتجمّد . وأفلحوا فى هذا . ففتحت عينيها ؛ ورأت صديقها ، وأحاطته بذراعيها الفاتنتين ، وظلت على تلك الحال طويلا . وسال فيض من العبرات أَتَمَّ شفاءها .

« أتريد تركى ، هكذا صاحت ، الآنَ وقد وجدتك ؟

— أبداً ، أبداً ، هكذا صاح دون أن يدرى ماذا يقول وماذا يفعل . لكن خَفِّفى عن نفسك ، خففى عنها من أجلنا سويا » .

هنالك استعادت نفسها وأدركت حالها . ولم يكن فى وسعها أن تشمر بأى اضطراب أمام عينى عاشقها ومنجّيها ، بيد أنها عُنِيت بإبعاده ، كيما يفرُغ للعناية بنفسه : لأن ثيابه كانت تنضح بالماء .

واشتور الزوجان : فقدم الزوج إلى الشاب ، والزوجة إلى الفتاة ثياب العرس التى كانت معلّقة كلها ، وقد كانت كافية لإلباس زوجين من أعلى الرأس حتى القدم . وفى قليل من اللحظات كان الفريقان لا مَكْسِيَّين فحسب ، بل ومزَّينَين أيضا . أجل لقد تسربلا بالفتنة والجمال ، ونظر كل

إلى الآخر فى اندهاش حينما ثاب كلاهما إلى كامل رشده ، ثم ارتمى فى أحضان الآخر بحماسة وحرارة ، دون أن يكتما ضحكهما من هذا اللباس الذى يرتديانه . لقد شَغَفَتهما قوة الشباب وعَرامة الحب فى لحظات ؛ ولو كانت لديهما موسيقى ، لَرَقصا .

من الماء إلى الأرض ، ومن الموت إلى الحياة ، ومن أحضان الأسرة إلى صحراء ، ومن اليأس إلى أعلى وَجْد ، ومن عدم الاكتراث إلى الحب والوجدان ، أى انتقال سريع مفاجئ ! . . . وأية رأس تكفى لهذا دون أن تتحطم أو تضطرب ! إنه من شأن القلب وحده أن يجعل مثل هذه المفاجأة مقبولة محتملة .

ولما فى كل منهما فى الآخر لم يستطيعا التفكير — إلا بعد مدة طويلة — فى قلق وجزع هؤلاء الذين خلفاهم وراءهما ، ولم يقدرا أيضاً على التفكير — دون قلق ولا بلبال — فى الطريقة التى سيظهران عليها أمامهم .

« أيجب علينا الفرار ، أم يخلق بنا الاختفاء ؟ هكذا قال الشاب .

— « سنبق معاً » ، هكذا قالت وهى ترتمى ممسكة بجيده .

والفلاح الذى علم منهما بأمر الزورق الغارق هُرِع إلى الماء دون أن يطلب مزيداً من سؤال . ونزل المركب وجرى باسم الله ، وكان من العسير تخليصه . وتقدم القوم على غير هدى ، أَمَلا فى افتقاد الشابين المفقودين (الشاب والفتاة) . وحينما استطاع ضيفهم أن يَلْفِت اهتمامهم بصيحاته هُرِع إلى مكان سهل المدخل ، ولما كان لم يتوقف عن النداء والإشارة ، وإشاراته ، فقد اتجه الزورق ناحية الشاطئ . أى منظر كان حينما رَسَوْا ! اندفع أهل الزوجين المُقْبلين أول من اندفع إلى الشاطئ .

وكاد الخطيب العاشق أن يفقد وعيه . ولم يكد القوم يعلمون أن

الولدين العزيزين قد نَجَـوَا حتى خرجا من الحميلة فى ثيابهم الغريبة . ولم يمكن تبيُّنهما إلا حينما اقتربا كل القرب . « من نرى ؟ » ، هكذا صاحت الأمهات . « ماذا نرى » ، هكذا صاح الآباء . وارتمى الشاب والفتاة الناجيان من الموج تحت أقدامهم .

« أنتم ترون ولديكما ! هكذا صاحا ؛ أنتم ترون زوجين !

— غفراناً ! غفراناً ! هكذا صاحت الفتاة .

— امنحونا بركتكم ، هكذا قال الشاب .

— امنحونا بركتكم ، هكذا قالا معاً ، بينما بقى الجمع صامتاً من الدهشة والذهول .

— بركتكم ! » هكذا صاحاً للمرة الثالثة .

ومن كان فى وسعه أن يرفضها لهم ؟

الفصل الحادى عشر

وتوقف الراوى ، أو بالأحرى أتمَّ قصّه ، حينما أدرك أن شرلوت قد غلبها التأثر الشديد . فنهضت وخرجت ، معتذرةً بتحية صامتة . ذلك أن القصة كانت معروفةً لها . لقد كانت قصة الكابتن وجارةٍ له . ولم يكن الحادث قد جرى تماماً على النحو الذى رواه عليه الإنجليزى ، لكنه كان صحيحاً فى مجموعه : وكل ما حدث من تغيير هو أنه رُتِّب وزُين فى تفاصيله كما يحدث لهذه الأقاصيص حينما تنتقل من فم إلى فم ، ثم فى خيال القاصّ ذى الذوق والروح . فيبقى كل شىء ولا يبقى شىء .

وتبعت أوتيلى شرلوتَ ، وكان هذا دورَ اللورد هذه المرة لكى ينبّه

إلى ارتكاب حماقة من جديد ، برواية حادث معروف للأسرة ، بل ويعنيها .

«لنأخُذْ حِذْرنا — هكذا تابع حديثه — خوفاً من إحداث شر أكبر . ففى مقابل كل المزايا والملذات التى ننعم بها هنا ، يلوح لى أننا نُهيىء القليل من السرور لسيدات القصر . فلنسع لوداعهم بطريقة مناسبة .

فأجاب الرفيق : يجب أن أعترف بأن لدى سبباً خاصاً للتوقف هنا ، وأننى سأكون مُغضَباً إذا فارقت هذا البيت دون أن أتبين جلية الأمر وأتوضَّحها . بالأمس ، ياسيدى اللورد ، حينما تجولنا فى البستان ومعنا الغرفة المظلمة ، كنت مشغولاً بالحصول على وجهة نظر فاتنة ، للاحظة ما يجرى إلى جوارك . لقد ابتعدت عن المَخزَن الكبير ، كما تقترب من البحيرة عند مكان قليل المزار ، منه أبدى لك الشاطىء الآخرُ منظراً بديعا . وترددت أوتيلى — وكانت تتبعنا — فى اقتفائنا ، وطلبت أن تذهب إليه فى زورق . فأبحرتُ معها ، وأُعجبت بمهارةِ المَلَّاحة الجميلة . وأكَّدْتُ لها أنه منذ مقامى بسويسرة ، حيث تقوم أجمل الفتيات بمهمة المُعَدِّيات ، لم أُهَدْهَد فى حياتى على الموج بمثل هذه اللذة ؛ لكنى لم أستطع أن أقاوم رغبتى فى سؤالها عن السبب فى تفاديها اجتياز هذا المُنعطَف ؛ إذ كان فى رفضها نوع من الاضطراب وشىء من الجزع . فأجابت بلطف : «إذا لم تُرِد أن تضحك مِنى ، فإن فى وسعى أن أسوق لك بعض التفسير ، على الرغم من أن فى الأمر سِراً بالنسبة إلىّ أنا نفسى . لم أَمْرُرْ بهذا المنعطف يوماً إلا واستولت علىّ قشعريرة غريبة ، لا أستشعرها فى أى مكان آخر ولا أستطيع لها فهماً ولا تفسيرا : لهذا أفضل ألاّ أُعرّض نفسى لمثل هذا التأثير ؛ خصوصاً أنى أحس بعدها فى الجانب الأيسر من الرأس بألم ينتابنى أحيانا» . وبلغنا شاطىء البحيرة ،

وتحدثت أوتيلي إليك ، وفي تلك الأثناء زرتُ المكان الذي أشارت إليه بوضوحٍ من بعيد . وكم كانت دهشتي حينما اكتشفت في هذا المكان علامات واضحة على وجود فحم الأرض ، مما اقنعني بأنه بشيء قليل من الحفر يمكن العثور – على مدى من العمق ضئيل — على منجم وفير !

« اعذرني ، سيدي اللورد ، إني لأراك تبتسم ، وإني لأعلم جيداً إنك تشاهد بروح العاقل الصديق وبتسامح ظاهر حبَّ استطلاعي الحاد لهذه الأشياء التي لا تؤمن أنت بها أي إيمان ؛ لكن يستحيل عليّ مغادرة هذا المكان ، دون أن أجرّب على هذه الفتاة الجميلة ذبذبات الخَطّار (البندول) » .

ولم يكد الحديث يتناول هذا الموضوع ، إلا وقد وَجّه اللورد اعتراضاته التي كان رفيقه يستمع إليها بصبر وتواضع ، مع إصراره مع هذا على رأيه ورغباته . وقال بدوره إنه لا يخلق بالمرء أن ييأس بسبب عدم نجاح هذه المحاولات عند كل إنسان ؛ وإن هذا على العكس سبب لدراسة الأمر بطريقة أعمق وأكبر جِدّاً : لأنه من المقطوع به أن كثيراً من النسب والروابط بين الكائنات اللاعضوية بعضها وبعض ، وبينها وبين الكائنات العضوية ، وبين هذه وبين نفسها أيضا ستُكْتَشف بعد أن ظلت مستورة عنا حتى الآن .

وها هو ذا قد بسط جهازه المكون من حلقات من الذهب ومن المرقشيتا وغيرها من المواد المعدنية التي كان يحملها معه دائماً في صندوق لطيف ؛ ولإجراء التجربة ربط قطعاً من المعدن معلقةً بخيوط فوق معادن وضعت وضعاً أفقيا .

وقال : « أتغاضى لك يا سيدي اللورد عن السرور الماكر الذي أقرأه

مرتسما على وجهك بسبب عـدم ظهور أية حركة لدى ومن أجل نفسى . ولهذا فليست عمليتى هذه إلا نوعاً من الذريعة : وحينما تعود السيدتان ، سيشتاقان لمعرفة ما تحضره هناك من غرائب » .

وعادت السيدتان . وفهمت شرلوت من أول وهلة حقيقة الأمر . وقالت : « لقد سمعت عن هذه الأشياء ، دون أن أرى بعينى أى أثر ينتج . فما دمتَ قد أعددتَ كل شئ أحسن إعداد ، فدعنى أحاول لعلى أنجح فى هـذا » .

وأمسكت الخيط بيدها ، ولما كانت قد أخلصت نيتها فى التنفيذ فقد أمسكته بثبات دون أدنى انفعال : لـكن لم يُشاهَـد أقل تذبذب . فدُعيت أوتيلى من بعد إلى القيام بمحاولة . فأمسكت الخَـطّار بهدوء أكبر ، وبساطة وبراءة أظهر ، فوق المعادن : وفى الحال ، جُـرِف الخَـطّار وكأنه فى دوامة ، وتبعاً لتغيير المعادن الموضوعة أسفله ، كان يدور حيناً من هذه الجهة ، وأخرى من الجهة الثانية ، وآناً على هيئة دائرة أو قَطع ناقص ، أو كان يتذبذب على شكل خط مستقيم ، كما توقع الغريب (الرفيق) ، بل وأبعد مما كان يتوقع ويخال .

ودُهِـش اللورد نفسُـه ؛ ولم يجد ما يعبر به عن سروره وحماسته لصديقه ، وتوسل إلى أوتيلى باستمرار أن تُعيد التجارب وتُـنَـوِّعها . فأراغت هذا منه أوتيلى باللّـين ، لـكنها فى النهاية رجته برفق أن يعفيها ، لأن مَـغْـصَها انتابها . فأكد لها ، وقد أدهشه الأمر بل وسَـحَره ، أكد لها بكل حماسة أنه سيشفيها تماماً من هذه العِـلّة ، إذا رغبت فى الوثوق فى علاجه . فترددت لحظةً ؛ بيد أن شرلوت التى حدست فى الحال حقيقةَ الأمر ، رفضت هذا العرض المُـحْـسِن ، لأنها لم تشأ أن تحتمل فى محيطها

شيئاً أثار فى نفسها دائماً المخاوف والبلبال .

وارتحل الغريبان ؛ وعلى الرغم من الأثر الغريب الذى تركاه ، فقد خلفا وراءهما ألواناً من الأسف والرغبة فى رؤيتهما مرة أخرى . وأفادت شرلوت من جمال الأيام والجو لإتمام زياراتها فى الجيرة . وشق عليها إتمامها ، لأن الأقليم المحيط قد شهد لها بكثير من العطف والمحبة حتى ذلك الحين ، إما عن عاطفة صادقة ، أو متابعة للعادة الجارية . وفى القصر كان الغرباء يميدون طرباً وانتشاءً حينما يرون الطفل ، وقد كان بالفعل خليقاً بأرق الحب وأجمل العناية . لقد كان الناس يرون فيه ولداً خليقاً بالإعجاب ، يرونه معجزة خارقة ؛ وكانوا يتأمون مسحورين قوامه وجمال تناسبه وقوته وصحته ، ومما زاد فى إدهاشه تشابهه المزدوج الذى كان يتجلى يوماً بعد يوم . ففيما يتصل بقسمات الوجه ومجموع الشكل ، كان الطفل دائماً أقرب إلى صورة الكابتن ؛ بينما كانت عيونه تقل تمايزاً من عيون أوتيلى يوماً بعد يوم .

وقاد أوتيلى هذا التشابه الفريد ، وأكثر منه هذه الغريزة النبيلة التى توحى للنسوة بعاطفة رقيقة نحو ابن الرجل العزيز ، حتى لو كان هذا الولد ابنا لامرأة أخرى ، قادها هذا كله إلى أن تصبح بالنسبة إلى الوليد الناشئ أمًّا ، أو بالأحرى نوعاً من الأم . فإذا ابتعدت شرلوت ، كانت ابنة أختها وحدها مع الطفل والظئر . ونانِتّ ، وقد غارت على المخلوق الصغير الذى لاح أن سيدتها كرست له كل عطفها وحنانها ، قد ابتعدت عنه محنقةً ، ومنذ زمان طويل عادت إلى أسرتها . فاستمرت أوتيلى تحمل الطفل إلى الهواء الطلق ، واعتادت أن تقوم وإياه بنزهات تزداد كلّ يوم طولا . وكانت تحمل معها زجاجة اللبن الصغيرة لتعطيه غذاءه عند الضرورة .

وما كانت تنسى إلا نادراً أن تأخذ معها كتاباً ، فكان منظرها وهى تقرأ وتتريض ، والطفل على ذراعها ، منظر « المُفَـكِرة » الجميلة[١] .

الفصل الثانى عشر

تحقق الغرض الرئيسى من الحملة ؛ فأخذ إدورد إجازة ، وقد كُلل بأوسمة الشرف . فغدا فى التوّ إلى الضيعة الصغيرة حيث وجد أخبارا دقيقة عن أهله أمر باستطلاعها دون أن يعلموا . ولاح له ممتكفُه الهادئ هذا فى أبهج مظهر ، لأنه أُجْرِيت فى غيابه ووفقاً لأوامره عدة ترتيبات جديدة وإصلاحات وأعمال ، إلى حد أن الأغراس والملحقات قد أعاضت بالزخارف الداخلية ويُسر المُتَع عما كان يعوز من سمة وأُبّهة .

وإدورد ، بعد أن عَوّدته المسالك المندفعة التى يسلكها الجندى على الأعمال الحاسمة ، اقترح أن ينفذ الآن ما أفكر فيه طويلا من قبل . فبدأ بأن دعا الماجور إلى جواره . فكانت فرحة لقاء ما بعدها فرحة . فإن لصداقات الطفولة كما للقرابة هذه المزية وهى أن ألوان النزاع وسوء التفاهم لا يمكن مطلقاً أن تغير فيها تغييراً عميقاً ، وأن العلاقات القديمة تستأنف سيرها بعد قليل من الزمان .

أحسن البارون استقبال صديقه وسأله عن تفاصيل مركزه الجديد ، وعرف منه أن الحظ قد حقق كل أمانيه . ثم سأله ، فى شىء من الود لا يخلو من المزاح ، عما إذا لم يكن على وشك الارتباط بزواج سعيد . فأكد له الماجور انتفاء هذا بلهجة شاع فيها الجِد .

---

(١) لوحة مشهورة .

فتابع إدورد حديثه قائلا : «ليس فى وسعى وما أريد أن أخفى شيئاً ، بل علىّ أن أكشف لك بلا أدنى تأخير عن مشاعرى ومشروعاتى . إنك لتعرف وجدانى الملتهب نحو أوتيلى ، وفهمتَ منذ زمان طويل أنه هو الذى دفعنى إلى القيام بهذه الحملة . فما أنا بمنكر أنى أردت بهذا أن أتخلص من حياة لم تكن لها بدونها أيةُ قيمة فى نظرى ؛ لكن يجب علىّ أن أعترف لك فى الآن نفسه أننى لم أقو على الإقرار باليأس نهائياً . فإن السعادة معها كانت من الجمال والتشويق بحيث استحال علىّ أن أزهد فيها زهداً كاملا . وثبّت يقينى وإيمانى الجذّاب ، بإمكان ظفرى بأوتيلى ، كثيرٌ من المناسم والرواسم ، والمخايل والدلائل . فقد قذف بزجاجة ، نقش عليها رقمانا ، فى الهواء ، حينما وضعنا الحجر الأساسى ، فلم تنكسر ؛ وتلقاها أحدهم ، وعادت إلى يدى . فصِحْتُ فى هذا المكان المنعزل الذى أمضيتُ فيه الساعات الطوال فريسة للشك والقلق : « أريد أن أتخذ من نفسى علامة ، بدل الزجاجة ، كيما أعرف ما إذا كان ارتباطنا ممكناً أو غير ممكن . فارتحلت ، وسعيت إلى إلى الموت ، لا كمجنون ولكن كإنسان يُرَجّى أن يعيش . وستكون الغايةَ التى أحارب من أجلها ؛ فهى التى آمل فى كسبها والظفر بها وغزوها من خلف كل كتيبة معادية ، ووراء كل استحكام وسور ، وفى كل مكان مُحاصَر . وسأعمل المعجزات ، مع الرغبة فى أن أظل سليما معافى ، آملا فى الظفر بأوتيلى ، لا فى فقدانها » . وجهتنى تلك العواطف ؛ وآزرتنى خلال كل المخاطر ؛ لكنى مع هذا أجد نفسى الآن فى مركز رجل بلغ هدفه وتغلب على كل العقبات ، ولم يبق شىء يعترضُ بعدُ طريقَه . إن أوتيلى هى لى ، والفترة التى تفصل بين هذه الفكرة وبين تنفيذها أستطيع أن أعُدّها لا أهمية لها .

فأجاب الكابتن : إنك تمحو بقليل من الخطوط كلّ الاعتراضات التي يمكن بل يجب أن توجه إليك ، ومع هذا فلا مناص من تكرارها . إنى أدعك لنفسك تتذكر كل قيمة الروابط التي تجمع بينك وبين زوجك ، وإنك لتدين لها ، كما تدين لنفسك أيضاً ، بألا تخدع نفسك عن واجبك في هذا الشأن . وكيف أقدر على التفكير في أنك وُهِبْتَ طفلا ، دون أن أصرّح لك في الوقت نفسه بأنكما تنتسبان لبعضكما بعضاً إلى الأبد ، وأنكما ، حباً في هذا الوليد ، مضطران إلى العيش سوياً ، كيما تعملا معاً في وفاق على تنشئته وإعداد مستقبله ؟

فاستأنف إدورد الحديث قائلا : هذا من مجرد غرور الأهل : ظنهم أن وجودهم ضرورى كل هذه الضرورة لأولادهم . إن كلّ ما يحيا يجد العون والغذاء ؛ وإذا كان الابن ، بعد وفاة أبيه وفاةً مبكرة ، يقضى شبابا أقل سهولة ومتعة ، فإن هذا قد يفيده في ممارسة أساليب الحياة والاستعداد لها ، عالماً من أول الأمر أنه يجب أن يتعلم كيف يعامل الآخرين ، وهو الشئ الذى يجب أن يتعلمه إن عاجلا أو آجلا . وفضلا عن هذا فتلك ليست المسألة : إذ نحن من الغنى بحيث يتيسر لنا تهيئة مستقبل عدة أبناء . وليس من الواجب ولا من الإحسان أن نكدّس كل هذه الأموال على رأس واحدة » .

ولما كان الماجور بسبيل أن يصور لصديقه ، بكلمات قصار ، مناقب شرلوت وصلتهما المخلصة الطويلة الأمد ، قاطعه إدورد صائحاً :

« لقد ارتكبنا حماقة ، هذا هو ما أتبينه جيداً . إن من يُرِد ، في سن ما ، أن يحقق رغبات شبابه الأول وآماله ، يخطىء دائماً . ففي حياة الإنسان يوجد لكل فترة مكونة من عشر سنوات سعادتها الخاصة بها ،

وأمانيها ونواياها الخاصة وبُهْراً لمن ألزمته الظروف أو الأوهام أن يستبق أو يستأخر ! لقد ارتكبنا حماقة : فهل يجب أن يظل هذا الإثم رابضاً على حياتنا كلها ؟ أفيلزمنا ، بدافع وَسْواس لست أدريه ، أن نُحَرِّم على أنفسنا ما لا تحرمه أخلاق العصر علينا ؟ كم من المسائل يرجع فيها الإنسان عن كل ما اقترفه ومافعله ؟ وهلا يكون هذا مسموحاً به ، خصوصاً حينما يتعلق الأمر بالكُلّ ، لا بالتفاصيل ، حينما يتصل لا بهذه أو تلك من أحوال الوجود ، وإنما بالوجود كله وبأكمله ؟ »

ولم يتوان الماچور عن أن يصور لصديقه ، بكل براعة وقوة معاً ، مختلف الاعتبارات الخاصة بزوجه ، وبالأسرتين ، وبالناس ، وبثروته ؛ لكنه لم يفلح في إحداث أي تأثير عليه .

« أي صديق ، هكذا استأنف إدورد حديثه ، كل هذه الخواطر والاعتبارات قد تمثلت لعقلي في غبار المعركة ، حينما كان إرعاد المِدْفعية يزلزل الأرض باستمرار ، والقذائف تدوّى بين أذني ، وإخواني في السلاح يتهادون مجندلين عن يمين وشمال ، وحينما قتل جوادي من تحتي واخترقت الرصاصة قلنسوتي ؛ أجل ، لقد شغلتني هذه الأفكار في الصمت بالقرب من نيران المعسكر ، وتحت قبة السماء المرصّعة بالنجوم . هنالك استعرضت كل تعهداتي والتزاماتي ؛ وتأملتها وأحسست بها أعمق الإحساس ؛ واستقر ذهني عند رأي ، وأخذت أهبتي مرات عدة ، والآن استقر عزمي نهائيا . وفي تلك اللحظات (ولماذا أكتمك أمر هذا ؟) كنتَ أيضاً حاضراً في خاطري ، وكنتَ جزءاً من أسرتي : أولسنا من عهد طويل كأخَوَين ؟ وإذا كنتُ يوماً مدينا لك بشيء ، فإني الآن في مركز يسمح لي بالوفاء بديني مع الرّبا ؛ وإذا كنتَ أنتَ مديناً لي بشيء ، فأنت في حال تهيء لك

دفع دينك . أنا أعلم أنك تحب شرلوت : وهى خليقة بهـذا الحب ؛ وأعلم أنها ليست غير مكترثة لك . ولمـاذا تنكر فضلك ومناقبك ؟ خذها من يدى ، وهاتِ لى أوتيلى ، هنالك نصبح أسعد الناس .

— فقال الماجور : إنه بسبب إغرائك لى بهذه الهبة البالغة النفاسة ، بسبب هذا عينه يجب علىّ أنا أن أزيد فى الاحتياط والثبات والإصرار . إن هـذا العَـرْض الذى أقابله بالصمت الموقّـر ، يزيد الأمر تعقيدا وصعوبة بدلا من أن يذلّـله . إن الأمر لم يعد يتعلق بك وحدك ، بل وبى أيضاً ، ولا يتصل بالمصير وحده ، بل وبُسمْـعة رجلين وشرفهما ، وقد بقيا سليمين حتى الآن ، وهما بهذا العمل الغريب — إن لم نشأ أن ننعته بنعت آخر — يتعرضان لخطر الظهور أمام الناس بمظهر بالغ العجب والغرابة .

— ولهذا السبب عينه ، وهو أننا سليمان من كل لوم ، هكذا أجاب إدورد ، فإن لنا الحقَ فى أن نعرِّض أنفسنا للوم مرةً ما . إن من تجلّى طوال حياته كرجل شريف ليشرف عملا يمكن أن يبدو عند الآخرين مشوباً بالاتهام . أما فيما يتصل بى ، فإننى — وقد فرضت على نفسى مافرضت من مِحَن وخطوب ، وقمت من أجل الآخرين بأعمال تنطوى على الإيلام والمخاطرة — أقول إننى أشعر بأن لى الحقّ فى أن أعمل شيئاً أيضا من أجل نفسى . أما فيما يعنيك ، أنت وشرلوت ، فالزمان سيقرر قراره ؛ لـكن لا أنت ولا أى إنسان سيحملنى على العزوف عن مشروعى . فإن مد الناس إلىّ أيديهم ، كنت مستعداً لـكل المساومات والتوفيقات ؛ وإن شاؤا أن يتخلوا عنى لقواى وحدها أو أن يقفوا فى طريق تصمياتى ، فسيحملونى على السير إلى النهاية ، مهما كان الأمر » .

ورأى الماجور أن من واجبه أن يعارض أطول وقت ممكن فى مشروع

صديقه ، واستعان لهذا بحيلة بارعة ، متظاهراً بالتسليم ، غير معارض إلا من حيث الشكل والإجراءات المؤدية إلى الطلاق وما يتلوه من زواج . فأظهر ما فى هذا من متاعب ومصاعب ومثالب حتى إن إدورد بلغ منه الحنق كل مبلغ .

وأخيراً صاح : « إننى لأرى جيداً أن الظفر قهراً بما يرغب فيه الإنسان لا يتم بالنسبة إلى الأعداء وحدهم ، بل والأصدقاء أيضاً . فما أريده ، وما لا غنى لى عنه ، لا أصرف نظرى عنه ، وأعرف كيف استولى عليه ، فى التو والحال . أجل ، أنا أعلم أن مثل هذه العُقَد لا تنحل ولا تنعقد دون أن يرى المرءُ الكثير من الأشياء القائمة اليوم تنهار غداً ، ويتحطم أحياناً ما يود البقاء . وليس فى استطاعة التفكير أن ينتهى عند حد فى مثل هذه المسائل : فأمام العقل كل الحقوق متكافئة ، وفى الميزان الكفة الشائلة يمكن دائماً أن تحتمل ثقلا موازياً . صديق ! قَرِّرْ إذن أن تعمل من أجل نفسك ومن أجلى أنا ، بأن تحل هذه العُقَد لصالحك وصالح نفسى . فَلْتَحُلَّـها ولتعقِدْها من جديد . ولا يقفن فى سبيلك أى اعتبار . لقد جعلْنا الناس يتحدثون عنا ، وسيستمرون فى هذا الحديث حيناً ثم ينسوْننا ، شأنُ كلِّ شىء تزول جِدَّته ؛ وأخيراً سيدعوننا نعمل ما نستطيع ، دون أن يحفلوا بنا » .

ولم تبق لدى الماچور اعتراضات بعدُ يوجهها إليه ؛ فكان عليه أن يقبل فى النهاية أن يعالج إدورد المسألة علاجاً نهائياً ، بحسبانها مفروغاً منها ، حينما ناقش بالتفصيل كل الإجراءات التى يجب اتخاذها وتحدث عن المستقبل بكل هدوء ، بل وبلهجة فيها دعابة ومزاح . بيد أن البارون اتخذ مظهر الجد والتفكير وتابع الحديث على هذا النحو :

لو رُمْنا أن نُسَلِم أنفسنا للأمل ، والاقتناع بأن كل شيء سيترتب من تلقاء ذاته ، وأن الصدفة ستقودنا وتكون فى عوننا ، فسنكون عندئذ فريسة لوهمٍ آثم . فإننا إن سلكنا هذا السبيل لم نستطع مطلقاً إنقاذ أنفسنا ولا إعادة الطمأنينة إلى كلٍّ منا . وأنّى لى أنا أن أجد السلوى ، وأنا السبب — من غير قصد — فى كل هـذا ؟ فتحت ضغط إلحاحى حملتُ شرلوت على استقبالك وقبولك فى البيت ، ولم تعُد أوتيلى إلينا إلا كنتيجة لهذا التغيير . وما لنا طاقة بتبديل ما حدث عنه ، لكنّ فى وسعنا أن نجعله بريئاً وأن نجد فى هذه العلاقات ينبوعاً لسعادتنا . فإن شئت أن تصرف العيون عن الآمال العذبة الجميلة التى أفتحها أمامنا ؛ وإن رُمْت أن تفرض على ، وعلينا جميعاً ، زهداً حزيناً ، لأنك تعتقد أن هذا ممكن وسيكون مقبولا محتملا ، أفلن تكون لنا ، بتصميمنا على العَوْد إلى موقفنا الأول ، كثير من المتاعب والمضايقات والآلام التى سنعانيها ، دون أن تكون لهذا كله أية نتيجة حسنة ودون أن ينشأ عنه أى خير أو لذة ؟ وهل يكون للمركز السعيد الذى أنت فيه أىُّ جمال فى نظرك ، إذا ما مُنِعت من رؤيتى والعيش معى ؟ وسيكون هذا ، بعد كل الذى جرى ، شيئاً أليماً . إن شرلوت وأنا ، بالرغم من كل ثروتنا ، سنكون دائماً فى أسوأ حال . وإذا لَذَّ لك أن تعتقد مع غيرك من الناس ، أن البِعاد والسنوات والزمان تخفف من حدة هذه العواطف ، وتمحو أمثال هذه الآثار ، فتدبّر أن الأمر يتعلق بهذه السنوات عينها التى نود أن نقضيها فى السرور والنعيم لا فى الحرمان والبؤس الأليم . وأخيراً ، ولكى أصل إلى النقطة الحاسمة ، حتى لو كان مركزنا وعواطفنا تسمح لنا بالاعتصام بالصبر ، فماذا ستؤول إليه حال أوتيلى التى يجب عليها آنذاك أن تغادر بيتنا ، وتعزف عن عوننا فى المجتمع ، وأخيراً أن تحيا حياة

ضالة شريدة بائسة ، وسط عالم ينطوى على الخبث والشر والبرود وعدم الاكتراث ؟ صوّر لى مركزاً يمكن فيه أن تكون سعيدة بدونى ، بدوننا ، هنالك تقدِّمْ إلىَّ حجَّة أقوى من كل دليل ؛ وحتى لو لم أَقْوَ على قبولها والتسليم بها ، فإننى أريد أيضاً أن أَزِنها وأدخلها فى اعتبارى وتقديرى » .

لم تكن هذه المشكلة ميسورة الحل . والشىء المؤكَّد هو أن الصديق لم يجد أى جواب مُقْنِع ؛ ولم يبق أمامه بعدُ إلا أن يصور من جديد وبقوة ، كم أن المسألة كلها خطيرة شائكة ، محفوفة بالمخاطر من عدة نواحٍ وأنه لا بد على الأقل من إطالة التفكير بكل جِدٍّ فى وسائل التنفيذ . فرافأه إدورد على رأيه ، لكن مع هذا التحفظ وهو ألا يفكر صديقه فى مغادرته قبل أن يصلا إلى اتفاق تام فى هذا الموضوع ، وقبل أن يخطو الخطوات الأولى فيه .

الفصل الثالث عشر

لا يلبث أى شخصين ، كل منهما أجنبى عن الآخر ، أن يتبادلا الاعتراف والأسرار حينما يحييان سوياً بعضاً من الزمان : فمن المتوقع إذاً ألا يكون بين صديقينا — وهما يعيشان سوياً تحت سقف واحد ويتحدثان معاً فى كل وقت — أى سر يخفى عن أحدهما . لقد كانا راجعان فى مرات عدة حالتهما السابقة ، ولم يكتم الماجورُ صديقَه أن أوتيلى قد اقترحت أن تربط بين أوتيلى وإدورد حينما يعود من أسفاره ؛ ومن بعد فكرت فى أن تخطبها عليه هو نفسه . فاستطار إدوردَ الفرحُ من هذا الاكتشاف ، وتحدثا بدون تحفظٍ عن الميل المتبَادَل بين شرلوت والماجور ، ولما كان قد وجد فى هذا مصلحة

له وعزماً على تحقيق أغراضه فقد صوّر هذا الميل فى أزهى ألوان وأنصعها .

ولم يستطيع الماچور أن ينكر كل شىء ولا أن يعترف بكل شىء ، بينما ازداد البارون اقتناعاً بوجهة نظره يوماً بعد يوم . كان يرى الأمر ليس فقط ممكناً ، بل وواقعاً ولم يبق إلا أن يوافق كلٌّ على ما ترغب نفسه وتهوى . وكان من المؤكد إمكان الظفر بالطلاق ؛ وسيتلوه الزواج ؛ وفَكَّر فى السفر مع أوتيلى . ولعل أجمل اللوحات التى يمكن الخيالَ الحُلم بها هى تلك التى يرسمها عاشقان ، زوجان ، يأملان فى أن ينعما بارتباطهما الجديد فى عالم جديد ، وأن يمتحنا ويثبتا أواصرهما الأبدية بين أحداثٍ متنوعة متغيّرة . وفى تلك الأثناء سيكون للماچور وأوتيلى القدرة التى لا حد لها والسلطان المطلق لتنظيم وترتيب الأملاك والثروة وفقاً لما هو مأمول وعلى نحو عادل خليق بإرضاء كل طرف . لكن الاعتبار الذى اطمأن إليه إدورد أكبر اطمئنان وأمَل منه أكبر فائدة هو أن الطفل ما دام سيبقى للأم فإن فى وسع الماچور أن يُشْرِف على تنشئته وتوجيهه وفقاً لآرائه وتنمية قواه وملكاته . ولم يكن عبثاً أن أطلق عليه فى التغطيس اسم أبيه والماچور .

كان هذا كله من النضوج فى ذهن البارون بحيث لم يشأ أن ينتظر يوماً آخر للانتقال إلى مرحلة التنفيذ . وبينما هما فى طريقهما إلى القصر بلغا مدينة صغيرة يملك فيها إدورد بيتاً . فاقترح التوقف بها وانتظار عودة الماچور . لكنه لم يقو على تنفيذ هذا الاقتراح فى الحال والنزول بها ، بل رافق صديقه حتى نهاية المدينة ، وكانا على جوادين منشغلين بحديث جادّ . فتابعا طريقهما .

وشاهدا فُجاءةً من بعيدٍ البيتَ الجديد فوق الرابية : لقد كانت أول مرة يَرِفُّ فيها قرميدُه الأحمرُ أمام عيونهما . فانتاب إدورد قلق ولهفة

لا يستطيع لها دفعاً ولا مقاومة . بل يجب أن يتم كل شيء هذا المساء نفسه . وهو سيستتر فى قرية قريبة كل القرب . ولابد للماچور أن يعرض الأمر على شرلوت بطريقة مُلِحة ، ويفاجئ تقديرها ، وبواسطة هذا الاقتراح غير المتوقَّع يحملها على التصريح بعواطفها بإخلاص . ذلك أن إدورد الذى أعاره رغباته الخاصة كان مقتنعاً بأنه يحقق أمانى شرلوت الحقيقية ، وأَمَل منها فى موافقة سريعة ، لأنه لم يستطع هو نفسه أن يريد شيئاً آخر .

واستطارته النشوةُ فتوقع نتيجة سعيدة . ولكى يستطلع الخبر فى الحال ، أمر بالترصُّد وبإطلاق بعض طلقات من المِدْفع ، أو إذا كان الوقت ليلاً ترسل بعض الشُّهمان النارية . وعدا الماچور إلى القصر . لكنه لم يجد شرلوت ، وعلم أنها تسكن البيت الجديد ، بيد أنها كانت فى هذه اللحظة تقوم بزيارة فى البحيرة ، ومن المحتمل ألا تعود مبكراً إلى المنزل . فعاد إلى النُّزُل حيث ترك جواده .

بيد أن إدورد ، مدفوعاً بقلقٍ استولى على كل نفسه ، خرج خفيةً من مكمنه متخذاً طرقاً منعزلة لا يعرفها إلا القناصون والصيادون ؛ وبلغ بستانه ، وعند المساء كان فى الصُّفّة قرب بحيرته ، التى رآها لأول مرة فى كل سعتها وامتدادها المستوى الشفاف .

وفى ذلك اليوم كانت أوتيلى قد قامت بعد الظهر برحلة إلى البحيرة ، حاملةً الطفل ، تقرأ وهى سائرة ، كما هى عادتها . ووصلت حتى أشجار الزان ، فى المكان الذى يُعْبر عنده الماء . وكان الطفل غافياً ؛ فجلست ، ووضعته إلى جوارها ، وتابعت قراءتها . وكان الكتاب من ذلك النوع الذى يجذب القلب الحسّاس ولا يستطيع أن ينفصل عنه . فنسيت

أوتيلي الوقت والساعة ، ولم تفكر في أنه كان لا يزال أمامها سير طويل لبلوغ البيت الجديد ؛ وكانت جالسة ، غارقةً في قراءتها وفي أفكارها ، فاتنة المنظر إلى حد أن الأشجار والشجيرات والخمائل المجاورة كان لا بد أن تكون حـيّة وتصبح ذات عيون ، من أجل أن تُعجَب بها وتنعم بحضرتها . وفي تلك اللحظة عينها تسرب شعاع من الشمس خلفها وأضفى على خدها وكتفها لوناً ذهبيا .

وكان إدورد في تلك الأثناء يتقدم في سيره باستمرار ، موفـقاً في تقدمه هذا من غير أن يُرَى ، واجداً بستانه خاوياً والريف الممتد قفرا . وأخيرا نفذ من خلال الشجيرات إلى أشجار الزان ؛ ورأى أوتيلي ورأته ، فطار إليها وسقط تحت قدميها . وبعد توقف صامت طويل ، في خلاله حاول كل منهما أن يستفيق من اضطرابه ، شرح لهـا في كلمات قصارٍ كيف أتى ولماذا . لقد أرسل الماچور إلى شرلوت ؛ وربما يتقرر مصيرُهما المشترك في هذه اللحظة . إنه لم يشكّ يوماً في حبه ؛ وهي بكل تأكيد لم تشك أيضاً في حبها إياه : فتلمس منها موافقتها . فترددت ، فخثها وتوسل ؛ وأراد أن يستغل حقوقه القديمة ويضغطَ عليها بين ذراعيه : فأشارت إلى الطفل لافتة نظره إليه .

نظر إليه إدورد مشدوها ، وصاح : « إلـهي ، لو استطعت أن أشك في زوجي ، وفي صديقي ، لـكان هذا الوجه شاهدا رهيباً ضدهما ! أفليست هذه القَـسَمات قسمات الماچور ؟ لم أبصر يوماً مثل هذه المشابهة القوية .

— كلا ، هكذا أجابت أوتيلي ، كل الناس يؤكدون أنه شبيه بي .

— أهذا ممكن ؟ » هكذا قال إدورد ، وفي اللحظة عينها فتح الطفل عينيه ، هاتين العينين النجلاوين السوداوين المليئتين بالتعـبير والعمق

والعذوبة . لقد كان الطفل ينظر إلى الدنيا بشيء من الفهم ؛ ولاح أنه يعرف الشخصين الماثلين أمامه . جاس إدورد إلى جوار الطفل ؛ ثم ركع مرةً أخرى أمام أوتيلي .

وصاح : « إنهما عيناك . آه ! دعيني لا أنظر غير عينيك دعيني أُسبل قناعاً على الساعة الرهيبة التي ولد فيها هذا الطفل . أفكان على نفسك الطاهرة أن تخيفني بهذه الفكرة المشئومة ، فكرة أن الزوج والزوجة ، وقد صارا غريبين الواحد عن الآخر ، يمكنهما ، في عناقهما المتبادَل ، أن يدنّسا برغبات مشبوبةٍ رباطاً شرعياً ؟ لكن ما دمنا قد بلغنا هذا الحد ، وما دامت علاقاتي بشرلوت يجب أن تُقْطع ، وستكونين لي ، فلماذا لا أقولها ، لماذا لا أفوه بها تلك الكلمةَ القاسية ؟ إن هذا الطفل ثمرة زنا مزدوج ؛ إنه يفصلني عن زوجتي ، ويفصل زوجتي عني ، وقد كان يجب أن يربط بيننا . فإذا كان يشهد ضدي ، وإذا كانت هذه العيون الرائعة يمكن أن تقول لعينيك إني ، بين ذراعي غيرك ، إنما أنتسب إليك ، فادركي يا أوتيلي واستشعري تماماً أنني لا أملك أن أكفّر عن هذه الغلطة ، هذه الخطيئة إلا بين ذراعيك .

« سماعاً ! » هكذا صاح ، وهو ينهض فجأة .

لقد خُيِّل إليه أنه يسمع طلقة المِدْفع ، تلك العلامة التي كان على الماجور أن يعلنها . لكن الأمر كان أن أحد القناصين قد أطلق عياراً في الجبل المجاور . ولم تَتْلُ هذه الطلقةَ أيةُ طلقة أخرى . فانتظر في قلق لهيف .

هنالك فقط شاهدت أوتيلي أن الشمس قد اختفت وراء الجبال وكانت أشعتها الأخيرة لا تزال ترفّ على الرابية ، وعلى نوافذ المنزل .

فصاحت : « ابتعد يا إدورد ! لقد فُرِّق بيننا زماناً طويلا ، وتألمنا حينا طويلا . واعتبر ما ندين به سوياً لشرلوت : فلها وحدها أن تقرر أمر مصيرنا ؛ ولا تضغط عليها . فأنالك ، لو سمحتْ هي بهذا ؛ وإلا فيجب أن أتركك وأعزف عنك . وما دمتَ تظن أن القرار قريب كل القرب هكذا ، فلننتظر . عد إلى القرية التي يظن الماچور أنك فيها . كم من أشياء يمكن أن تحدث وتقتضى التفسير ؟ أمِـنَ المحتمل أن تملن لك طلقةُ مِدفع خشنة نجاحَ وساطته ؟ لعله أن يكون بسبيل البحث عنك الآن . إنه لم يجد شرلوت ، أعلم هذا . ويمكن أن يكون قد ذهب للقائها ؛ فمن المحتمل أن يكون قد دُلَّ على مكانها . كم من فروض ممكنة ! دعنى . يجب أن أعود إلى البيت . إنها تنتظرنى هناك أنا والطفل » .

كانت أوتيلى تتحدث بسرعة ، وقد تمثلت كلَّ الاحتمالات الممكنة . لقد كانت سعيدة بجوار إدورد وأحست بأنها يجب أن تُبْـعِده .

أتوسل إليك وأستحلفك ، يا حبيبي ، أن تعـود ، هكذا قالت . عُد من حيث أتيت ولتنتظر الماچور .

— أنا مطيعٌ أوامرك » ، بهذا أجاب ، ملقياً عليها نظرة ملتهبة بالعاطفة ، ثم ضامّـا إياها بحرارة بين ذراعيه . فأحاطته بذراعيها وضغطت عليه برفق على قلبها . وحـلّق الرجاء على رأسها ، كنجم هَوى من السماء . واستسلما للأحلام ، وظنا أنهما لبعضهما بعضا ؛ ولأول مرة تبادلا قُبْـلات من اللهيب ، تبادلاها بغزارة ، وحرارة ، ثم افترقا قسراً وبألم ومرارة .

وكانت الشمس قد غابت ، وانتشرت ظلال المساء ؛ وارتفعت أبخرة رطبة حول البحيرة ؛ فبقيت أوتيلى ساكنة ، يغلبهـا التأثُّـر ويستولى عليها الاضطراب . ومَـدّت بصرها إلى البيت القائم على الرابية ، وخُيِّـل

إليهـا أنها ترى شرلوت فى الشرفة لابسة فسْتَانا أبيض . ولو ساحلت شاطئ البحيرة ، لكانت الشُّقة طويلة . وهى تعرف قلق الأم حينما تنتظر طفلها . وهاهى ذى تشاهد أمامها أشجار الدُّلْب ؛ ولم يكن يفصلها عن الطريق المؤدى مباشرة إلى البيت إلا صفحة الماء ؛ وخُيِّل إليها ، بنظرتها وبفكرها ، أنها فوق العُدْوة الأخرى من البحيرة . وهى فى قلقها هـذا اختفى أمام عينها خطر المقامرة بالإبحار على الماء . فهُرِعتْ إلى الزورق ؛ ولم تشعر بأن قلبها يخفق ، وأن قدميها تترنحان ، وأنها على وشك السقوط من فرط الإعياء . فقفزت إلى الزورق ، وأمسكت بالمِجْذاف ، وأسندته إلى الساحل . إنها فى حاجة إلى مجهود ، فضاعفت جهدها ، وترجّح الزورق وانساب قليلا إلى الأمام . وكان الطفل على ذراعها اليُسْرى ، والكتاب فى يدها اليسرى ، والمِجْذاف فى يدها اليمنى ، فترنحت هى أيضاً وسقطت فى الزورق . فأفلت المجذاف من يدها ، ولما حاولت النهوض ، أفلت الكتاب والطفل ، وكل هذا سقط فى الماء ! ... إنها لاتزال تمسك بملابس الطفل ، لكن وضعها العسير غير الملائم حال بينها وبين النهوض . ويدها اليمنى ، وقدصارت فارغة ، لم تكفِ لمساعدتها على العود والوقوف . وأخيراً استطاعت النهوض ، وجذبت الطفل من الماء ، لكن عينيه كانتا مغلقتين : لقد توقف عن التنفُّس .

فى هذه اللحظة استعادت كل حضور ذهنها ، فكان ألمها كأبلغ ما يكون الألم . تقدم الزورق إلى منتصف البحيرة تقريباً ، بينما المِجذاف يطفو بعيداً ؛ وهى لا ترى أحداً على الشاطئ ، بل ماذا يفيدها أن ترى أحدا ؟ فطفَت ، مفصولةً عن كل شىء . على هـذا العنصر الخائن المنيع (الماء) .

تفقدت العونَ فى نفسها . وكانت كثيراً ما سمعت عن وسائل إنقاذ الغرقى . بل هى قد رأت فى مساء الاحتفال بعيد ميلادها حالة من هذا النوع . فخلعت عن الطفل ملابسه . وجففته بثوبها الموصلى ؛ ومزقت الثياب التى تغطى صدره ، وللمرة الأولى عرضته للهواء الطلق ؛ ولأول مرة تضمُّ إلى صدرها الأبيض كائناً حيا ... كلا ، وياحسرتاه ! إنه لم يكن حياً بعد ! إن أعضاء هذا المخلوق المسكين قد تجمّدت ، وجمّدتها هى الأخرى إلى أعماق قلبها . فانهمل من عينيها سيلٌ من الدموع ، أضفى على سطح هذا الجسد المتصلّب مظهر الحرارة والحياة . فلم تتراخَ مطلقاً ، ولفّت الطفل بشالها ، ودلكته ومسحت عليه ونفخت فيه بأنفاسها وهى تغطيه بقبلاتها وعبراتها ، وخيِّل إليها أنها تعوِّض عن المساعدات التى حُرمت منها فى هذه الوحدة والعزلة .

جهود لا غَناءَ فيها ! رقد الطفل بلا حَراك بين ذراعيها ، وبقى الزورق بلا حَراك على سطح الماء . لكنها هنا أيضاً وجدت عوناً فى نفسها الجميلة : أدارت نظراتها ناحية السماء ، وجثت على ركبتيها فى الزورق ، ورفعت الطفل المتجمّد بذراعيها من حلقه البرىء الذى كان لونه ، وكذلك بروده ، ووا أسفاه ، كلون المرمر . فتوجهت بنظرتها المتبلبلة نحو السماء ، وسألت العون من ذلك الملاذ الذى ترجو النفوسُ الرقيقة منه الكثير ، حينما لا تجد لها مدداً فى أى مكان آخر . ولم يكن عبثا أن ولت وجهها قِبَل النجوم التى كانت قد بدأت تلمع فى السماء واحدة تِلْو أخرى : فهَبَّ نسيمٌ رقيق دفع الزورق إلى أشجار الدُّلْب .

الفصل الرابع عشر

ما تريثت أن قصدت البيت الجديد ، ودعت الجرّاح وأعطته الطفل . فجرّب هذا الرجل المحنّك أنواع العلاج العادية واحداً بعد واحد فى هذا الجسم الرقيق . وعاونته أوتيلى فى كل شىء ، وهيأت له كل ما كان فى حاجة إليه ، وتعجلت وكأنها تحيا فى عالم آخر ؛ لأن الشقاء الأكبر كالنعيم الأكبر يبدّل وجه كل الأشياء .

ولم تغادر غرفة ولادة شرلوت حيث جرى كلُّ ما جرى إلا حينما جَرب هذا الرجلُ الحاذقُ كل شىء ثم هـزّ رأسه ، وظل صامتا لا يحير جوابا على أسئلتها المليئة بالأمل ، ثم أجاب أخيرا بكلمة « لا » خفيفة ؛ لكنها لم تكد تدخل غرفة الاستقبال حتى خرت منهوكة قبل أن تستطيع بلوغ الأريكة ، ووجهها منبطح فوق السجادة .

وفى اللحظة عينها سمع صوت عربة شرلوت وهى عائدة بها . فاستحلف الجراحُ الحاضرين أن يبقوا . وأراد هو أن يذهب للقائها ، وأن يهيئها لسماع النبأ الفاجع ؛ لكنها كانت قد دخلت مخدعها ، فوجدت أوتيلى راقدة على الأرض ؛ وهُرِعت إحدى الوصيفات إلى سيدتها وهى تبكى وتصرخ . وحضر الجراح : فعرفت كل شىء دفعةً واحدة . لكن لماذا تتخلى عن كل أمل فجأة ؟ إلا أن الرجل المحنّك (الجرّاح) ، الماهر الحكيم ، توسل إليها ألا ترى الطفل ؛ فابتعد ، ليوهمها بإعدادات وتحضيرات جديدة . فألقت بنفسها على الأريكة ، وكانت أوتيلى لا تزال مُجدّلة على الأرض ، مستندة إلى ركبتى خالتها ، وكانتا تمسكان رأسها الجميلة وهى مائلة ؛ وكان

الصديق العالم يغدو ويجيء ؛ ويلوح عليه أنه يُعنى بأمر الطفل ، وهو في الواقع إنما يعني بحال السيدتين . وقارب الوقتُ منتصفَ الليل ؛ وساد في البيت شيئاً فشيئاً صمتٌ كصمت الموت . ولم تعد شرلوت تخفي عن نفسها بعدُ أن الطفل لن يعود أبداً إلى الحياة . وسألت أن تراه ، وكان قد سُجِّيَ في لفائف ساخنة من الصوف ؛ وأُرْقِد في سَلّة ووُضِعَت إلى جوارها على الأريكة ، وكان الوجه هو وحده المكشوف ، فبدا ساجياً بكل جماله .

وما كادت القرية تسمع نبأ هذه المأساة حتى سرت فيها الحركة ، وفي الحال انتشرت الضجةُ حتى النُّزُل . فدار الماچور ، وقد ركب وسار في الطريق المعروفة ، حول البيت ، وأوقف أحد الخدم ، وكان ذاهباً لإحضار شيء من المسكن المجاور ، وسأله عن التفاصيل وجعله يطلب من الجرّاح أن يخرج . ودُهِش الجَرّاح حين رأى حاميه القديم ، وأنبأه جلية الأمر ، وتكفّل بتهيئة شرلوت لاستقباله . فعاد الجراح وتنقّل من موضوع إلى موضوع واقتاد الخيال من مسألة إلى أخرى ، واستطاع بهذا أن يستحضر في فكر شرلوت هذا الصديقَ العَطوفَ دائماً ، القريب إلى نفسها أبداً بالقلب والروح . وهيأتها هذه الخواطر والأفكار للعود إلى الواقع . وبالجملة عرفت أن صديقها على بابها وأنه عرف كلّ شيء ويريد رؤيتها .

دخل الماچور ، فاستقبلته شرلوت بابتسامة أليمة . كان ماثلا أمامها ، فرفعت الغطاء الحريري الأخضر الذي كان يغطي البدن ، وعلى ضوء شَمعة خافت ، رأى — في شيء من الفزع المشعور — صورته هو نفسه وقد جمّدها الموت . فأشارت إليه شرلوت بالجلوس ؛ فصارا الواحدُ قُبالة الآخر ، وعلى هذا النحو أمضيا الليل في صمت . وكانت أوتيلي لا تزال راقدة بلا حراك على ركبتي خالتها ؛ تتنفس بهدوء ، ونامت أو لاح أنها نائمة .

وتنفّس الصبح ، وانطفأ النور ، وبدا الصديقان كأنهما يستيقظان من حُلْم رهيب . فنظرت شرلوت إلى الماچور وقالت له بلهجة هادئة .

« اشرح لى ، أيها الصديق ، بأية مشيئة للسماء أتيت هنا تشارك فى هذا المنظر الحزين ! » .

ألقت عليه هذا السؤال بصوت خفيض فأجابها بلهجة مماثلة ، وكأنهما خشيا أن يوقظا أوتيلى :

« ليس هذا زمان التحفظ والتلميح والمداراة ولا مكانها . وإن الموقف الذى أجدك فيه لمن الرهبة والترويع بحيث يجعل الموضوع الهام الذى أتيتُ من أجله إلى هنا يفقد أمامك كل فائدته » .

هنالك صَرَّح لها ، ببساطة وهدوء ، بالغرض من رسالته ، بوصف أن إدورد قد أوفده ، والغرض من وصوله ، بحسبانه قد جاء بمحض إرادته ولمصلحته هو . وعَرض هذه النقطة وتلك الأخرى بكثير من اللباقة ، ومع هذا فبكل إخلاص . فأصغت إليه شرلوت بهدوء ، ولم يَبْدُ عليها دهشة ولا سخط .

ولما انتهى الماچور من حديثه أجابَ بصوت هامس ، حتى اضطر لتقريب كرسيه :

« لم أوجد يوماً فى موقف كهذا ، لكننى فى مثل هذه الظروف الخطيرة كنت أقول دائماً لنفسى : وغداً ، ماذا سيكون الأمر ؟ وإنى لأشعر جيداً بأن مصير كثير من الأشخاص قد صار الآن بين يدىّ ، وما يجب علىّ أن أفعله لا يدع عندى أى شك ، وسأقوله فى التو . إننى أوافق على الطلاق ، وكان علىّ أن أقدر هذا قبل الآن . ولقد قتلتُ طفلى بترددى ومقاومتى . إن ثمت أشياءَ يحتفظ القدر بها لنفسه بإصرار وعناد . وعبثا يحاول العقل

والفضيلة ، والواجب وكل ماهو مقدس أن يعترض طريقه إذ لا بد أن يتم قضاؤه وتنفذ مشيئته ، لا بد أن يقع ما هو عادل فى نظره ، وما ليس عادلاً فى نظرنا نحن ، وينتهى المصير بأن يتحكم وحده بكل سلطانه ، تاركاً إيانا ننطح الصخر برءوسنا فى غير طائل .

« لكن ماذا أقول ! إن المصير لا يريد إلا تحقيق أمنيتى أنا ، ورغبتى الخاصة ، اللتين عملت أنا ضدهما فى غير حكمة ولا بعد نظر . أفلم يخطب فكرى إدورد على أوتيلى ، بحسبانهما زوجين خلق كل منهما للآخر ؟ أفلم أسع أنا للتقريب بينهما ؟ وأنت ، يا صديقى ، أوَلم أطلعك على سر نياتى ؟ لماذا لم أستطع أن أميز نزوة إنسان من الحب الحقيقى ؟ لماذا قبلتُ يده ، ولو كنت بقيت صديقته لكنت مصدراً لسعادته وسعادة زوجة أخرى ؟ انظر إلى هذه البائسة النائمة ! إن فرائصى لترتعد حينما أفكر فى اللحظة التى ستستيقظ فيها من هذا الرقاد المُخدِّر وتعود إلى صوابها . كيف يتسنى لها أن تعيش ، وكيف تتسلى ، إذا لم تستطع أن تأمُل فى تعويض إدورد بحبها عما انتزعته منه ، كأداة لأغرب أنواع المقادير ؟ إنها تستطيع أن ترد إليه كلَّ شىء ، إذا حكمت بما تحمل له من تعلق ووجدان . وإذا كان الحب يستطيع أن يحتمل كلَّ شىء ، فهو يمكنه أيضاً بالأحرى أن يعوّض عن أى شىء . أما فيما يتصل بى أنا ، فلا يجب أن تفكر فى هذا الآن .

« فارقْ بلا ضجة ، عزيزى الماچور . قل لإدورد إننى أوافق على الطلاق ، وإننى أدع له ولك ولمتلر العناية بالمسألة كلها ، وإننى خالية من القلق على مركزى فى المستقبل ، وأستطيع أن أكون كذلك من كل وجه . سأوقع كل الأوراق التى تعرضونها علىّ ؛ لكن لا يطلبن أحدٌ

مساعدتى ولا رأيي ولا نصائحى » .

فنهض الماچور . ومــدّت إليه شرلوت يدها من فوق أوتيلي ، فضم إلى شفتيه هذه اليد العزيزة .

« وفيما يتصل بى أنا ، ماذا أستطيع أن آمــل ؟ هكذا قال هامسا .

— اسمح لى بأن أدعك تنتظر جوابى ، هكذا قالت له شرلوت : لم نستحقَّ الشقاء بخطأ اقترفناه ؛ لكننا أيضاً لم نستحق أن نكون سعداء معا » .

فمضى الماچور ، مشفقاً على حال شرلوت فى أعماق فؤاده ، دون أن يستطيع الرثاء لحال الطفل الميت المسكين . فإن هذه الضحية بدت له ضرورية لسعادتهما المتبادلة . وتمثّـل أوتيلي وهى تحمل بين ذراعيها طفلا لها ، بحسبانه أحسن عِوَضٍ كامل عن ذلك الذى سلبته إدوردَ ؛ وتصوَّر على ركبتيه هو نفسه ابناً سيكون صورة له صادقة أكثر بكثير من ذلك الآخر .

تلك كانت التصاوير والآمال المعسولة التى شغلت باله حينما عاد إلى المنزل فالتقى بإدورد ، وكان ينتظر الماچور طول الليــل فى العراء ، دون أن يعلن سهم نارى أو طلقة عن نجاح موفّق . لقد كان يعرف الكارثة التى حلَّـت ، لـكنه بدلا من أن يأسف على هــذا المخلوق المنكود عدّ هذا الحادثَ منحةً من السماء أزاحت فى الحال كل عقبة فى سبيل ســعادته ، وإن لم يشأ أن يصرح بهذا لنفسه . لهذا لم يبذل الماچور ، حينما أعلن له فى التو قرارَ زوجته ، أىَّ جهــد فى حمله على العود إلى القرية الأخرى ، ومن هناك إلى المدينة الصغيرة حيث اقترحا أن يتناقشا ويحضّـرا الإجراءات التمهيدية التى كان يجب اتخاذها .

ولما غادر الماچورُ البارونةَ لم تستغرق فى تأملاتها أكثر من لحظة ،

لأن أوتيلى نهضت بعد برهة وحملقت فى وجه صديقتها . بدأت بأن تركت ركبتى شرلوت ، ثم نهضت على قدميها ووقفت أمامها .

« هذه هى المرة الثانية — هكذا قالت الطفلة النبيلة ، فى لهجة من الجد مليئة بسحر لا يقاوم — التى أستشعر فيها مثلَ هذه الأزمة . لقد قُلْتِ لى يوماً إنه يحدث غالباً فى الحياة أن الشئ الواحد يجرى على الناس بطريقة واحدة ، وفى لحظات حاسمةٍ دائماً . وإنى لأعترف اليومَ بصدق هذه الملاحظة وأشعر بأنى مضطرة إلى الإدلاء إليك باعتراف . بعد أن ماتت أمى بقليل — وكنتُ طفلة غضَّة الحداثة — قرَّبتُ منك كرسيِّى ؛ وكنتِ جالسة على الأريكة مثلك الآن ، وكانت رأسى ترقد على ركبتيك ؛ لم أكن نائمة ولا ساهرة : بل كنتُ أتَـهوَّم . فسمعت كلَّ ما دار من حولى ، وخصوصاً سمعت بوضوحٍ كلَّ ما قيل . ومع هذا فلم أقو على التحرك ولا التعبير عما فى نفسى ، وحتى لو شئتُ هذا لما استطعتُ أن أُسمِع أننى أشعُر بنفسى . كنتِ أنت تتحدثين عنى مع إحدى صديقاتك ؛ وكنت ترثين لحالى لبقائى فى الدنيا طفلة يتيمة مسكينة ؛ واستعرضت مركزى التابع غير المستقل بنفسه ، وهو مركز كان يمكن أن يكون حرجاً لو لم يَجُدْ علىَّ الطالع بما يخفف مصيرى . وأدركت جيداً وبدقة ، دقة لعلها قاسية ، كلَّ ما بدا أنك تطلبينه من أجلى ، وماتقتضينه منى . هنالك رسمتُ لنفسى قواعد توافق فكرى المحدود ، تحكمت فى حياتى وقتاً طويلا ، ووجَّهت كل سلوكى ، فى الوقت الذى كنت تحبيننى فيه ، وتُعْنين بشأنى وتقبلينى فى بيتك ، ووقتاً آخر تلاه .

« لكنى حِدْتُ عن طريق ، وانتهكت قواعدى ، بل فقدت شعورى بها ، وبعد كارثة رهيبة ، أراك تنيرين لى من جديد حالتى وهى اليوم أسوأ

من الأولى . كنت مُسْتَندَةً إلى ركبتيك ، غارقةً فى نوعٍ من التخدير ، وسمعتُ للمرة الثانية ، وكأنى أسمع من عالَم غريب ، صوتَك العذبَ قرب أذنى ، ورأيت إلى أى مآل صرتُ ، فأصابتنى قشعريرةٌ من حال نفسى ، لكنى هـذه المرة أيضاً كما فى السابقة رسمتُ لنفسى خطتى الجديدة ، وأنا غارقة فى نصف سُبات وتخدير .

« قرّ عزمى على ما قررته من قبل ؛ وعلىّ أن أنبئك بقرارى أولا : لن أكون أبداً لإدورد . لقد فتح الله عينىّ بهذا الحادث الرهيب على الجريمة التى كنتُ متردِّية فيها . أريد أن أكفِّر عنها . ولا يفكّرن أحدٌ فى صرفى عن تصميمى هذا ! صديقتى الممتازة العزيزة ، رتبى أمرك على هذا الأساس . مُرِى بعودة الماجور ؛ اكتبى له قائلة إنه لم يتقرر شىء . كم استولى علىّ الجزع والقلق لأنى لم أستطع التحرك حينما غادر هذا المكان ! لقد أردتُ أن أنهض واثبة ، وأن استصرخك ألا تدعيه يذهب ومعه هذه الأمانى الآثمة المجرمة » .

أدركت شرلوتُ مركزَ أوتيلى ، وأحست به ؛ ومع هذا فقد أَمَلت — مع الزمان والنصح والإيزاع — أن تكسب شيئاً ؛ لكنها حينما أرسلت بضع كلمات فيها إشارة إلى المستقبل ، وإلى تخفيف آلامها ، وإلى الرجاء ، صاحت أوتيلى بكل حِدّة وحماسة :

« كلا ! لا تحاولى أن تزعزعى من عزمى وتُنَهْنِهى من قرارى وتفاجئينى . وفى اللحظة التى أعلم فيها أنك وافقتِ على الطلاق ، سأكفر فى هذه البحيرة نفسها عن خطأى وجريمتى » .

الفصل الخامس عشر

إذا كان الأهل والأصدقاء الذين يحيون معاً حياة سعيدة هادئة يتحدثون ، أكثر مما يجب ويليق ، عما يحدث لهم أو مالا سيحدث ؛ وإذا كانوا يتبادلون مراراً مشروعاتهم وأعمالهم ومشاغلهم ، وبدون أن يقبلوا النصائح التي يقدمها كلٌّ للآخر يقضون حياتهم على نحو ما في التدبير والتقدير — فإنه يحدث في الأحوال الخطيرة التي يلوح فيها أن الإنسان في حاجة إلى عون الآخرين وإلى موافقتهم خصوصاً ، أن ينطوى كلٌّ على نفسه ، ويعمل لنفسه ، ويسلك سبيله وفقاً لهواه ؛ ويخفى كلٌّ عن الآخر الوسائل الخاصة التي يستعين بها ، والنجاح والآثار والنتيجة تدخل وحدها في المجال المشترك .

بعد كل هذه الأحداث الغريبة الرهيبة ، نشأ أيضاً بين الصديقين نوع من التحفظ الصامت تجلى على صورة مداريات لطيفة . وكانت شرلوت قد حملت الطفل إلى الكابلّة سراً دون أن يعلم أحد . وهناك رقد كضحية أولى لمصير متوعِّد .

ولما استعادت الأمُّ كلَّ قواها ، آبت إلى الحياة ، وفي هذا الطريق لقيت أول من لقيت أوتيلى التي لاح أنها في حاجة إلى معونتها . فجعلت من هذا الأمر شاغلها الأول ، دون أن تظهر كذلك . وكانت تعرف إلى أى حد تحب هذه الفتاةُ السماويةُ إدوردَ ؛ وتسقّطت نبأ المنظر الذى سبق الكارثة ، وعرفت كل ظروفها إما من أوتيلى نفسها أو من رسائل الماچور .

وأوتيلى من ناحيتها قد أشاعت الكثير من الرقة والعذوبة في حياة

شرلوت كلّ آن . وكانت صريحة مفتّحة النفس عما في مكنونها ؛ لكنها في أحاديثها لم تتناول مطلقاً الحاضر ولا الآونة الأخيرة . لقد كانت دائما رصينة اللبّ واعية الفؤاد ، وقد لاحظت الكثير وعرفت الكثير : هنالك تجلّى كل هذا بوضوح . فكانت تسلّى شرلوت وترّفه عنها، وكانت شرلوت تأمل دائماً في سرّها أن ترى هذين الزوجين الأثيرين عندها مرتبطين .

وعلى نحو مخالف تماماً كانت تجرى مشاعر أوتيلى . فقد كشفت لصديقتها عن سر مسلكها ؛ وقد تخلصت من قيودها القديمة وأَسْرِها : وبتوبتها وقرارها ، أحست أيضاً بأنها تخففت من عبء خطيئتها ومحنتها . ولم تَعد في حاجة بعدُ إلى أن تكون عنيفة على نفسها . لقد غَفَرَت انفسها في أعماق قلبها ، لكن بشرط العزوف الكامل ، والزهد الخالص ، وكان هذا الشرط دقيقاً يسرى على كل حياتها .

على هذا النحو مرت أوقات ، وشعرت البارونة إلى أى حد صار البيت والبستان والصخور والبحيرة والظلال تترك يومياً عندها وعند صديقتها آثاراً حزينة . أما أنهما كانا في حاجة إلى تغيير الهواء ، فقد كان أمراً بارزاً للعيان ؛ لكن كيف السبيل إلى تحقيق هذه الفكرة ؟ لم يكن من الميسور الانتهاء عند رأى في هذا الأمر .

أفكان يخلق بالصديقتين أن تظلا سويا ؟ لقد كانت إرادة إدورد التي أبداها من قبل جديرة بالتوصية بهذا ، وكانت تصريحاته وتهديداته من شأنها أن تجعل منه ضرورة لا مفر منها : لكن كيف السبيل لإنكار أن هاتين السيدتين — بكل مالديهما من حسن نية وعقل وحكمة ومجهود — كانا في موقف أليم الواحدةُ بالنسبة إلى الأخرى ؟ لقد كانت أحاديثهما يخالطها التهرُّب ؛ وأحيانا كان يثقل على إحداهما أن تسمع حديث

الأخرى ، وغالباً ما كانت التعبيرات يساء فهمها ، إن لم يكن بالذهن فبالعاطفة . لقد كانت كلتاهما تخشى إيذاء الأخرى ، وهذا الخشيان نفسه كان أول شيء يجرح ويؤذى .

ولو شاءتا مغادرة القصر والفراق الواحدة عن الأخرى — لوقت قصير على الأقل — لبرز فى الحال السؤال القديم : أين تذهب أوتيلى ؟ وإن الأسرة الثرية الكبيرة قد بذلت جهوداً فى غير طائل لكى تهيئ للوارثة الفتاة رفيقه طيبة قادرة على إثارة روح التنافس فيهما ، والبارونة فى زيارتها الأخيرة ، وحديثاً فى رسائلها ، قد حثت شرلوت على إرسال اليتيمة . وها هى ذى تعاود الاقتراح مرة أخرى . لكن أوتيلى رفضت بصراحة أن تدخل بيتاً ستجد فيه ما اعتاد الناس أن يطلقو عليه اسم المجتمع الراقى ، قائلة : « دعينى يا خالتى العزيزة أفسر لك — كيلا أبدو ضيقة الأفق عنيدة — ما كان على أن أكتمه وأخفيه فى ظروف أخرى غير هذه . إن الشخص الذى عانى مصائب غريبة ، حتى لو كان بريئا ، تنتشر له بين الناس قالة سيئة ، ويثير عند من يرونه ويقابلونه نوعاً من الفزع . وكل يريد أن يتبين لديه الوصمة التى قرف بها ؛ وكل يستشعر نحوه حب الاستطلاع والفزع معا . على هذا النحو يصير البيت أو المدينة التى جرى فيها فعل مريع رهيبين فى نفس كل من يزورها . ويبدو ضوء النهار فيهما أقل لمعانا ووضوحا ؛ ويلوح أن النجوم تفقد فيها من لألائها .

« وما أكبر عدم لياقة الناس — ويمكن مع هذا اغتفارها — نحو هؤلاء البائسين ، وما أشنع ثقلهم الأحمق وعطفهم الأعرج الأهوج ! اسمحى لى أن أعبر على هذا النحو ، لكنى عانيت ما لا يصدقه العقل مع هذه الفتاة المسكينة التى انتزعتها لوسيانه من مخدعها السرى المنعزل ، لكى

تعنى بها بإحسان ، وحاولت بكل نية طيبة أن تحملها على اللعب والرقص . ولما انتهى الأمر بالفتاة المسكينة — وقد زاد اضطرابها — أن هربت وأصابها الإغماء ، وأخذتُها بين ذراعىّ ، وسرت رعدة تأثير فى الجماعة الحاضرة ، وتأمل كُلٌّ هذه البائسة تحدوه رغبة استطلاع قاسية ، لم أكن أتوقع أن مثل هذا المصير ينتظرنى . إن حنانى المخلص الحار لا يزال حياً : والآن فى وسعى أن أرده إلى نفسى ، وأن أحفظ نفسى من أن أكون موضوعاً لمثل تلك المناظر الأليمة .

— فقالت شرلوت : طفلتى العزيزة ، لن تستطيعين فى أى مكان أن تتجنبى نظرات الناس . لم تعد توجد بعدُ هذه الأديرة التى كان الناس يجدون فيها قبلُ ملاذاً لمثل تلك الآلام .

— ليست الوُحْدة هى التى تصنع الملاذ ، خالتى العزيزة . إن الملاذ الأكبر يجب أن يُبْحث عنه فى الأماكن التى نجد فيها موضوعاً لنشاطنا . ولن تستطيع كل أنواع الكفَّارة والزهد أن تنقذنا من المصير المحتوم ، إذا قرر أن يطاردنا . إنه فقط فى الحالة التى أُسْلِم نفسى فيها للبطالة وأصبح منظراً يتلهى به الناس يصير العالم فى نظرى بغيضاً لا يطاق . لكن إذا رآنى الناس هنيئة بالعمل ، لا أَكِلُّ ولا أَمَلُّ من أداء واجبى ، هنالك أستطيع أن أواجه نظرات الجميع ، لأننى لم يَعُدْ لى بعد أن أخاف نظرات الله .

— فقالت شرلوت : إما أن أكون على خطأ بَيِّن ، وإما أن يكون مَيْلُك يدعوك إلى المدرسة الداخلية .

— أجل ، إنى لأعترف وأتخيل أنه من سعادة العمل أن يقود المرءُ الآخرين بالطريق العادى ، حينما يكون هو نفسه قد اقْتِيد بأغرب

الطرق . أو لسنا نرى فى التاريخ أن نفراً من الناس الذين اعتزلوا ولجأوا إلى الخلوة بعد أخطاء فادحة ارتكبوها ، لم يظلوا فيها مستورين مدفونين ، كما أمَلوا ؟ لقد دُعُوا إلى الدنيا ليسلكوا بالضالين السبيلَ القويم والصراط المستقيم . ومن أقدر على هـذا من هؤلاء الذين خبروا السُّبُل الخداعة ؟ لقد دُعوا ليعاونوا البائسين . ومنْ أقدر مِن هؤلاء الذين لم يعد فى وسع أى شر من شرور الأرض أن يبلغهم بعد ؟

— إنك لتختارين مهنة غريبة ، هكذا قالت شرلوت . ولا أريد أن أقف فى طريقك . فليكن ، وإن كان ، فيما أرجو ، لمدة قليلة .

— فأجابت أوتيلى : أنا عاجزة عن شكرى لك تركك إياى أقوم بهذه المحاولة ، هذه التجربة ! إذا لم أكن واهمة ، فستنجح . فى ذلك المأوى سأذكر كل المحن التى رآنى أحتملها منذ ذلك الحين ! وبأية نصاعة وهدوء سأشاهد متاعب التلميذات الصغار ، وأبتسم لآلامهم الطفولية ، وبيدٍ خفيفة أعود بهم من حيث حادوا وضَلّوا ! الرجل السعيد لم يخلق لقيادة السعداء ؛ ومن طبيعة الإنسان أن يتطلب من نفسه ومن الآخرين بمقدار ما يتلقى . والبائسون الذين نهضوا من كبوتهم يعرفون وحدهم كيف ينمّوا ، لأنفسهم ولغيرهم ، الشعور بأن المرء يجب عليه أن ينعم رافهاً حتى بأقل نعمة وأدناها .

— دعينى ، هكذا قالت شرلوت بعد قليل من التفكير ، دعينى أقيم ضد مشروعك هذا اعتراضاً آخر يبدو لى أنه الأهم . ليس الأمر يتعلق بك وحدك ، بل أيضاً بشخص آخر . إن نوايا المعلّم الطيب الوَرِع العاقل مجهولة لك ؛ وفى المهنة التى ستنخرطين فى سِلكها ستكونين يوماً بعد يومٍ أعز وأكبر ضرورة ؛ والعواطف التى تشيع فى نفسه لا تسمح له

مطلقاً بالحياة بدونك ، وفى المستقبل حينما يعتاد معاونتك ، لن يكون فى وسعه القيام بعمله من دونك : وستبدأين بتسهيله عليه ، كيما يسأم منه بعد قليل .

— لم يعاملنى القدر برفق ولا حنان ، هكذا قالت أوتيلى ، ومن يحببنى يجب عليه ، فيما أظن ، ألا ينتظر منى خيراً من هذا . إن هذا الصديق طيب ، وعاقل ؛ وسيشعر نحوى ، فيما آمُـل ، بعطف خالص برىء من كل غاية وغرض ؛ سيرى فىّ شخصا مقدساً ، لا يستطيع أن يكفر لنفسه ولغيره عن خطيئة رهيبة ، إلا بأن يكرّس نفسه للكائن الأقدس الكامل الذى يحيطنا بجوهره الخفىّ ويستطيع وحـده أن يحمينا من القوى العتية التى تحاصرنا وتضيّـق علينا الخناق » .

وتلقت شرلوت كل ما قالته الطفلة العزيزة بلهجة بالغة التأثير ، كيما تُفـكر فيه وحدها سِرًّا . وكم من مرة حاولت بكثير من الملاحظات أن تكتشف ما إذا كان من الممكن التفكير فى إيجـاد تقارب بين إدورد وأوتيلى ! لـكن أقل ذكر ، وأقل أمل ، وأقل أظن لاح أنه يَهـزُّ الفتاة حتى أعماق قلبها . بل إنها اضطرت ذات يوم إلى الإجابة فأوضحت الأمر بكل جلاء .

فأجابت شرلوت : إذا كنت قد عقدت العزم على العزوف عن إدورد ، فاحذرى أن تريه مرة أخرى أبدا . فنحن حينما نكون بعيدين عن موضوع غرامنا يبدو لنا أنه كلما ازداد وجداننا عنفاً ، ازدادت سيطرتنا على أنفسنا ، لأن كل قوة الوجدان كما تظهر فى الخـارج نديرها فى الداخل ؛ لـكن ما نلبث أن تُنـتَزَع من هذا الخطأ ، حينما يتبدى الموضوع الذى خيل إلينا أننا نستطيع الاستغناء عنه ، فجأةً أمام نواظرنا كشىء لا غنى لنـا

عنه ! فاعملي الآن ما تقدرين أنه ملائم لمركزك ؛ امتحني نفسك ، وغيّري بالأحرى عزمك الحالي ، لكن ليكن ذلك التغيير صادراً عن نفسك بقلب حرٍّ ثابت الإيمان ولا تدعى نفسك تنساق وراء الصدفة والاتفاق والمفاجأة وتحركك إلى صِلاتك القديمة : لأنك ستشعرين هنالك بمعركة لا تطاق يستعِرُ أوارها في قلبك . وكما قلتُ لكِ ، قبل أن تخطي هذه الخطوة وقبل أن تغادريني وتبدأي حياة جديدة تفضي بك يعلم اللهُ إلى أين ، فكري طويلا فيما إذا كنت تستطيعين أن تعزفي نهائيا عن إدورد . إذا كان هذا عزمك ، فعاهديني القول على أن لا تكون لك به بعدُ أية صلة ، بل ولا أي حديث ، حتى لو زارك ، ونفذ إلى مكانك » .

لم تتردد أوتيلي لحظةً ، بل أعطت كلمتها لصديقتها ، تلك الكلمة التي آلتها على نفسها من قبل .

ومع هذا فإن تهديد إدورد كان يعاود دائماً نفس زوجته . لقد قال إنه لا يستطيع العزوف عن أوتيلي إلا طالما ظلت مع شرلوت غير منفصلة عنها . أجل ، إن الظروف قد تبدلت منذ ذلك الحين ، وجرى من الأحداث ما يمكن أن يجعل هذه الكلمة التي ندت في ساعة نشوة وحمية طارئة ، منسوخة بالأحداث التالية . ومع هذا فإنها لم تشأ أن تخاطر وتغامر بأي شيء مهما قل يمكن أن يؤذي إدورد ، وكُلِّف مِتْلر بأن يسبر غور عواطف إدورد من هذه الناحية .

منذ موت الطفل قام متلر بعدة زيارات ، وإن كانت قليلة فهي كبيرة الأثر ، لشرلوت . فهذا الحادث الذي جعله يحكم بأنه من غير المحتمل أبداً أن يعود الرباط بين الزوجين ، قد أحدث في نفسه حزنا عنيفاً بالغا . ومع هذا فإنه وقد هُيِّئ بطبعه للعمل والأمل فرح سِراً بقرار أوتيلي . وحسب حساباً

للزمان ، وإن من شأن الزمان أن يهدّئ من كل شىء ؛ وكان الأمل لايزال يداعبه فى الإبقاء على هذا الرباط المقدس ، وعَـدّ هذه الحركات الوجدانية أنواعاً من المحن يشعر بها الحب والإخلاص بين الأزواج .

وأعلنت رسالة من شرلوت إلى الماچور قرار أوتيلى الأول ، وسألته ، بكل إلحاح ، أن يحصل من إدورد على موافقته بألا يقوم بأى إجراء آخر ، وأن يبقى كل شىء هادئاً ، وأن يُلاحظ بصبرٍ ما إذا كانت الفتاة لن تعود إلى عواطفها الأولى . وأنبأته أيضاً — بقـدر ما يجب — عن كل ما جرى وما عاناه كل منهما منذ ذلك الحين ، وأمامه الآن مهمة شاقة هى أن يهيئ إدورد لتعديل الموقف . أما متلر ، وقد كان يعرف جيداً أن التسليم بما تم كان أيسر من الموافقة على ما لم يتم بعد ، فقد أقنع البارونة بأن خير ما يمكن عمله هو أن ترسل أوتيلى فى الحال إلى المدرسة .

وتبعاً لهـذا فإنه لم يكد يرحل حتى أُعدّت مُعدات السفر . فحزمت أوتيلى أمتعتها ، لـكن شرلوت لاحظت أنها لم تكن متهيئة لأن تأخذ معها الصندوق الجميل ولا أى شىء مما يحتويه . فآثرت أن تترك الفتاة الصامتة تعمل ما يبدو لها . ووافى يوم الرحيل . وكان المقدّر أن تقود العربةُ الفتاةَ المسافرةَ إلى محطة معروفة فى اليوم الأول ؛ وفى اليوم التالى تغدو بها إلى المدرسة ؛ وكان على نانتّ أن ترافقها وتظل فى خدمتها . ولقد عادت هذه الفتاة المشبوبة العاطفة إلى صاحبة الفضل عليها بعد موت الطفل مباشرة وظلت متعلقه بها كما كانت من قبل ، بالميل والطبع . بل بدا أيضاً أنها أرادت ، بثرثرتها المحبوبة ، أن تصلح الزمان المفقود الضائع ، وأن تكرِّس نفسها تماماً لخدمة سيدتها العزيزة . فاستطارتها النشوة لفكرة السفر معها ، ومشاهدة أشياء جديدة ، وهى التى لم تخرج مطلقاً من مسقط

رأسها . فهرعت إلى القرية عند أهلها وأصدقائها ، كيما تنبئهم بنبأ جَدّها السعيد ولتوديعهم . لكنها لسوء الحظ دخلت عند أناس مصابين بالحصبة ، وسرعان ما أصابتها العدوى . ولم يشاءوا تأجيل الرحيل ، فقد ألحّت أوتيلى وأصرت . وهى كانت قد قامت من قبل بهذه الرحلة ، وكانت تعرف أصحاب النزل الذى كان عليها أن تبيت فيه فى الليل ، وكان حوذىُّ القصر هو الذى يسوق عربتها . فلم يكن ثمت ما يدعو إذاً إلى الخوف والقلق .

لذا لم تعارض البارونة ؛ فهى نفسها قد تأخرت فى الرحيل عن هذه الأماكن . بيد أنها أرادت أن تهيئ لإدورد جناح أوتيلى ، وأن تعيده إلى الحال الذى كان عليها قبل مجىء الكابتن . إن الأمل فى إحياء السعادة الماضية يشتعل من جديد مرة أخرى فى قلب الإنسان ؛ وشرلوت كان لها الحق ، بل كان عليها أن تعود من جديدٍ إلى تلك الأمانى والآمال .

الفصل السادس عشر

حينما وصل مِتْلر إلى إدورد ليحادثه فى الأمر ، وجده وحيداً ، قد أسند رأسه إلى يده اليمنى ، ومِرفقه إلى المنضدة . ولاح عليه أنه فى غمرة من الأسى والألم .

فقال متلر : ألا يزال الصداع يعذبك ؟

فأجاب : « إنه يعذبنى ، ومع هذا لا أستطيع أن ألعنه ، لأنه يذكرنى بأوتيلى . وأقول لنفسى : لعلها هى الأخرى تتألم ، مستندة إلى ذراعها اليسرى ، ولعلها أن تكون فى ألم أبلغ من ألمى . ولماذا لا أحتمله كما

تحتمله هي ؟ إن آلامها مصدر لسلامتي ؛ وفي وسعي أن أقول إن آلامها مطلوبة لأنها ترسم أمام عيني صورة صبرها ومايصحبه من فضائلها الأخرى ، صورة أوضح وأوقع أثراً . في الألم وحده نشعر تماما بكل المناقب العالية الضرورية لاحتماله » .

فلما رأى متلر صديقه على هذه الحال من الصبر والتسليم ، لم يتحبَّس أن أبلغه مهمته ، لكنه عرضها عليه في خطوات ، راوياً له كيف نشأت الفكرة عند هاتين السيدتين ، وكيف نضجت شيئاً فشيئاً واستحالت إلى مشروع . ولم يكد إدورد يبدى إلا بضعة اعتراضات ضئيلة . والقليل الذى تفوه به ، بدا منه أنه يريد أن يترك المسألة كلها بين أيدى أصدقائه . فإن آلامه الحاضرة لاح أنها جعلته غير آبه ولا مكترث لشيء من الأشياء ولا لحيٍّ من الأحياء .

لكنه لم يكد يصبح وحيداً ، حتى نهض فجأة وتجول في الغرفة يذرعها طولا وعرضاً . لم يعد يشعر بألمه ؛ وفني في الأشياء الخارجية . وخلال رواية متلر كان خيال إدورد العاشق قد حلَّق في أعلى الآفاق : أوتيلي وحيدة أو في شبه وحدة ، على طريق معلوم ، وفي نُزُل مألوف ، كثيراً ما نزل في غرفاته . أفْكر ثم قدّر ، أو بالأحرى ما أفكر وما قدر ، بل نزع به الشوق واستطار أنفاسه وسعّر ، وصار به إليها صوَر . لقد كان عليه أن يراها ويتحدث اليها وينظر . لأى غاية يظهر ؟ ولماذا هذا الموقف والمنظر ؟ وماذا ينشأ عن هذا ويصدُر ؟ ما كان هذا ما دار عليه الأمر واستعبر . فلم يقاوم ولم يتقهقر . لقد كان واجبه المقدّر !

وأفضى بالسر إلى خادم غرفته ، فعلم ميعاد سفرها . فما كان الصبح يتنفس إلا وأسرع إدورد إلى امتطاء الجواد دون رفيق له ، وغدا إلى النزُل الذى

كان مقدرا أن تنزل هي فيه لتبيت ليلتها ، فوصل إليه قبلها بوقت طويل . فتلقته صاحبة النزل بكل لذة وترحاب ، وهي مدهوشة . فقد كانت تدين له بسرور عظيم كسرور ما بين الأحبة والأهل . فهو قد جعل ابنها ، وقد كان جنديا شجاعا ، يظفر بوسام تقدير وجدارة ، بأن أشاد بحماسة أمام الجنرال نفسه ، بالعمل المشرف الذي قام به هذا الابن — وكان إدورد شاهده الوحيد — حتى استطاع أن يتغلب على معارضة بعض أهل السوء . فلم تعرف الأم كيف تعبر له عن شكرانها وتشهده بجميل عرفانها . فهيأت ، بقدر ما وسعها ، غرفتها الأنيقة التي لم تكن في الواقع في الوقت نفسه إلا مستودع الملابس ومخزن التموين . ثم أعلن لها وصول سيدة ستنزل عندها ، فطلب إليها أن تهيىء له — بدون كلفة — غرفة خلفية تطل على الممر . فبدت المسألة لصاحبة النزل محوطة بالأسرار ؛ وسرها أن تنزل عند رغبة هذا السيد المُحْسِن الذي أظهر الكثير من الحماسة والنشاط .

أما هو ، فماذا كانت عواطفه خلال الساعات الطوال التي مَرَّت حتى أتى المساء ؟ لاحلاظ بعنايةٍ الغرفةَ التي سيقدر له أن يراها فيها ؛ فبدت له ، ببساطتها الريفية ، مُقاماً عُلْوياً . وكم تساءل عما إذا كان عليه أن يفاجىء أوتيلي أو أن تُهَيَّأ لملاقاته ؟ وأخيراً تغلب الرأي الأخير ، وأنشأ يكتب . وها هي ذي الرسالة التي كان مقدراً أن تتلقاها منه :

من إدورد إلى أوتيلي

« أثناء ما تقرأين هذه الرسالة ، أي حبيبتي العزيزة ، سأكون بالقرب منك . لا تخافي ولا تجزعي ؛ فليس لدي ما يثير مخاوفك . فلن أدخل عليك قسْراً وقهراً : ولن تريني أبداً قبل أن تسمحي لي بالظهور أمامك .

« فكرى أولا فى مركزك ، وفى مركزى ! كم أنا شاكر لك عدم اتخاذ أية خطوة حاسمة ! لكن هذه مهمة شاقة إلى حد كبير : فلا تقومى بها ! هنا ، حيث ينتهى طريقان ويتلاقيان ، فكرى مرة أخرى وتدبرى . أيمكن أن تكونى لى ؟ أتريدين أن تكونى لى ؟ أوه ! إذن ستسدين إلينا جميعاً خيراً كبيراً ، وإلىّ أنا خيراً لا يبلغ مداه التعبير .

« دعينى أراك مرة أخرى ، أراك بسرور وحبور ! دعينى أوجّه إليك من فمى هذا الرجاء الرقيق ، دعى حضرتك العزيزة تجيب علىّ ! على قلبى ! أى أوتيلى ، حيث رقدتِ أحياناً ، وحيث تحيين أبداً ... »

وبينما كان يكتب ، استولت عليه فكرة أن هذه الفتاة المعبودة تقترب وعما قليل ستظهر . « ستدخل من هذا الباب ، وستقرأ هذا الكتاب ، وستكون أمام عينىّ كما كانت من قبل ، تلك التى طالما تمنيت أن أراها . أ ستكون كما كانت دائماً أم هل تغير وجهها وتبدلت عواطفها ؟ » وكان لا يزال يحمل القلم فى يده ، وأراد أن يستمر فى الكتابة كما يمليه عليه فكره ... لكن العربة كانت تتدحرج فى الفناء ، فأضاف بيد مسرعة لهفَى : « إنى أسمع ... أنت وصلتِ ... وداعاً الآن ! »

وطوى الرسالة ، ووضع العنوان ؛ ولم يكن ثمت وقت لختمه بالشَّمع . وهُرِع إلى المكتب المؤدى فيما بعد إلى الممر ، وفى اللحظة عينها تذكر أنه ترك على المنضدة ساعته وخاتمه . وكان من الواجب ألا تقع عينها من فورها على هذه الأشياء . فعاد أدراجه مسرعاً وأفلح فى أخذها . وهاهو ذا يسمع فى الدهليز صاحبةَ النزل وهى تتقدم نحو الغرفة لتفتحها للمسافِرة . فهرع إلى باب غرفته ، لكنه كان مُغْلَقاً . وكان قد ترك المفتاح يسقط فى الداخل حينما اندفع للدخول ؛ وكان القفل مغلقاً باللولب ؛ أما هو فقد كان واقفاً أمام

الباب . دفعه بعنف : فلم ينفتح . أوه ! كم ودّ أن يكون آنئذ روحاً فينساب من خلال الثُّغرات ! ولما لم يستطع الهروب ، أخفى وجهه فى صُدْغ الباب . ودخلت أوتيلى : وعند ما رأت صاحبة النزل إدوردَ ، تراجعت ، أما هو فلم يستطع أن يختفى عن نظرات أوتيـلى : فاستدارت من حوله ، وتلاقى العاشقان على أغرب حالٍ وصارا كلاهما فى حضرة الآخر . نظرت إليـه بهدوء وجد ، دون أن تتقدم أو تتقهقر ؛ ولما تحرك ليقترب منها ، تراجعت خطوات إلى الوراء حتى بلغت المنضدة . وهو أيضاً رُدّ إلى الخلف قليلا .

صاح : « أوتيلى ، دعينى أقطع هذا الصمت الرهيب ! أوَلسنا إلا ظلالا الواحد منا فى حضرة الآخر ؟ لـكن قبل كل شىء ، اسمعى لى : بالصدفة تجدينى هنا عند وصولك . بالقرب منك رسالة كان مقدراً لها أن تهيئك لهذا اللقاء ؛ فاقرئيها ، أستحلفك بالله ، اقرئى هـذه الرسالة ، ثم قررى ما تستطيعين » .

أَلقت بنظرها على الرسالة ، وبعد قليل من التفكير ، أخذتها وفتحتها وقرأتها . ثم نَحَّتْـها جانباً برفق دون أن يتغير وجهها . ثم رفعت إلى السماء يديها المفتوحتين ، مستندة كل منهما إلى الأخرى ؛ وعادت بهما إلى صدرها ، بانحناءة من الجسم رشيقة ، موجّهة إلى من توسل إليها بحرارة نظرةً أرغمته على العزوف عن كل ما يمكنه طلبه وتمنيه . مزقت هذه الحركةُ قلبه ، ولم يقو على تحمّل نظرة أوتيلى وحركتها . ولاح أنهـا على بنات الركوع على ركبتيها ، لو أصرّ هو . نخرج يائساً ، وأرسل إليها صاحبـة الـنزل .

كان يغدو ويروح على مِـسْطَـح السُّـلَّم . وكان الليل قد أرخى سدوله ، وفى الغرفة لم تكن ثمت نَائمة . وأخيراً خرجت صاحبة النزل وخلعت المفتاح .

لقد استولى التأثر والاضطراب على هذه السيدة الطيبة الساذجة ، ولم تعرف ماذا تعمل ، وأخيراً حينما انصرفت قدمت المفتاح إلى البارون ، لكنه رفضه . فتركت النور وانصرفت .

وفى أعماق أحزانه نام على العَتَبة وغمرها بعبراته . ولعله لم يحدث مطلقاً من قبل أن كان عاشقان ، ما أقرب كلاً منهما من الآخر ، يقضيان ليلة قاسية كتلك الليلة .

وانبلج الصبح ، وقَدّم الحوذىّ العربة ؛ وفتحت صاحبة النزل ودخلت الغرفة ، فوجدت الفتاة نائمة بملابسها كلها ؛ فتراجعت ، وبابتسامة حنون ، أشارت إلى إدورد . فتقدما سوياً نحو الفتاة الغافية : لكنه لم يستطع احتمال هذا المنظر ، وصاحبة النزل لم تجرؤ على إيقاظ الطفلة الهادئة ، فجلست قُبالتها . وأخيراً فتحت أوتيلى عينيها ونهضت . ورفضت الإفطار . هنالك مَثَل إدورد أمامها ورجاها بالحاح أن تتفوه له بكلمة واحدة تعبّر فيها عن إرادتها ، فهو لن يفعل إلا ما تشاء ، وأقسم بهذا لكنها التزمت الصمت . فسألها مرة أخرى بحب وإلحاح ما إذا كانت تريد أن تكون له . بأى لطف خَفَضَتْ عينيها ، وأَنْغَضَت رأسها معبّرة عن رفض رقيق ! فسألها ما إذا كانت تريد الذهاب إلى المدرسة الداخلية . فرفضت بعدم اكتراث . وأخيراً حينما سألها عما إذا كان يمكنه أن يردها إلى شرلوت ، أجابت بلا تردد بالإيجاب ، بواسطة إشارتها برأسها . فهرع إلى النافذة يعطى الأمر إلى الحوذى ؛ لكنها فرت من الغرفة كالبرق الخاطف من خلفه وهبطت السلم وصعدت العربة . واستأنف الحوذى الطريق إلى القصر . وتابع إدورد الموكب راكباً على مسافة قليلة .

الفصل السابع عشر

كم تولت شرلوت الدهشةُ ، حينما رأت عربتها تعيد إليها أوتيلى ، وترى فى الوقت نفسه إدورد عائداً على جواده فى فِناء القصر ! أسرعت حتى بلغت عتبة الباب . ونزلت أوتيلى من العربة وتقدمت هى وإدورد ، وضغطت بحرارة على يد الزوج وزوجته ، وعانقت يد الواحد مع الآخر وهرعت إلى غرفتها . فقذف إدورد بنفسه إلى جيد شرلوت وأسبل فيضاً من الدموع . إنه لا يستطيع أن يفسر ما حدث ؛ فتوسل إليها أن تصبر عليه ، وأن تغدو لمعونة أوتيلى . فطارت شرلوت إلى صديقتها الصغيرة ، وارتعدت حينما دخلت : رأت الغرفة خاوية من كل أثاث ، ولم يَعُد فيها غير الجدران الأربعة ، ولاحت واسعة بقدر ما هى حزينة . لقد أُخِذ كل شىء ، فيما عدا الصندوق الصغير الذى تُرِك وسط الأرضيــة ، لأنه لم يتقرر أين يجب أن يوضع . وكانت البائسة راقدة على الأرض ، ورأسها وذراعها مستندتان إلى الصندوق فأسرعت شرلوت إلى العناية بها ، وسألتهــا عما جرى ، لـكنها لم تظفر بأى جواب .

تركت عند أوتيـلى وصيفتها التى أحضرت معها مقويّات للقلب ، وهرعت إلى إدورد ؛ فوجدته فى غرفة الاستقبال ، لـكنه لم يكن فى حاجة إلى أن يعلم منها شيئاً . فارتمى على قدميها ، وبلل يديها بالدموع ، وفرّ إلى مخدعه ، ولمـا رغبت فى متابعته ، التقت بخادم الغرفة الذى أعطاها كل ما وسعه من إيضاحات . وحَـدَست هى الباقى ، ثم فـكرت فى الحال بكل عزم فيما يقتضيه الأمر تواً . فأثّـثَتْ غرفة أوتيلى بأسرع ما يمكن ؛ واستعاد إدورد جناحه ، وكل أوراقه كما تركها .

ولاح أن ثلاثهم قد عادوا إلى نفوسهم وثابوا إلى رشدهم ، حينما صار كلٌّ فى حضرة الآخر . لكن أوتيلى أصرت على التزام الصمت ، ولم يكن فى وسع البارون إلا أن يتوسل إلى زوجته أن تعتصم بالصبر الذى لاح أنه يعوزه هو الآخر أيضاً . وبعث برسائل إلى متلر وإلى الماچور . لكن لم يجدوا متلر فى بيته . وجاء الماچور ، وتحدث إليه إدورد بكل صراحة ؛ فاعترف له بكل ما حدث بتفاصيله الدقيقة ، وهكذا عرفت شرلوت ما جرى مما بدّل الموقف على هذا النحو الغريب وأشاع الاضطراب فى القلوب .

تحدثت إلى زوجها بلهجة بالغة الحنان والعطف ؛ ولم تدر ماذا تقول له إلا أن تتوسل إليه ألا يضايق أحدٌ الآن هذه الفتاة المسكينة . فقدر إدوردُ فضيلة امرأته وحبها وعقلها ، بيد أن هواه قد استولى عليه بطريقة مطلقة . فلوحت له بالآمال ، ووعدته بالموافقة على الطلاق . لكنه لم يستطع الثقة بحديثها وكلامها ؛ لقد كان على حال من المرض جعلته يهجر الأمل والثقة الواحد بعد الآخر فحملها على أن تعد بيدها للماچور . واستولى عليه نوع من الهياج والجنون ولكيما تهدىء من ثائرته وتسكن فورته فعلت ما سألها ، ووعدت بيدها للماچور ، فى الحالة التى توافق فيها ابنة أختها على الاقتران بإدورد ؛ لكنها أضافت هذا الشرط الصريح وهو أن يقوم الصديقان أولا برحلة سوياً ، لقد كُلّف الماچور من قِبل أميرة بمهمة فى الخارج : فوعد البارون بمصاحبته . وهيِّئت الإعدادات ، وشاع نوع من الهدوء قليل ، على الأقل لرؤية أن ثمت شيئاً يُعْمَل .

وكان السهر على أوتيلى قائماً ، فشوهد أنها لا تكاد تتناول طعاماً . وأنها تصر على التزام الصمت . فوُجّه إليها النصح ؛ فصارت قلقة ؛ فتركت وشأنها ، إذ يحدث كثيراً أن يتملكنا الضعف فلا نحب أن نعذّب أحداً

حتى من أجل فائدته وصالحه . فـكرت أوتيلى فى كل الوسائل ؛ وأخيراً أتتها فـكرة أن تدعو من المدرسة المعلّمَ وقد كان له سلطان كبير على تلميذته هذه ، وكان قد عبر ، بطريقة ودية خالصة ، عن دهشته لعدم وصول أوتيلى ، لـكنه لم يظفر بجواب .

ولـكيلا تفاجَأ أوتيلى ، تحدثوا عن هذا الاقتراح فى حضورها . فلاح أنها لا توافق عليه . وأفـكرت وقدرت ؛ وأخيراً بدا أنها اتخذت قرارها . هُـرِعت إلى غرفتها ، وقبل المساء بعثت بهذه الرسالة إلى أصدقائها مجتمعين .

من أوتيـلى إلى أصدقائها

« لماذا يجب علىّ ، أى أعزائى ، أن أصرح بما هو مفهوم بنفسه ؟ لقد خرجت عن طريقى ، وليس علىّ أن أرتد إليه . إن جِنّـياً معاديا استولى علىّ ويلوح أنه يواجهنى بقوته الغريبـة ، حتى لو صرتُ من جديد فى وفاقٍ مع نفسى .

« لقد طويتُ كَشْـحى بصراحةٍ على العزوف عن إدورد ، والفرار منه والزهد فيه ؛ وداعبنى أمل فى ألا ألتقى به أبداً . لـكن ما حدث كان على خلاف هذا . لقد ظهر أمامى ، على غير إرادة منه . ولعلى قد تقيدت فى تفسيرى الوعدَ الذى قطعته على نفسى بألّا أدخل معه فى حديث . لقد ألهمنى ضميرى فجأةً أن ألتزم الصمت فى حضرة صديق هذا ، وليس لدىَّ الآن ما أقوله . تعهدت عَرَضاً تحت تأثير سلطان العاطفة تعهداً قاسياً لعله أن يكون عبئاً ثقيلا على من يقوم به بعد تفـكير . فدعونى أستمر فيه طالما جعل قلبى منه قانونا . ولا تهيبوا بأية شفاعة ولا وساطة ؛ ولا تتعجلونى بالـكلام ، وبزيادة الغذاء أكثر مما تقتضيه الضرورة القُـصوى . أعينونى برحمتكم وصبركم على قضاء

زمان محنتي هاتيك . إني شابة ، والشباب يبرأ خطوة لخطوة . واحتملوا حضوري بينكم ؛ وليكن في حبكم ما يسحرني ، وفي حديثكم ما يعلّمني ، لكن دعوني سيدة عواطفي » .

أُجِّل سفر الصديقين وقد كان مُعدًّا منذ زمان طويل ، لأن المهمة التي كُلِّف بها الماجور قد عانت بعضاً من التأخير . وكم جاء هذا التأجيل موافقاً لهوى إدورد ! ثم لما أنعشته رسالة أوتيلي وشجعته كلماتها المواسية المليئة بالأمل ، وحَقَّ له أن يثابر بإصرار ، قرر في التو أن لا يرتحل .

صاح : « أي جنون أن يلقي الإنسان مندفعاً بما هو ضروري له كل الضرورة ويضرب به عُرْض الحائط ، مع أنه يجب الاحتفاظُ به ، حتى لو كنا مهدَّدين بفقدانه ! ولماذا نعزف عنه ونزهد فيه ؟ لا لشيء إلا ليظهر الإنسان قادراً على الاختيار والإرادة . وتحت تأثير هذا الغرور الأحمق ، كثيراً ما تخليت عن أصدقائي وتركتهم ساعات طوالا وأياما عديدة ، في وقت أكثر بكوراً مما يجب ، لا لشيء إلا لكيلا أكون مضطراً وملزماً أمام الأجل المحدود . أما هذه المرة ، فأني أريد البقاء . فلماذا أرتحل ؟ أفلم تَصِرْ بعيدة عني الآن ؟ لا يخطر ببالي اليوم أن أطلب يدها ، وأضمّها إلى قلبي ؛ بل لا أستطيع أن أُخْطِر بذهني شيئاً من هذا ؛ إنها تجعاني أقشعر وأرتعد ؛ إنها لم تبتعد عني ، لكنها ارتفعت فوق مستواي » .

بقي إذاً ، إما طائعاً وإما كارهاً ؛ لكن لم يكن لرضاه حدٌّ حينما كان في حضرة أوتيلي ؛ وهي أيضاً كانت تستشعر نفس الإحساس ؛ وهي أيضاً لم يكن لها قِبَل بتجنب هذا الانجذاب الرقيق العذب . لقد كان كلاهما يحدث في الآخر حينئذ ما كانا يحدثانه من قبل من جاذبية لاتوصف ، أشبه ما تكون بالسحر . كانا يعيشان تحت سقفٍ واحد ؛ ومع هذا ، فحتى من دون أن

يفكر أحدهما فى الآخر ، وحينما يكون كلاهما مشغولا بأشياء أخرى ، مجذوبا بمن يجتمع بهم ، فقد كانا يتقاربان بالتبادل . والاقتراب الكامل كان وحده القادر على تسكينهما ، وكان يسكّنهما تسكيناً كاملا فعلاً ، فكان ذلك كافياً . ولم يكونا يطلبان نظرةً ولا كلمة ولا حركة ولا اتصالا ، لا شيء أكثر من أن يوجدا معاً . هنالك لم يكونا بعدُ كائنين من بنى الإنسان ، بل كائناً واحداً يحيا فى سلام غريزى كامل ، راضياً عن نفسه وعن الدنيا بأسرها . ولو أُودِع أحدهما فى نهاية البيت ، لانجذب الآخر إليه ، من غير شعور ومن تلقاء نفسه ، بدون قصد . أجل ! لقد كانت الحياة بالنسبة إليهما لغزاً ، لا يجدان كلمته إلا إذا اجتمعا معاً .

وكانت أوتيلى على حال من الهدوء والسكون الكاملين بحيث أمكن الاطمئنان إليها تماماً من هذه الناحية . وكانت قليلا ما تفارق الجماعة ، لكنها طلبت أن تأكل وحدها ، ونانتّ كانت وحدها التى تخدُم عليها .

ما يحدث عادةً للناس يتكرر أكثر مما يُظن ، لأن طبيعتهم أقرب الأسباب إليه . فالخلق والشخصية والميول والنزوع والمكان الذى يقام به والبيئة المحيطة والعادات تكوّن كُلاً يسبح فيه كل أمرئٍ وسط عنصر وجوٍّ فيه وحده يشعر بالرضا والطمأنينة . ومن هنا فإن الناس — والشكوى عامة من عدم ثباتهم على حال — ، يبدون لنا — وهذا مما يدهشنا كل الدهشة — ، دائماً هم الناسَ بعد كثير من السنين ، دون أن يكون فى وسع الدوافع العديدة ، خارجيةً أو داخلية ، أن تغيّر منهم .

على هذا النحو تابع كلُّ شيء فى حياة أصدقائنا هؤلاء اليومية ، نفسَ المجرى الذى كان عليه من قبل ، أو أقل قليلا . وكانت أوتيلى ، مع اعتصامها بالصمت ، تبدى دائماً باحتفائها الجميل دماثةَ خلقها ؛ وكلٌّ فعل

هذا على أسلوبه فى الحياة . وهكذا كانت الحياة المنزلية صورة للحالة القديمة ، وكان مقبولاً أن يتخيل المرء كل شىء كما كان قبلا .

وذكَّرَتْ أيام الخريف ، وكانت طويلة طول أيام هذا الربيع الأول ، الجماعةَ فى المنزل بنفس الساعة . فزينة الأزهار والثمار ، الخاصة بهذا الفصل ، جعلها تنظر إلى الربيع الفائت كأنه الخريف الذى تلاه ؛ وضاع الزمان المتوسط بينهما فى غمرة النسيان ؛ وشوهدت الأزهار تتفتح وكانت أمثالها قد بُذِرت فى تلك الأيام البعيدة ، ونضجت الثمار على الأشجار التى رؤيت آنذاك مجللة بالأزهار .

وكان الماچور يسافر ثم يعود ؛ ومتلر يكثر من تردده . وغالباً ما كانت اجتماعات المساء دورية منتظمة . وفى العادة كان إدورد يقرأ بحيـاة أوفر ، وعاطفة أكبر ، وقريحة ، بل وسرور وبهجة أغزر مما كان قبلُ يفعل . ولاح أنه أراد بهذه التسلية والحساسية أن ينتزع أوتيلى من تخديرها ، ويقطع عليها صمتها . وكان على عادته القديمة يجلس بحيث يتيسر لها أن تقرأ فى الـكتاب ؛ بل لقد كان قَلِـقا مورَّع البال حينما لا تنظر فى الـكتاب ، وحينما لا يكون متأكداً من أنها تتابع بعينيها كلَّ كلمة يفوه بها .

ونُسيت العواطف الحزينة والمشاعر الأليمة التى جرت فى العهد المتوسط بين الماضى والحاضر ؛ وما من حقد صار فى النفس بعدُ كامنا ؛ واختفى كل نوعٍ من الحدة والنفور . وكان الماچور يصاحب بكمانه بيانَ شرلوت ؛ وانسجم ناى إدورد كما كان من قبل مع عزف أوتيلى وتمثيلها . واقترب يوم ميلاد إدورد وهم لم يكونوا قد احتفلوا به فى العام الماضى . وكان لا بد أن يمضى هذه المرة فى غير حلية ولا أبّهة ، يمضى فى بهجة الصداقة وسرورها الساجى . واتفق أمرهم على هذا ، اتفاقاً نصفه سر ونصفه صريح . لـكن كما

اقترب ذلك الوقت ، مما فى مزاج أوتيلى ذلك الطابَع الجادّ الذى كان الناس يشعرون به حتى الآن أكثر مما يشاهدونه بعيونهم . وفى الحديقة ، كانت تلوح كثيرا وهى تستعرض الأزهار — وهى قد أوصت البستانى بأن يُبْقى على كل أزهار الخريف — وتتوقف خصوصاً عند الأَسْطير ، وكان مزدهراً بغزارة فى ذلك العام .

الفصل الثامن عشر

لكن أكثر شيء استرعى نظر الأصدقاء الذين كانوا يلاحظون أحوال أوتيلى صامتين هو أنهم رأوها تفتح الصندوق لأول مرة ؛ وأنها اختارت وفَصّلت ، من بين الأقمشة ، ما يكفى لفستان ، واحد ولكنه كامل . ولما أرادت أن تعيد الباقى إلى الصندوق ، بمساعدة نانتّ ، شق عليها هذا العمل : إذ كان مزدحماً إلى أبعد حد ، على الرغم من أن جزءاً من الأقمشة قد نَقَصه . ولم تنفك الوصيفة الشابة عن الإعجاب ، خصوصاً حين رأت أنه جُهّز بكل شيء حتى أبسط تفاصيل الزينة . وبقيت أيضاً ، خارج الصندوق ، أحذية وجوارب وأربطة ساق مزينة بالشرائط ، وقفازات وأشياءُ أخرى . فالتمست من أوتيلى أن تنفحها بشيء منها . فرفضت أوتيلى ، لكنها فتحت فى الحال درجاً فى خزانة ذات جوارير (كومودينو) وتركت الفتاة تختار . فاختارت نانتّ بسرعة وبلا تمييز ، وفَرّت بغنيمتها فى التوّ ، لكى تعلن لأهل المنزل عن ثروتها هذه وتعرضها لهم .

وأخيرا استطاعت أوتيلى أن تعيد كلّ شيء إلى مكانه ، ثم فتحت قسماً سرياً موجوداً فى غطاء الصندوق ، فيه أخفت رسائل إدورد وبطاقاته ،

وأزهاراً جافة ، هى ذكريات لنزهاتها القديمة ، وخصلة من شعر عاشقها العزيز ، وأشياء أخرى . وأضافت إليها شيئا آخر ... هو صورة أبيها ... وأغلقت الكل ، ووضعت على صدرها من جديدٍ المفتاحَ الثمين ، معلقاً بسلسلة ذهبية تحملها حول جيدها .

بيد أن آمالاً عديدة استيقظت فى قلب أصدقائها . فقد كانت شرلوت واثقة من أن أوتيلى ستستأنف الكلام فى يوم العيد ؛ لأنها أظهرت ، عند اقتراب ذلك اليوم ، نوعاً من النشاط ، وكان عليها سيما الرضا الهادئ والابتسام ، مما يبدو مثله على وجه شخص يهيئ لأصدقائه مفاجأة سارّة . ولم يكن أحد يعرف أن الفتاة تقضى الساعات الطوال فى ضعف بالغ ، لم تكن تنهض منه إلا بمجهود هائل ، فى اللحظات التى تتبدى لهم فيها .

ومنذ بعضٍ من الزمان ازدادت زيارات متلر وطالت مدتها على غير العادة . فإن هذا الرجل العنيد كان يعلم أنه لا توجد إلا لحظة واحدة لطرْق الحديد . وفَسّر على نحوٍ حسنٍ صمتَ أوتيلى ورفضها . ولم يكن قد بُذل أى إجراء بعدُ للطلاق . وكان يأمُل فى أن يهيئ بطريقة أخرى مستقبلاً سعيداً للفتاة الطيبة ؛ أرْعى سَمْعَه ، وسَلّم ، وفهم ، وسلك مسلكاً — على طريقته — ينطوى على كثير من الحكمة . لكنه كان ينساق وراء الغضب حينما كان يجد الفرصة للتفكير فى موضوعات يضفى عليها أهمية كبيرة . وكان يحيا كثيراً فى نفسه ، وإذا وُجد مع غيره من الناس ، لم يكن ذلك إلا من أجل أن يبذل من أجلهم نشاطا . وإذا تكلم مرة وهو بين أصدقائه ، كما رأيناه من قبل مراراً ، فإنه يهدر فى غير رحمة ؛ يجرح أو يشفى ، ويؤذى أو يفيد ، حسبما يتفق .

وفى عشية العيد ، كانت شرلوت والماچور جالسين فى غرفة الاستقبال

انتظاراً لإدورد الذى خرج ممتطياً صهوة جـواده . وكان متلر يتجول فى الغرفة ؛ وبقيت أوتيلى ملازمة لغرفتها ، كيما تهيىء زينة الغد ، وتلق بعض التعليمات على وصيفتها التى كانت تفهمها جيداً ، وتعرف تماماً كيف تنفذ أوامرها الصامتة .

وتناول متلر واحداً من موضوعاته الأثيرة لديه . وقد كان يلذ له أن يقول إنه — سواء فى تربية الأطفال وفى حكم الشعوب وسياستها — لا شىء أفسد وأقسى من النواهى ، والقوانين والقرارات المصوغة فى قالب التحريم .

قال : «الإنسان فَعّـال بطبعه ؛ ولو عرف المرء كيف يسوس أمر نفسه ، لتبع أولاً الاتجاه الذى يشار به عليه ؛ فيعمل ويؤدى واجبه . أما فيما يتصل بى ، فإنى أفضل ، فى محيطى ، أن أتحمل الأخطاء والرذائل انتظاراً للفضيلة المضادة ، أولى من أن أتخلص من النقص ، دون أن أرى مكانه أى خير . وإن الإنسان ليعمل بارتياح وسرور كل ما هو خير وحكيم ، بشرط أن يستطيع بلوغه ؛ إنه يعمله ، لـكيما يكون لديه ما يعمله ، ودون أن يفـكر فى الحماقات التى يُسلم نفسه لها إما بطالةً وإما مَـلالا .

« وكم يؤلمنى أن أسمع المعلمين يلقنون الأطفال فى دروسهم الأوامر العشرة ! والأمر الرابع هو الحـكم الإيجابى البديع الحـكيم : «أَحْسِن إلى أبيك وأُمِّـك» . لو نقش الأطفال هذا القول جيداً فى عقولهم وروحهم ، لاستطاعوا التمرن كلَّ يوم على ممارسته . لـكن الأمر الخامس ، ماذا يجب أن يقال عنه : « لن تقتل أبدا ! » كما لو كان ثمت إنسان عنده أقل رغبة فى قتل أخيه ! إن المرء ليبغض آخر ، ويغضب ، وينفعل ، ويمكن أن يحدث ، كنتيجة لهذا كله ، أن يقتل إنسانا عَرَضاً . لـكن ، أفليس من الوحشية فى التحذير أن يلقَّـن الأطفالُ تحريم القتل والسفك ؟ لو قيل : «اسهر

على حياة جارك ، وابعد ما يؤذيه ، وأنْقذه ، حتى لو كان فى هذا خطر على حياتك ؛ وإذا أسأت إليه ، فاعرف أنك تسيء إلى نفسك » — لكانت أمثال هذه الأوامر أنسب لشعوب متمدينة عاقلة ، ومع هذا فهى لا تكاد تظفر بأى مكان بين أسئلة كتاب التعاليم الدينية (الكاتيشيزم) .

« والأمر السادس ! إنى لأراه مريعا قبيحا . ماذا ؟ أنوقظ فى الأطفال حب الاستطلاع والمعرفة بأسرار خطيرة ! ونقدم لخيالهم موضوعات وأفكاراً غريبة ، ليس من شأنها إلا أن تعجل فى عنف بالشر الذى يراد إبعاده وتجنبه ! كان الأولى حقاً أن يعاقب على هذه الأخطاء بطريقة تحكمية بواسطة محكمة سرية ، أحرى من أن يسمح بالتحدث عنها أمام الكنيسة والأبروشية » .

فى هذه اللحظة دخلت أوتيلى ، واستأنف متلر حديثه :

« لن ترتكب الزنا أبدا ! » أى سفاهة وأية وقاحة ! أفلن يكون المعنى مختلفا تماماً لو قيل : « ستحترم رباط الزواج ؛ وإذا رأيت زوجا وزوجة يحب كلاهما الآخر ، فستسعد ، وستشارك فى سعادتهما كأنك فى يوم جميل ؟ وإذا ظهرت سحابة فى جو رباطهما ، فستعمل جهدك لتبديدها ؛ وستسعى لتهدئة خواطرهما وإيجاد الوفاق بينهما ، وتُشعرهما بمصلحتهما المتبادلة ، وبنزاهة نبيلة ستعمل على سعادة الآخرين ، بأن تفهمهم أية سعادة تصدر عن كل واجب يؤدَّى ، خصوصاً عن ذلك الذى يربط بين الرجل والمرأة بروابط لا تنفصم عراها » .

كانت شرلوت على أحرّ من الجمر ، وزاد من قلقها ومخاوفها أنها كانت مقتنعة أن متلر لم يكن يفكر فى مدى كلامه ولا فى المكان الذى يتحدث فيه ، وقبل أن يكون فى وسعها مقاطعته ، رأت أوتيلى يتبدل

وجهها وتنصرف .

« ستعفيننا على الأقل من الأمر السابع ، هكذا قالت شرلوت بابتسامة مقتضبـة .

فأجاب متلر : من الباقى كله ، بشرط أن أنفذ ذلك الأمر الذى يتوقف عليه باقى الأوامر » .

فى تلك اللحظة أقبلت نانتّ مسرعة وهى تصرخ صرخات مريعة :

« إنها تموت ! الآنسة تموت ! تعالوا ! هلموا ! » .

عادت أوتيلى إلى غرفتها وهى تترنح ؛ وكانت زينة الغد مبسوطة على كراسىّ عديدة ، وكانت الوصيفة وهى تتأملها بإعجاب تغدو وتروح مرسلة صيحات السرور .

« انظرى ، آنستى العزيزة ، ها هى ذى زينة خِطّيبى جديرة بك كل الجدارة ! »

سمعت أوتيلى هذه الكلمات فخرت على الأريكة . ورأت نانتّ سيدتها يعلوها الشحوب وتفقد الحركة : فهُرِعت إلى شرلوت . فجاء الكل . وهرع الطبيب . فلم ير فى هذا إلا أثر خور وانحلال فى القوى . فأمر بإحضار مَرَقة ، فعافتها أوتيلى بفزع . وكانت على بتات أن تقع فى انقباضات ، حينما قُرِّب الفنجان من فمها . فسأل بإلحاح وإسراع كما اقتضى الظرف عن الغذاء الذى تناولته فى ذلك اليوم . فترددت الوصيفة ؛ فأعاد السؤال : فاعترفت بأن الآنسة لم تتناول شيئاً .

وبدا الاضطراب على نانتّ أكثر مما يجب . فجرها الطبيب إلى غرفة مجاورة ، وتبعتهما شرلوت . فجثت نانت على ركبتيها ؛ وصرحت بأن أوتيلى قد رفضت منذ زمان طويل كل طعام تقريباً . وتحت ضغط سيدتها ، كانت

هى التى تأكل الغذاء . ولم تقل هذا من قبل بسبب رجوات سيدتها وتهديداتها ، وأيضاً — هكذا أضافت بسذاجة — لأنها وجدت الأطعمة شهية !

ودخل الماجور ومتلر ووجدا شرلوت مشغولة مع الطبيب . وكانت الطفلة المعبودة جالسة فى ركن من الأريكة . كانت شاحبة ، لكن لاح عليها أنها لا تزال تحتفظ بكل وعيها . فسؤلت أن ترقد ؛ فرفضت ، لكنها طلبت بالإشارة أن يُحْضَرَ لها الصندوق . ووضعته تحت قدميها ، وصارت راقدة نصف رقدة فى وضع ملائم مريح . ولاح أنها تريد توديعهم ؛ وكانت حركاتها وإشاراتها تعبّر للحاضرين عن التعلق الحارّ ، والحب وعرفان الجميل ، وسؤال المغفرة والوداع المخلص الصادر من أعماق الفؤاد .

ولما نزل إدورد عن جواده ، عرف حال أوتيلى . فطار إلى غرفتها ، وارتمى تحت قدميها ، وأخذ يدها وغطاها بدموع صامتة غزار . وظل هكذا زمناً ، وفى النهاية صاح :

« أفلن يقدّر لى بعدُ أن أسمع صوتك ؟ أولن تعودى إلى الحياة ، كيما تقولين لى كلمة واحدة ؟ كفى ! كفى ! سأتبعك فى الموت . هناك سنتحدث بلغة أخرى » .

وضغطت على يده بقوة ؛ ووجّهت إليه نظرة مليئة بالحب والحياة ، وزفرت زفرة عميقة ، وحرّكت حركة شفتيها مليئة بسحر سماوى ، ثم صاحت : « عدنى بأن تعيش ! » صاحت فى جهد رقيق لطيف ، ثم ارتدت إلى الخلف مرتمية فى الحال .

« أعدك بهذا ! » هكذا صاح إدورد بدوره ؛ لكن جوابه تبعها دون أن يبلغها . لقد فارقت أوتيلى الحياة .

وبعد ليلة أمضتها شرلوت فى العبرات والزفرات ، كان عليها أن تعنى بدفن هذه البقايا العزيزة . وعاونها الماچور ومتلر . أما إدورد فقد تقطعت أنفاسه حزناً ولهفاً ؛ ولما عاد شيئاً إلى رشده وأفاق قليلا من يأسه ، ألحّ فى عدم نقل أوتيلى خارج القصر ؛ لقد أراد أن يُعْنَى بها وتعامل كأنها شخص لا يزال على قيد الحياة ، لأنها لم تمت ، ولا يمكن أن تكون قد ماتت ، فنزلوا عند إرادته ، بهذا المعنى على الأقل ، وهو أنهم تجنبوا عمل ما منعه . ولم يسأل أن يراها .

وجاء فزع آخر وقلق ثان شغل أصدقاءنا : فإن نانتّ ، وقد أنبها الطبيب أعنف تأنيب ، واضطرها إلى الاعتراف بواسطة التهديد ، وبعد الاعتراف أنحى عليها بأقسى اللائمة ، قد ولت فراراً . وبعد بحث طويل عُثِر عليها : وقد بدا عليها أنها خرجت عن طورها . فأخذها أهلها لديهم ؛ ولم يفلح أى علاج فيها ؛ وكان لا بد من حبسها فى غرفة ، لأنها كانت تهدّد بالفرار مرة أخرى .

وأفلح القوم فى أن يخرجوا إدورد شيئاً فشيئاً من يأسه القتّال ؛ لكن هذا كان من أجل شقائه ، لأنه رأى بوضوح وأيقن أنه فقد نعيم حياته إلى غير رجعة ، وحاولوا أن يصوّروا له أن أوتيلى وقد وضعت فى الكابلّة لا تزال فى عداد الأحياء ، وتنعم بمثوى هادىء وديع . وكان من العسير الظفر بموافقته ، على شرط أن تحمل إلى هناك فى تابوت مفتوح ، وأن توضع فى الحفرة تحت غطاء من الزجاج ، ويوضع إلى جوارها مصباح يوقد باستمرار : هنالك لاح أنه موافق ومستسلم لكل شىء .

وأُلْبِس هذا الجسم الجميل نفسَ الزينة التى هيأتها لنفسها ؛ ووضع على رأسها تاج من زهرة اللؤلؤ (المرجريت) كان يرف كالنجوم الحزينة . ولتزيين

التابوت والكنيسة والكابلة خُرِّبت كل الحدائق ، وكأن الشتاء قد حصد كل الكنوز الباسمة فى المباقل والمزاهر . وفى الصباح الباكر نقلت من القصر فى تابوت مفتوح ، وأضاءت الشمس المشرقةُ هذا الوجه الملائكى مرة أخرى . وتدافع الموكب حول حاملى النعش : إذ لم يشأ أحد أن يسبقه ولا أن يتبعه ، بل أراد الجميع أن يحيطوا به ، ورغب الكل فى أن ينعموا بحضرتها للمرة الأخيرة . وكان الجميع من رجال ونساء وأطفال متأثرين إلى عمائق قلوبهم . والفتيات خصوصاً ، وهن اللائى أحسسن أكثر من غيرهن بالخسارة التى أُصِبْن بها ، كُنَّ فوق متناول كل تعزية وسلوى .

ولم تكن نانت حاضرة . فقد مُنِعت ، أو بالأحرى أُخْفِى عنها يوم الدفن وساعته ؛ فأبقوا عليها عند أهلها فى غرفة تطل على الحديقة . لكنها حينما سمعت أصوات النواقيس ، أدركت تماماً ما يجرى ؛ ولما كانت حارستها — وقد شغفها أن ترى الموكب — قد غادرتها ، فقد تسربت من نافذة فى الممر ، ولما وجدت كل الأبواب موصدة ، صعدت إلى الطابق الأعلى .

وتقدم الموكب بخطوات موزونة ، خلال القرية ، فى طريق كُنس جيداً ونثرت فيه الأوراق . ورأت نانتّ بكل وضوح تحت عينيها سيدتها أجمل وآنق من كل الفتيات اللائى كن يشيِّعن الجنازة . ولاحت أنها تشير إلى خادمتها كأنها مخلوق سماوى محمول على أجنحة السحاب أو ثَبَج الأمواج ، فاضطربت الفتاة وترنّحت وطاش عقلها فاندفعت وألقت بنفسها وهوتْ .

فتباعد الجمع من كل ناحية وهم يصرخون صرخات مريعة . واضطر التدافع والصخبُ الحاملين إلى وضع التابوت . وكانت الطفلة راقدة إلى جواره ؛ وكان يلوح أن أعضاءها قد تحطمت كلها . فأُنْهِضت ، ومصادفة أو بهبة خاصة ، أُسْنِدت إلى جسم أوتيلى ؛ ولاح أنها أرادت ، بما بقى فيها من حياة ،

أن تصل حتى سيدتها العزيزة . لكن ما كادت أعضاؤها المحلقة تمس الثياب ، وأناملها الواهنة تلمس يدى أوتيلى المنضمتين حتى نهضت الفتاة فجأة : فرفعت يديها إلى السماء ، ثم ركعت أمام التابوت ، وفى نشوة ورعة تأملت سيدتها .

وأخيراً نهضت ، وكأنما أصابها الوحى ، وصاحت بسرور مقدس :

« أجل ، لقد غفرت لى ! إن ما لم يغفره لى الناسُ ، وما لم أستطع أنا أن أغفره لنفسى ، يغفره الله لى بواسطة نظرة سيدتى وحركتها وبفمها . وها هى ذى تعود إلى مثواها الوادع العذب ، لكنكم رأيتم كيف نهضت وكيف باركتنى بيديها المبسوطتين ، وكيف نظرت إلىّ نظرة صداقة وود ! وسمعتم جميعاً ، وأنتم على هذا شهود ، أنها قالت لى : « لقد غُفِر لكِ ! » . لم أعد بينكم بعد الآن مجرمة آثمة : لقد صفحت عنى وغفر الله لى ذنبى ، وليس فى وسع أحد بعد أن يلومنى » .

وتكالب الجميع عليها : ودُهِشوا ، وأرْعوها أسماعهم ، وتلفتوا عن يمينٍ وشمال ، ولم يعرف أحد ماذا يفعل .

« احملوها إلى مثوى الراحة والسكون ، هكذا قالت الفتاة ؛ لقد أدّت واجبها ، وكان لها نصيبها من الألم ؛ وليس لها بعدُ أن تقيم بيننا » .

فاستأنف الموكب سيره ، تتقدمه نانت . وبلغوا الكنيسة والكابلة .

وهناك وضعوا تابوت أوتيلى ، عند رأسها تابوت الطفل ، وعند قدميها الصندوق الصغير وقد وضع فى خزانة متينة من البلوط . ووضع حارس للسهر فى الأيام الأولى بالقرب من الجسم الذى لاح أنه كان لا يزال مليئاً باللطف ، وهو راقد تحت غطاء من البَلّور ؛ بيد أن نانت لم تشأ أن يسلبها أحد هذه المهمة ؛ بل شاءت أن تظل وحدها بلا رفيقة ساهرةً بعناية على المصباح الذى

أضيء لأول مرة. وألحفت في الرجاء للظفر بهذا العطف وأصرت حتى أجيبت إلى طلبها، حتى لا تنتابها آلام معنوية أبشع، كان يخشى عليها منها.

لكنها لم تبق وحيدة طويلاً. لأنه عندما أقبل المساء ونشر النور المُرفرف ضوءاً ساطعاً ناشراً كل تأثيره، فُتح الباب ودخل المهندس في الكابلة وقد بدت له جدرانها بزخرفتها الطاهرة تحت هذا الضوء الهادئ أكثر قدَما وأمعن في الأسرار مما كان في وسعه أن يتخيل.

وكانت نانت جالسة إلى جوار التابوت. فتعرفت الشابّ في الحال: لكن، دون أن تتفوه بكلمة، لوحت بإصبعها إلى سيدتها الشاحبة. وكان هو واقفاً في الناحية الأخرى عليه حُميّا الشباب وجماله، منطوياً على نفسه، ثابتاً لا يتحرك، مُفكراً، قد أنزل ذراعيه وضم يديه، تعبيراً عن الشفقة والحنان، ورأسه مائلة محنية ونظرته مثبتة على جسم الميتة.

وهو من قبل قد وقف هذه الوقفة نفسها في حضرة بليساريوس. فعاد إليها الآن دون أن يعي. وكم كانت هنا أيضا طبيعية! في هذه المرة أيضاً هبط فضل لا تصاب له قيمة من ذروته السامية. وإذا كنا نندُب في المحارب الشجاعة والحكمة والقوة والمكانة والحظ كأشياء ذهبت إلى غير عود؛ وإذا كانت فضائل لا غنى عنها للأمة والحاكم، في اللحظات الحاسمة، قد أُسيء تقديرها، بل رُفِضت ومُنِعت: فهنا نظيرها من الفضائل التي أخرجتها الطبيعة من جوفها الخصب قد قُضي عليها بيدها غير العابئة ولا المكترثة؛ فضائل عزيزة، نادرة جميلة، يستشعر العالمُ الفقير إليها في كل وقت، أثرها الهادئ بمتعة وسرور، ويُحِسّ بفقدانها بألم وحزن مقيم.

في الشاب والفتاة حينا صامتَين: لكنها حينما رأته وقد تبللت عيناه

بالدموع ، ولاح أنه غارق فى هوة الألم ، تحدثت إليه بقوة وصدق ، وإحسان واقتناع إلى حد أنه وقد أدهشته فصاحتها استعاد ثباته ورباطة جأشه ، ولاح له أن صديقته الجميلة تحيا وتعمل فى دائرة علوية . فجفت عبراته ، وهدأت آلامه ، وجثا على قدميه ، وودّع أوتيلى ؛ ثم ودع نانت ، وهو يضغط برفق على يديها ، وقبل نهاية الليل ، رحل راكبا جواده ، دون أن يرى أحداً من الناس .

وكان الجراح قد قضى الليلة فى الكنيسة ، على غير علم من الفتاة ، وحينما زارها فى الصباح ، وجدها مليئة بالشجاعة والرزانة والهدوء . وتوقع منها كثيرا من الأوهام والتخيلات ؛ وخيل إليه أنه سيسمعها تحدثه عن أحاديث ليلية مع أوتيلى ورُؤى أخرى مشابهة ؛ لكنها كانت طبيعية ، هادئة ، مالكة لزمام نفسها تماما . وكانت تذكر الماضى تماماً ، وكل الظروف بكل دقة ، ولم يكن فى حديثها شيء ندّ عن الواقع وانحرف عن جادّة الصواب اللهم إلا حادث الجنازة ، الذى لذ لها أن تكرره لنفسها كثيرا ، مُرَدِّدة كيف نهضت أوتيلى وباركت عليها وغفَرت لها وأعادت بهذا إليها الطمأنينة أبدا .

واجتذبت حالةُ المتوفّاة — وقد ظلت على حالها من الجمال ، ولاح أنها نائمة أولى من أن تكون ميتة — الكثيرَ من الناس . ورغب سكان المنطقة وما جاورها أن يروها مرة أخرى ؛ وود كلٌّ أن يسمع من فم نانت الحادث الخارق الذى لا يمكن تصديقه : البعض للسخرية منها ، والكثيرون للشك فيه ، وقليلون للايمان به .

كل حاجة يعوزها الإشباع الحقيقى تدعو إلى الإيمان . إن نانت ، التى اقتحمتها كلُّ العيون ، قد شفيت بلمسة من الرُّفات المقدّس : فلماذا لا ينعم بهذه المنحة آخرون أيضا على هذه الأرض ! أتى كثير من الأمهات

الحنونات — سِراً فى أول الأمر — بأبنائهن المصابين ببعض العلل ، واعتقدن أنهن لاحظن شفاءً مفاجئا . زادت الثقة ؛ وأخيراً جاء أكثر الناس عاهات ونقائصَ وأبعدهم فى السن ، جاءوا جميعاً ينشدون عند أوتيلى الصحة والقوة والعزاء . وازداد جمع الوافدين ، حتى اضطر أولو الأمر إلى إغلاق الكابلة ، بل والكنيسة فى غير ساعات الخدمة الربانية .

أما إدورد فإنه لم يعد يجرؤ على الاقتراب من الميتة . فعاش منطوياً على نفسه ؛ ولاح أنه استنفد كل دمع وعَبرة ، ولم يعد قادراً على التألم . وكُلَّ يوم قلّت مشاركته فى الحديث ، وقل تناوله الطعام . لكن لاح أنه لا يزال يستمد شيئاً من العزاء من الزجاجة التى لم تكن مع ذلك نبيًّا صادقا . ولذ له دائماً أن يتأمل الأرقام المتعانقة ، وبدا أن عينه الرزينة الجادة تنبىء أنه لا يزال يأمُل فى أن ينضم إلى صديقته . وكما أن كل حادث يبدو أنه يشجع السعداء ، وتزيد فى عونهم كل مصادفة ، كذلك فإن أقل الأحداث ينتج عند البائسين الخَور واليأس والقنوط . وذات يوم قَرّب إدورد من شفتيه الزجاجة العزيزة ، بيد أنه أبعدها جازعا فى الحال ؛ لقد كانت هى نفسها ، ولم تكن هى نفسها . وعبثا حاول أن يجد فيها علامة صغيرة . فسأل خادم غرفته حقيقة أمرها : فاضطر للاعتراف بأن الزجاجة الحقيقية قد كُسِرت أخيراً ، واستعيض عنها بأخرى مماثلة تعود هى الأخرى إلى أيام شباب سيده . لم يستطع إدورد أن يظهر الغضب ؛ لقد تقرر مصيره بهذا الحادث ، ولماذا تحدث الشارة أثراً فى نفسه ؟ مع هذا تأثر بهذا أعمق تأثر . ومنذ تلك اللحظة ، عاف كل شراب ؛ ولاح أنه عقد نيته على الامتناع عن الطعام والكلام .

بيد أن نوعاً من القلق كان يستولى عليه من حين إلى حين ؛ فكان

يسأل بعضاً من الطعام ، ويستأنف الـكلام .

« آه ! هكذا قال يوماً للماچور الذى كان دائماً تقريباً إلى جـواره ، كم أنا بائس ! كل مجهوداتى لم تُـفْضِ إلا إلى محاكاة ، وإلى عمل لا غَـناء فيه . وما كان هناء لها صار عندى عذابا وشقاء . و م هذا فإنى مضطر إلى تحمل هذا العذاب كيما أصل إلى ذلك الهناء . يجب أن أتابعه ، أتابعه من هذا الطريق . لـكن طبيعتى ووعدى يمنعانى . يا له من عمل مخيف أن يحاول المرء محاكاة ما لا يمكن محاكاته ! إنى لأشعر جيداً ، أيها الصديق ، بأن المرء لا يستطيع أن يظفر بشىء من دون عبقرية وموهبة ، بل ولا أن يظفر بالاستشهاد » .

وفى هذا الموقف الملى بالقنوط ، ماذا يجدى أن نروى كل ما فعلته شرلوت والماچور والطبيب لإدورد حيناً من الزمان ؟ لقد وجد أخيراً ميتاً . وكان متلر هو الذى قدر له أن يكتشف هذا الاكتشاف الحزين . فدعا الطبيب ، وبثباته المعهود ، لاحظ بدقة كل الظروف التى وجد فيها المتوفَّى . وهرعت شرلوت وقد خرجت عن صوابها : وخيل إليها أنه انتحر . واتهمت نفسها ومن حولها بإهمال لا يغتفر . لـكن الطبيب ، بأدلة مادية ، ومتلر ببراهين معنوية ، أقنعاها بأنها مخطئة . فمن الواضح أن إدورد قد فاجأه الموت فى لحظة هادئة . وقد انتزع من صندوق صغير حافظة أوراق ونشر أمام عينيه ما اعتاد حتى ذلك الحين أن يخفيه بعناية ، ونعنى ما بقى له من أوتيلى : خُـصلة من الشـعر ، وأزهار اقتطفت فى أوقات هانئة ، وكل البطاقات التى كتبها إليها ، من الأولى التى ردتها إليه شرلوت بصدفة منبئة ، حتى الأخيرة : كل هذه الأشياء لم يكن فى وسعه أن يعرضها باختياره لاكتشاف عَرَضى طارئ .

وهذا القلب الذى ظل حيناً طويلاً فريسةً لاضطراب لا حدَّ له ولا نهاية ، قد صار الآن غارقا فى سُبات أبدى ؛ ولما كان قد رقد وهو يفكر فى الفتاة المقدسة ، فيمكن أن يقال من غير شك إنه مات مغموراً بالسعادة . ولقد أعطته شرلوتُ المكان الذى كان ينتظره إلى جوار أوتيلى ، ومنعت من أن يدفن أحدٌ بالقرب منهما فى هذه الحفرة . وتحت هذا الشرط وهبت الكنيسة والمدرسة والراعى والمعلم أوقافاً طائلة .

وهكذا رقد العاشقان كلاهما بجوار الآخر ؛ والسلام يسود فى مثواهما الأخير ؛ والملائكة ، إخوانهما ، يلقون عليهما من أعلى قبة السماء نظرات ساجية وادعة . آه ! ما أسعد اللحظة التى سيبعثان فيها معا !

الأنساب المختارة